الموسوعة الشامية في تاريخ الجزء والحيضي
المصادر العربية
مؤرخ القرن السابع (1)

تأليف وتحقيق وترجمة
الاستاذ الدكتور سيميل زكار

الجزء الرابع عشر
دمشق
1990 — 1412 هـ
المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

1 - ابن جبير
2 - عبد اللفيف البغدادي (نصوص من تاريخه ورحلاته)
3 - ابن الأثير الجزري (الباهرب في الدولة الآتانية)

دمشق 1414 / 1994
توضئة

بسم الله الرحمن الرحيم

من مزايا الأدب الجغرافي العربي غناه كتابات الرحالة، والرحالة
وإن اعتمدوا من حيث المبدأ إلى الجغرافيين، هم في الواقع ينتمون
بصورة أكثرتصاقا إلى التاريخ، لأن مدوناتهم وثائقية لهم قيمة
سياسية واجتماعية واقتصادية كبيرة، وفي تاريخنا العربي جاء جل
الرحلات في الغرب الإسلامي، من الأندلس وبلدان الغرب، ومعظم
الرحلات بالأصل حجازية، ثم تطورت فصارات شامية وعراقية
وجزيرية ومصرية.

لقد جاء معظم المغاربة والانداسيين يرا وبحرا إلى الشرق طلبا
للعلم وإداء فريضة الحج، ولاحظ أن عدد هؤلاء الذين زاروا
الشرق في فترة الحروب الصليبية لم يكن كبيرا، مقارنة بعدد
الأوربيين الكبير الذين حموا أذانها إلى الأراضي المقدسة، وسقوم
- إنشاء الله - في فترة لاحقة بترجمة كتاب الرحلات الأوربية.

ومع اندلاع احداث الحروب الصليبية غادر المشرق الامام أبو بكر
ابن العربي وذكرت من قبل أنها طلعت على نسخة خطية في المغرب
من هذه الرحلة، ومع ذلك أودع ابن العربي في كتبه عدد من
المشاهدات خاصة في كتابه العواصم من القواسم، وبعد ابن
العربي، يعد ابن جبير أهم الرحالة الذين زاروا الشرق أكثر من مرة
اينام ذور الدين، ولثم إبراهيم صلاح الدين وافتقت رحلة ابن جبير انتباه
المؤرخين والباحثين إليها منذ القرن الماضي، و materiał و الموضوع اهتمام
المؤرخين وسواهم وابن جبير:
هو محمد بن أحمد بن جبير الكتاني الأنداسي، البليدي الأصل، الفرناطي الوطن. ولد سنة 540 هـ أو قبيل ذلك سنة. وتوفي بالاسكندرية سنة 614 هـ. وكان شاعراً بارزاً من علماء الأندلس فقهاً وكرم شمساً ولساناً. فسمح العلم عن علماه عصره في الأندلس ثم في الحجاز والشام والعراق، وقام ابن جبير بثلاث رحلات إلى الشرق، كانت أولاهما سنة 657 هـ وهي التي ودع مشاهداته خلالها في كتاب.

رحلته المتدول ثم قام بالرحلة الثانية سنة 580 هـ، وذلك انه سمع بنصر حنين، فجاء ليقدم تهانيه ويعود لصالح الدين، وسندري في الروضتين لبي شامة نص القصيدة التي تؤظمهما بهذا المناسبة، وأمضى هذه المرة عامين في المشرق ثم عاد إلى غرناطة ثم رحل ثالثًا أكثر وفاته زوجته، فجعل وجاور طويلًا ثم قدم إلى الأسكندرية حيث توفي فيها.

وسردي في مواد موسوعتنا صورة الإحداث الأسابيع التي عانت منها بلاد الشام والجزيرة ومصر بعد وفاة صلاح الدين، وذلك بسبب الصراع بين ابن ابن البشري أيوب، وقد حسم الصراع بعد اتم ولد الملك العادل أبو بكر بن أيوب - أخد صلاح الدين - وحضار المؤتمرون إلى ان مصر عانت منذ السنة التي تسلم العامل السلطنة فيها من الحط الشديد، إضافة إلى القحط الشديد التي تسبب موجة هائلة. ووصف بعض صورها عبد الله الطيفي البغدادي.

وهو موقف الدين - أبو محمد عبد الله الطيف بن يوسف بن محمد ابن علي وعرف بابن البلد، كان موظفاً للبلد، ببغداد مولداً. ولد سنة 557 هـ أو 1162 م. ونشأ دعاء جزيرة حيث أناصره منذ طفولته نحو طلب العلم في بغداد ولا ثم في دمشق. وقد اعتمد اهتماماً كبيراً بصناعة الطب، ولطب أحبب في دمشق.

وقد حدثنا نفسه عن قردهم إلى دمشق بقوله: وما كان في سنة خمس وثمانين وخمسات حيث لم يبق في بغداد من يأخذه بالغ.
ويملاعيني، ويحل ما يشكل علي دخل الموصل، فلم اجد فيها
بغيتي... ولا دخلت دمشق وجدت فيها من عيان بغداد والبلاد ممن
جميع الاحسان الصلاحي جمعها كبيرا، وشراك البغدادي في
نشاطات دمشق العلمية، ثم ارتحل الي مسخر صلاح الدين قرب
عكا، قال: ثم انني توجهت الي زيارة القدس، ثم الي صلاح الدين
بيظاهر عكا، فاجتمعت بيهاء الدين ابن شداد، قاضي العسكر
يومذئ، وقد اتصلت به شهري بموصل، فانبسط علي وقبل علي
وقال: نجتمع بعماد الدين الكاتب، فحناي اليوه، وخيمتني الزيامة
بهاء الدين، وفجحته كتب كتابا الى الديوان العزيز بقلم التفانت من
غير مسونة، وقال: هذا كتاب الى بلدهم، وذاك في مسائل من علم
الكلام، وقال: قوموا لنا الى المقام الفاضل، فخنسنا عليه، فرآيت
شيئا ضئيلا كله رأس وقلب، وهو كتب وملي علي اثنين، ووجهه
وشفته تلعب الموان الحركات لقوة حرصه في اخراج الكلام، وسأله
يكتب بجملة اعجاسه... وقال لي ترجع الى دمشق وتجري عليك
الجريات، فقال: اريد مصر، فقال السلطان مشغول القلق باخذ
الفرنج عكا، وقتل المسلمين بها، فقال: لابد لي من مصر، فكتب
لي ورقة صغيرة الي وكيله بها.

فلما دخلت القاهرة جاهز وكيله - وهو ابن سناء الملك - وكان
شيخا جليل القدر، نافذ الامر، فانزلني بارا قد أزحت علقنا وجاكني
ببساط وفلة، ثم مضى الى ارباب الدولة وقال: هذا ضيف القدسي
الفاضل، فرنت الهدايا والصلاة من كل جانب... وشا ع ان صالح
الدين هاين الفرنج وعاد الى القدس، فاقتنى الضرورة الى التوجه
اليه... وتوجهت الي القدس فرأيت ملكا عظيما يسلام العين روعة.
والق驷ب محبة، قريبا بيدا، سهلا محببا، واصحابي يتشهرون به
يتسبأبون الى المعروض، كما قال الله تعالى: ننزع ما قد صدرهم
من غل، واول ليل حضرته وجدت مجازيسا حفلا بـاهل العلم
ينداكون في اصناف العلم، وهو يحسن الاستماع والمشاركة،
وياخذ في كيفية بناء الاسوار وحفر الخنادق، ويتفقه في ذلك وينائي
بكل معنى بديع، وكان مهتما في بناء سور القدس وحفر خندقه،
يتولى ذلك بنفسه وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأسِّى به جميع الناس الفقراء والأغنياء، والأقوياء والضعفاء حتى البناء الكاتب والإقاف الفاضل، ويركب لذلك قبل طلوع الشمس، ويأتيناه وينصف الطعام ثم يستريح، ويركب العصر، ويرجع في المساء، ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعملنهاراً، فكتب أي صالاح الدين بثلاثين ديناراً في كل شهر على ديوان الجامع، واطلق لي ولاده روابط حتى تقرر لي في كل شهر مائة دينار.

ورجع البغدادي إلى دمشق، وكان فيها عندما عاد صلاح الدين إليها، وشهد هناك مرض صلاح الدين ووفاته وما حدث بعد ذلك قال: ثم إن صلاح الدين تدخل دمشق، وخرج بودع الحاج، ثم رفع فحص قصدته من لأخرجه عنه، فخالطت القوة، ومات قبل الرابع عشر، ووجد الناس عليه شبيهاً بما يجدهونه على الأنيبياء، ومازالت حزناً الناس بموته سواء لأنه كان محبوباً يحبه البر والفاجر، والمسلم والكافر، ثم تفرق ولاده وأصحابه اديساً، وَمَزَقوا في البلاد كل ممزق.

وَقَامَ البغدادي بدمشق حتى حاصرها العزيز عثمان بن صلاح الدين، وقد خرج إليه، ووافقه إلى مصر، وظل مقيداً بالقاهرة، حتى ما بعد وفاة العزيز عثمان إلى استيلاء العادل على القاهرة، وقد قام البغدادي بوصف مصر دون اخبار المجاعة التي تعرضت إليها أيام العادل، وبعد هذا غادر مصر إلى القدس، ثم إلى حلب، وبعد ذلك إلى حلب، وزار بلاد سلاجقة الروم، ثم عاد إلى حلب، فأقام بها سنة طويلة وخلق له في شهور سنة ثمان وعشرين وستمائة، السفر إلى العراق لحج، فمرض في بغداد، واخذ في دماداه نفسه بطبه، فمات - كما شاه الله - في شهر سنة تسعة وعشرين وستمائة (1234 م)، وكان البغدادي غزير الإنتاج متنوعه، من ذلك الحديث واللغة والطب والحساب والأنبى، والتأريخ، ووصلنا من تاريخه بعض النقول تختلف منها مارتحلت به موضوع الحروب الصليبية، كما اخترى فصولاً مما وصف به المجاعة بمصر.
واعود للتأكيد إن لمواد ابن جبير مواد البغدادي أهمية تقترب بما
كتبه العماد الإصفهاني وابن شداد، وتغفي صورة الأحداث، ناسياً
من الجوانب غير العسكري والسياسية.

وينتمى إلى عصر ابن جبير البغدادي مؤرخ كبير، عاش أيضاً
عصر صلاح الدين، لا يفلح بعض معاركه، ومع ذلك لم يكن كبير
الإعجاب بصلاح الدين ولا يثعبه له، لأنه جزري الدولد، موصلي
الأقامة، اتابكي الهوى، إنه ابن الأثير الجزري.

عدت منطقة الجزيرة بين أقدم الامصار التي اсетرت فيها
الحضارة العربية في منحونات مدارس المكتبات، وعن شیفا
الكتاب والشعراء، وصنف الجزرین في مختلف فنون المعرفة
باسرية حننا واللغة في غالب الأحيان، ونذكر لنا التعرف إلى
عدد من المؤرخين السريان، ولا سيما الذين أرخوا لأحداث الحروب
الصلبية، وأكثر من السريان وأعظم شهيرة الذين أرخوا باللغة
وتعرفنا من قبل على ابن الأزرق وتعالينا مع مواله الذي أدعهـا في
كتابة تاريخ أم و sécurاتين.

واعظم شهرة من ابن الأزرق وأخصه انتاجا ابن الأثير، هو
عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكريم محمد بن سعود
عبد الوحدة الشيباني وقد ولد عز الدين (550 هـ / 1223 م)
في جزيرة ابن عمر، وكانت من أعمال الوصول، وفيها عاش إلى أن
انطلق مع والده واسره إلى الموصل سنة 769 هـ / 1183 م، وكان
والده من اعيان العاملين في الدولة الاتابيكية بالموصل، وغالبا ما
اشار إليه ابنه في كتاباته.

وكان لأبن الأثير اخوين، واحد اسن منه، هو مجد أبو
السعادات داود، ولد سنة 549 هـ / 1154 م، وعرف الغدير
منه باسم ضـايى السيدين نصر الله، وكان قد ولد
سنة 558 هـ / 1162 م، واتجه كل واحد من الأخوة الثلاثة نحوـ
اختصاص تميز به، فقد شهِر مجد الدين بالعلوم الدينية، واختص
ضياء الدين بالابد، وسرد معنا ذكره كثير، اثناء وزارته لأفضل
على بن صلاح الدين، وقيل ضياء الدين خدم مجد الدين في إدارة
الاتباعية في كتابة الانشواء بالوصل، لكن عز الدين مؤرخنا - كما
يرجع - لم يدخل في خدمة الاتباعية ولعله لم يتسلم أية وظيفة لديهم،
مع أن صلاحيته بهم كانت وثيقة، ومكانته لديهم عالية حتى أنه سفر
لبعضهم إلى بغداد وربما إلى غيرها، وتتبعت مؤرخنا على علماء
عصره وحصل على معارف واسعة خاصة في ميدان التاريخ وصنف
اربعه كتب وتصنفت ونشر بعضها أكثر من مرة وهي:
1 - اللباب في تهذيب الانساب
2 - اسد الغابة في معرفة الصحابة
3 - الكامل في التاريخ
4 - التاريخ الباهر في الدولة الاتباعية بالوصل

وقد هدف في الأول كتاب الانساب للسمعاني، وله السمعاني
اقتصار اهتمامه على الانساب الجغرافي، فقد كتب كتاب اللباب لأبن
الاثير جغرافيا تاريخيا، ولهه اعتماد أبو الغناء في تصنيفه لكتابه
تقويم البلدان.

ويعتبر كتاب اسد الغابة من أهم معاييم تراجم الصحابة عليه السلام
اما الكتاب الكامل في التاريخ، فهو من أهم مصدرات تاريخ الإسلام.
اختصر فيه ما وردت العبرية في تاريخه ثم أكمل أخبار الإسلام حتى
اليام، لكنه وإن اعتمد على الطبري بشكل أساسي فأنه استدرك
عليه وسندخل في معلوماته ورائع التدوين بين أخبار الشرق
والمغرب.

وصنف ابن الاثير كتابة الباهر للتاريخ لأسرة الاتباعية التي
عاش ودروها في كثافتها، وكان والده مصدر الكثير من معلوماته،
وذلك مشاهداته وسماعاته من معاصرية، وبحكم الانتماء إلى
الاتابكة أقبل على الثنا علىهم جميعاً، ولدى تأريخه للصراع بين
صلاح الدين والاتابكة الشام والموصل تحزب للاتابكة وحرة صلاح
الدين من الثنا ان لم نقل ان الحكمائه، ومع هذا يظل كتسابيه
هذا بين اهم مصادر اخيار الجزيرة والحروب الصليبية، يكلف حركة
موانئنا التي حصلنا عليها من ابى الأزرق الفاضي والمصور
السرياني، اما موقفه من صلاح في موانئ العدد الاصفهاني وابن أبي
طي وابن شداد وسواهم ما يعدل الضرورة ويوالن المعلومات.

للكتاب الباهر نسخة خطية واحدة معروفة بالعالم، محفوظة في
المكتبة الوطنية بباريس ب americ برقم 818 / 5 ، وقد وقعت في 1232 / ورقة،
احذري كل وجه منها على ثلاثة عشر سطراً، في كل سطر ما بين
سبع الى عشر كلمات، وسافر نشر هذا الكتاب من قبل
المستشرق الفرنسي دي سيلين عام 1876 م وترجم إلى الفرنسية ثم
اعيد تحقيقه ونشر بالقاهرة عام 1963 م، محقاً من قبل عبد
النادر أحمد الخيام، حيث كان موضوع رسالة ماجستير دفعفشت
في جامعة عين شمس عام 1962.

وبدل السيد طليمات قصارى جهده لضبط نص مخطوط -هذا
الكتاب الهم، واستدرك كثيراً من التصحيحات على طبعة دي
سيلين، لكن ضمن حفاظاته التاريخية حول السلاجقة وقشرة
الحروب الصليبية وعدم تعمسه بالتعامل مع المخطوط العربي جعله
يصفح العديد من الكتالوم، لا بل أكثر من ذلك جعله يقوم بحذف
الصحيح من بين المخطوطات وإبداع بالحاشية واستبدالها بما وجد
هنهما الصحيح، ودفعت هذا الى العودة إلى تحقيق الكتاب وادخاله
من مواد موسوعيتنا.

بسم الله اسال العون، والسدد، واتوجه اليه جل وعلا بالثناء
والحمد والشكر.
و اصالة والسلام على من لا يبي بعده محمد بن عبد الله، وعلى الله وصحبه اجمعين.

دمشق 21 – ذي القعدة 1415 هـ

20 – نيسان – 1995 م

سهيل زكار
مشاهدات

ابن جبير في بلاد الشام والجزيرة
ذكر مدينة الموصل حرسها الله تعالى

هذه المدينة عتيقة ضخمة، فخمة، قد طالت صحبتها الزمن، فأخذت أن تكون استعدادًا لحوادث الفتن، قد كانت إبراجها تلقى انتظامًا، لهذن مسافة بعضها [من بعض]، وبوابة داخل مدهبها بيوت، بعضها على بعض، مستديرة يحدثها الطوف بالبلد كله، كانه قد تمكن فتحها فيه لفظ بنية، وسعه ورضعه، ولقيمته في هذه البوت حزرة وقائية، هي من الروافض الحربية. وفي البلد، قلعة عظيمة، قد رصها بناؤها رصا، ينظامهما سور عتيق البناء، مشيد البوت، وتتصل به دور السلطان، وقد فصل بينهما وبين البلد، شارع متسع، يمتد من أعلى البلد إلى أسفله، ودجلة شرقي البلد، وهي متصلة بالسوار، وإبراجها في مائها.

والبلدة ربع كبير فيه المساجد والحمامات والشوارع والأسواق، وحده فيه بعض أجزاء البلد، وكان يعرف بمجاهد الذين - جامعا على شط دجلة، ما أرأى وضع جامع، وحلف منه بناء يذكر الوصف عنه، وعن تزويته وتربيته، وكل ذلك نفسه في الأجر، وأما مقصورة فتذكر بمقاصير الجنة، وباطف به - شهابيك حديد، تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مثقل اشرف منها ولا أحسن، ووصفه يطول، وإنما وضع النائم بالبغض، جريا إلى الاختصار. وأمامه مارستان حفيف، من بناء مجاهد الدين المذكور.

وبناء أيضًا داخل البلد، في سوقه، قيسارية للتجار، كانه الخان العظمى، تبغل على أبواب حديد، وتضيف بها دكاكين وبينها بعضها على بعض، قد جلي ذلك كله في فك صورة من البناء المزخرف، الذي لا مثيل له. فما أرى في البلاد قيسارية تعدلها، والمدينة جامعا: اصحهم جد، والآخر من عهد بني امية، وفي صحن هذا الجامع قبة، داخلها سارية رخامة قائمة، قد.
خلال جيدها بخمسة خلاخل مفتوحة فتل السوار من جرم رخامها، وفي أعلاها خصة رخام مثمنة، يخرج عليها انبوب من الماء، خروج انزعاج وشدة، فيترفع في الهواء أزيد من القامة، كانه قضيب من البلور مستقل، ثم ينعكس إلى أسفل القبة، ويجمع في هذين الجامعين القزين والجميل، ويجمع أيضا في جامع الرضح. وفي المدينة مدارس للعلم نحو الفست أو أزيد على دفعة، فلما كانها القصور المشرفة، ولها مارستان حاشى الذي ذكرناه في الربح.

وصلى الله هذه البلدة ببيرة مقدسة فيها، مشهد جرجيس صلى الله عليه وسلم. وقد بني فيه مسجد، وقبره في زاوية من أحد بيوت المسجد، عن يمين الدخان إليه، وهذا المسجد هو بين الجامع الجيد وباب الجسر، يتجه الفار إلى الجامع من باب الجسر عن يساره، فتبت كنا زيارة هذا القبر المقدس، والوقوف عنه، نذعنا الله بذلك.

ومما خص الله به هذه البلد، أن في الشرق منها، إذا عبرت دجلة نحو الميل، تل النوبة، وهو التل الذي وقف فيه يونس عليه السلام بقومه، ودعى ودعوا حتى كشف الله عنهم العذاب، ومقروبة منه، على قدر الميل أيضا العين المباركة المنسوبية إليه، ويقال: إنه أمر قومه بالظهر فيها وأضرام النوبة، ثم صعدوا على التلل داعين، وفي هذا التل بناء عظيم، هو رباط يشتغل على بيوت كثيرة، ومقاصر، ومطاهر، وسويات، ويضم الجميع باب واحد، وفي وسط ذلك البناء بيته يجلس عليه ستر، وينقل دونه باب كريم مرصع كله، يقال: إنه كان الموضع الذي وقف فيه يونس صلى الله عليه وسلم، ومحراب هذا البيت يقال: إنه كان بيته الذي كان يتبع فيه، ويطيف بهذا البيت شمعه كان جذوع النخل عظمة فيخرج الناس إلى هذا الرباط كل ليلة جمعة، ويعتدون فيه. وحول هذا الرباط قرى كثيرة، ويتصل بها خراب عظيم، يقول: إنه كان مدينة نينوى، وهي مدينة يونس عليه السلام، واثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر، وفنج الابواب فيه بيئة، وأكوابه ابراجه مشرفة، بتنا
بهذه الركبت المبارك ليلة الجمعة السادسة والعشرين من صفر، (ثم)
صاحب العين المباركة، وشرينا من ماءها، وتطهيرنا فيها، وصلاة
في المسجد المتصل بها، وله يندفع بالنية في ذلك، بهنا وكرمه،
وأهل هذه البلدة على طريق حسنة، يستعملون أعمال البر ولا تنقي
منهم إلا ذا وجه طلق وكلمة لينة، وله كرامته الغريبيه وأقبال
عليهم، وعدهم اعتدال في جميع معاملتهم، فكان مقامنا في هؤلاء
البلد أربعة أيام.

ومن أحف ك المشاهد الثابتة الرمية: بروز شاهتنا يوم
الavrują الثاني يوم وصولنا الموصل للخاتونين: أم عز الدين صاحب
الموصل، وثبت الأمير مسعود المتقدم ذكرها، فخرج الناس عن
بكره ابيقهم ركابا ومشاة وخرج النساء كذلك، واكره راكبة،
وقد اجتمع منها عسكر جرار وخرج أمير البلد للقاء وادتنا، مع
زمناء دولته. فدخل الحاج المواصلة صحبة خاتونهم على احتفال
واسهنا، قد جلوا اعتناء إبلهم بالحرير اللون، وقدوها الأقلاع
الصوت. ودخلت خاتون المسموعة تعود عسكر جواريها، وأمامها
عسكر رجالها يطوفون بها، وقد جلت قبعتها كلها سائد ذهبي
 بصورة أملة ونانير سمعة الأكف، وسلاسل وتماثيل بسيطة
الصنف، فلا تكاد تبين من القيبة موضعها، ومتين الحفاظ بها.
حافها، وصخب ذلك الحي يسد المساعم، وطيفها لجلالة الاعتقاد
بالذهب، ومراعاة جوارها كذلك، مع ومع ذلك الذهب لا يحقق
تقديره، وكان مشهذا ابعث الأعصار، واحده الاعتقاب، وكل من
يفنى الا ملك الواحد القهر، لا شريك له.

واخبرنا غير واحد من النثاث، من يعرف حال خاتون هذه،
أنها موصوفة بالعبادة والحري، مؤثرة لفعال البر، فمنها أنها
انفتقد في طريقها هذا إلى الحجاز، في صدقات ونفقات في
السبي، مالا وظيفا، وهي تحب الصالحين والصالحات،
وتوزورهم مذكورة رغبة في دعائهم، وشأنها عجيب كله على شبابها،
وانتظامها في نعيم الملك، والله يهدى من يشاء من عبادة.
وفي عشي اليوم الرابع من المقام بهذه البلدة، وهو يوم الجمعة السادس والعشرين، لصُف المذكور، رحلنا منهُأ على دواب اشتريناها بالدوصل، بتفاني من معاملة الجمالين، على أن القدر المحمود لم يسبق لنا إلا صحبة الآية شبه منهم، ومن شكرناه على طول الصحة وتما ديها من مكة شرفها الله الي الموصّل. فأسلنا ليلة السبت إلى بعيد نصف الليل، ثم نزلنا بقري من قرى الموصّل، ورحلنا منها ضحرة يوم السبت المذكور، وقنا بقريه تعرف بعين الرصدا، وكان مقينا تحت جسر مسقوف على واد يتحدر فيه الماء، وكان مقيلا مبارك. وفي تلك القرية خان كبير جديد، وفي محلات الطريق كلها خانات، واتفق مبيننا تلك الليلة بالقرية المذكورة، وأسّينا منها، وبيتا بقريه كبيرة تعرف بجدال، لها حصن عتيق. وفي يومنا هذا رأينا، عن بين الطريق، جبل الجودي، المذكور في كتاب الله تعالى، والذي استوت على سفينة نوح عليه السلام، وهو جبل عال مستطيل، ثم رحلنا في السحر الأعلى، من يوم الاثنين التاسع والعشرين لصفر. فكان مبينا بقريه من قرى الخدمات، ومنها إليها مسحارة، ويعمر الموضع المذكور بالكلاني.

 شهر ربيع الأول من سنة ثمانين، عرفنا الله بركتة

استهل هلاله ليلة الثلاثاء، بموافقة الثانى عشر من يونيه،
وحنن بالقرية المذكورة، فرحلنا منها سعر يوم الاثنين المذكور،
ووصلنا، نصيبين، قبل الظهر من اليوم المذكور

ذكر مدينة نصيبين، حرسها الله

شهرة الخلافة والقدم، ظاهرها شباب، وباطنها همر، جميلة
النظر، متوسطة بين الكبير والصغير، يمتد امامها وخفه بسيط
اخضر مد البصر، قد أجري الله في منان من الماء تسقيه، وتطرد
في ذواجه، وتحصف بها عن يمين وشمال بساتين ملتهبة الإشجار، ينانية الثمار، يتضاع بين يديها نهر قامان وانعطف عليها انغطاف
السوار، والحادثة تتناثم بحافته، وتقفي ظلالها الوارفة عليه.
فرحم الله أبا دواس الحسن بن هانئ، حيث يقول:

طابت نصيبين لي يوما فطبت لها
ياليت حظي من الدنيا نصابين

فخارجه رياضي الشمائل، انضاج الخمسة، يرف غضارة
وتنстра، يتألق عليه رونق الحضارة، وداخلها شعث البانية باد
عليه، فلا مطمح للبصر إليه، لا يجد العين فيه نفسة مجال، ولا
مشقة جمال، وهذا النهر يشرب ليها، من عين معين، منبعه بجبل قريب منها، تنقسم منها مهامان تحتترق بساقطها
وعمارتها، ويتخلل البلاد منها جزء فيترعرع على شوارعها ويلج في
بعض ديارها، يصل إلى جامعها المكرم منه سرب يخرق صحن،
وينصب في صهريجين، احدهما وسط الصحن، والأخر عند الباب
الشرقي منه، ويفضي إلى سقائيتين حول الجامع. وعلى النهر
المذكور، جسر معلق من صم الحضارة، يتصل بين البانيه
القبلي، وفيها مدرستان، ومارستان واحد، وصاحبها معين الدين
أبو عز الدين صاحب الموصل (1) ، ابن اشباك ولعين [ الذين ]
iceما مدينة، سنجار، وهي عن بين الطريق إلى الموصل، 

ويسكن في أحد الزوايا الجوفية من جامعها المكرم، الشيخ أبو
المقطان الأسود الجسد، الأبيض الكبد، أحد الأولى الذين نور
الله بصائرهم بالايمان، وجعلهم من الباقية الصالحات في
الزمان، الشهير المقاتل، المرصوف بالكرامات، نضو (2)
التبيلة والزهاده، ومن اختلقت جدته العبادة، قد اكتفت بثبيته،
ولايدير من قوت يومه لغده: اسعنا الله بالقائه، وأصحبنا من
ذكر مدينة دنيس، حرسها الله

هي في بسيط من الأرض، شبيه، وحولها بساتين الرياحين والخضرة، يسيق بالسوقي، وهي ماهرة الطبيع إلى البادية، ولا سود لها، وهي مشحونة بشرا، ولها الأسواق الحفيلة، والإبراق الواسع، وهي مختار لاهل البلاد الشام، وديار بكر، وأمد، ويلد الروم التي تل طاعة الأمير مسعود، وماياليها، وله الحوراء الواسع، وله ما رافق كثيرا، فكان نزولنا مع القافلة بسراح
ظاهرةها، وأصبحنا يوم الخميس الثالث لربيع [الأول] بهما
فريحين، وخارجنا مدرسة جديدة، بقية البناء فيها، ويتصل بها
حمام، والصلاقين حولها، فهي مدرسة ومانعة وصاحب هذه البلدة
قطب الدين، وهو أيضا صاحب مدينة دارا، ومدينة ماردين،
و رأس العين، وهو قريب لبني ات برك (3).

وهذه البلدة لسلاطين شتى كملوك طوائف الأندلس، كلهم قد
تحلى بحلية تنسب إلى الدين، فلا تسمع إلا القابا هائلا، وصفات
لذي التحصيل غير طائلة، قد تساويا فيها السوافة والملوك،
واشترك فيها الغني والصعق، ليس فيهم من ارتسم بسمة به
تليف، او اتصف بصفة هو بها خليق إلا صالح الدين شام
وديار مصر والحجاز واليمن، والمشتهر الفضل والعدل، فهذا اسم
وافق مسماه، ولفظ طابق معناه، وما سوى ذلك في سواه فزاعف
ريح، وشهادات يردها التجريح، ودعوى نسبة للين برحبه أي
تبريح!

القب الممكلة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد (٤).

ونرجع الى حديث المراحل، قربها الله:

فكان مقامنا بدنيس الى ان صلينا الجمعة، وهو اليوم الرابع
لربيع [الأول]، تأزم أهل القافلة بها لشهد سوقها، لأن بها يوم
الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد بعدها سوق حفلة،
يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرين المتصلة بها، لأن
الطريق كلاهما يمينا وشملا، فوق متصلة وطائرة مشيدة، ومسمى
هذى السوق المجتمعة إليها من الجهات البازار، وامام كل سوق
معلومة.

ورحلنا اثر صلاة الجمعة، فاجتزنا على قرية كبيرة لها حصين،
- ١٩ -
ذكر مدينة رأس العين، حرسها الله

هذه الاسم لها من أصداق الصفات، وموضوعها بالإشراف الموضوعات، وذلك ان الله تعالى فجر أرضها عيونا، وأجراها بهاء معينة، فقتسمت مئات، وانسابت جداً، تنبيض في مروج خضر، فكانها سبائك اللجين ممونة في بساط الزبير، تحض بها أشجار وبساتين، قد انتشرت حافتها الى اخر انتهى من عمارة بطحائها، وأعطم هذه العيون عياناً: احدهم فؤاد الأخرى، فالعليا ومنها تابعة فوق الأرض في صمم الحجارة، كان في جوهر غار كبير مبسط ببسط الماء فيه حتى يصير كالصهريج العظيم، ثم يخرج ويسيل نهراً كبيراً كأكبر ما يكون من الينابيع، وينتهي الى العين الأخرى ويبلغي بناها، وهذه العين الثانية جبل من جبال الخلوقات لله عز وجل، وذلك انها تابعة تحت الأرض من الحجر الصلب، ينحو اربع قاحات أو أزيد، ويتسع منبعها حتى يصير صورياً في ذلك الون، ويعلو بقوة نبعه حتى يسير على وجه الأرض، فربما يرمو السهاب القوي السباحة، الشديد الغضوض في أعماق المياه، ان يصل بفوصه الى قعره، فيمجه الماء بقوة، انبعاثاً من منبعه، فلا يتناهي في غوصه الى مقدار نصف مسافة
العمق أو أقل شيئاً ؛ شاهدنا ذلك عياناً . وما أنها أصفي من الزلال ، ولا غنى عن السسل ، يشف عنا حواء ، فلو طرح البيغار فيه في الليلة الظلماء لما اخفاه ، وصائد فيها سكك جليل من أطب يقي من السمك ، ويقلمق ماء هذه العين عين نهرين : انها مما اخذ يميناً ، والآخر يساراً ، فالأيمن يشع خانقته مبنية للصوفية والغرفة بإ prez العين ، وهي تسمى الرباب أيضاً ، ولا يسرب على جانب الخانقاه ، وتفضي منه جداول من مظاهرها ومرافها المعدة للحاجة البشرية ، ثم يلتقيان اسفلها مع نهر العين الأخرى العالية . وقد بنيت على شط نهرهما المجتمع ، بيوت ارها تتصل على شط موضوع وسط النهر ، كانه سد ، ومن مجتمع ماء هاتين العينين مشا نهر الخابور .

وبمفرقوه من هذه الخانقاه بحيث تنظرها . مدرسة بازائها حمالة كلاهما قد وهي وأخلص ، وتسلب ، وممارى كان في موضوعات لمتنيا مثل موضوع هذه المدرسة ، لأنها في قيارة خضراء ، والنهر يستدير بها من ثلاثة جوانب ، والدخال إليها من جوانب واحد . وأمامها ووراءها بستان ، وبيئتها دولاب يليق الماء الى بساتين مرتفعة عن مستع النهر ، وشأن هذا الموضوع لنا جزيء جداً فغاية حسن القرى بشري الاندس ، ان يكون لها مثل هذا الموضوع جمالاً ، أو تتخلل بمثل هذه العيون والله القدر في جميع مخالقاته .

وأما المدينة فالبداوة بها اعتنا ، واللهضارة عنها استفنا ، لأسوس يحصنها ، ولادور اثنيعا البناء تحسنها ، قد ضحيت ( ٧ ) في صحرائها كانها عينة لبطحائها . وهي مع ذلك كاملة مرفع المدن ، ولها جامعا حديثاً وقيم ، فالمدينة بوضعها هو دو بنيان عصر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، لكنه قد اثار المجد فيه ، حتى أن بتاعيه ، والجامع الآخر داخل البلد فيه يجمع اهله . و坂، كان فينا بمثابة بها ذلك اليوم ذهبة ، لم نختلس في سفرنا كله مثلها .
فلما كان عند الغيب من يوم السبت الخامس لربع المذكور، وهو السادس عشر ليونية، رحلنا منها ربة الأسرار، وبرد الليل، وتقانيا من حر هجرية التأويب، لأن منها إلى حران مسيرة يومين، للاعارة فيها، فتمدني سيرنا الى الصباح، ثم نزلنا في الصحراء على ماء جب، وارحننا قليلًا. ثم رفعنا ضحوة النهار من يوم الآخر، وسرنا ونزلنا قريب العصر على ماء بدير، بموضع فيه برح مسجد وآثار قديمة، يعرف برح حواء، فيه أبينا به ثم رفعنا منه بعد تهويل ساعة، وارحننا الي الصباح، فوصلنا مدينة حران، مع طاعون الشمس من يوم الاثنين السابع لربع المذكور، والاثنين عشر أيونية، والحمد لله على تيسيره.

ذكر مدينة حران، كلاها الله

بلد لاحسن لديه، ولا يظل يتوسط برده، قد أُشِّن من اسمه هواه، فلا ياذن الورد ماوه، ولا تزال تتمد رفع الهيجر ساحاته وارجاؤه، ولتغد فيه مقبلًا، ولا تنذل منه إلا نفقتًا قليلًا، قد نبذ بالقراءة، ووضع في وسط الصحراء، فعدم رونق الحضارة، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة.

استغفر الله! كفى بهذا البلد شرفًا وفضلًا أنها البلاحة العتيقة النسوية لأبينا ابراهيم صلى الله عليه وسلم، ولبِلها بحو anderen فراسخ مشهد مبارك، فيه عين جارية، كان مأوى له وسارة صلوات الله عليها، ومعمودا لها بريكة هذه النسبية، قد جعل الله هذه البلد مقرا للصالحين المتزهدين، ومثابة للسائرين المتتبلين لقينا من افرادهم الشيخ أبا البركات حاج بن عبد العزيز، حسناء مسجده النسبوية إليه، وهو يسكن منه في زاوية، ناحية في بلائه، وتتصل بها في آخر الجانب زاوية لا يشبه عمرى قد التزمهها واشتهى طريقة أبيه فما ظلم، وتعرفت منه شهشنة أعرفها من أخزيم.

- ٢٢ -
فوصلنا إلى الشيخ، وهو قد نيف على الثمانين، فصافحنا ودعنا لنا. وأمرونا بإقامة ابنه عمر المذكر. فلمنا إليه ولقيناه، ودعنا، ثم ودعناه وانصرفنا مسراً إلى بلقاء رجلين من رجال الآخرة. ولاقينا أيضاً بمسجد عتيق الشيخ الزاهد سلمة، فلقينا رجلاً من الزهاد الافراد، فدعنا لنا وسأنا، وودعناه وانصرفنا، وبالبلد سلمة أخرى، يعرف بالكشكوف الرأس، لايجطي رأسه تواضعالله عز وجل حتى عرف بذلك، ووصلنا إلى منزله، فاعلمنا أنه خرج للبيرة سائحاً.

وبهذه البلدة كثير من أهل الخبر، وأهلها همذون معتدلون، محبون للغريب، مؤثرون للقروء. وأهل هذه البلاد، من الوصول ليبار بكر، وديار رفيعة إلى الشام، على هذه السبيل من حب الغريباء، واكرام الفقراء، وأهل قراها كذلك. فما يحتاج الفقراء الصالحاء، معهم زادوا، لهؤلاء في ذلك مقصد في الكرم المأثور، والله يمدحهم بما هم عليه، وآمة عبادهم ورسالتهم، الذين في الجبال منهم، فكثر من أن يقيهم الإحساء، والله يدفع المسلمين بركاتهم، وصواحة دعواهم، بمنه وكرمه.

ولهذه البلدة المذكورة أسواق عشيرة الانتظام، عجيبة الترتيب، مسقفة كلها بالخشب، فلا يزال أهلها في ظل ممدوح، فتختبرنها كانة تختبر داراً كبيرة الشوارع، قد بينه عند كل ملتقى أربع أسواق منها، قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الحج، هي كالفروز تلك المسكك. وينتشر بهذه الأسواق جماعاً الكرم، وهو عتيق مجد، قد جاء على غاية الحسن، وله صلى كبير، فيه ثلاث قباث مرتفعة على سوار رخام، وتحت كل قبة عشر عنبة، وفي الصحن أيضاً قبة رابعة عظيمة، قد قامت على عشر سوار من الرخام. دور كل سارية تسعة أشعار، وفي وسط رقية عمود من الرخام. عظم الجرم، دوره خمسة عشر شبرا. وهذه القبة من بنين الروم. واعلناها ميجو كأنه البرج المذيد، يقال: إنه كان مخزناً.
لعدتهم الحربية، والله أعلم، والجامع المكرم سقف بجوانز الخشب والحجابا، وخشبي عظام طوال لساعة البلاط، وسعته خمس عشرة خطوة، وهو خمسة ابسطرة. وما رآينا جامعاً أوسع حنانيا منه، وجداري التصل بالصحن، الذي عليه الدخل إليه، مفتوح كله أبوابا، عددها تسعة عشرة ياما: تسعة يمينا، وتسعة شمالي.

والتأسّع عشر منها ياباً عظيم وسط هذه الأبواب، يمسك قوسة من أعلى الجدار إلى أسفله بعي المنظر، جميل الوضع، كأنه ياباً ياب كبار. وله هذه الأبواب كلاً غلاظ من الخشب البديع، الصنعة والنافشة، تتطبًّق عليها على شبه أرباب مجالس القصور، فشاهدنا من حسن بناء هذا الجامع، وحسن ترتيب اسواقه المتصلبة به، مرآوا عجيباً قلما يوجد في الدين مثل انظامه.

وهذه البلدة مدرسية ومارستانان. وهى بلدة كبيرة، وسورها مثني حصين، مبني بالحجارة المتحولة، المرصوص بعضها على بعض، وفى نهاية من القوة، وكذلك بينان الجامع المكرم. ولها قلعة حصينة، بما يلي الجهة الشرقية منها، منقطعة عنها بقضاء واسع بينهما، ومنقطعة أيضاً عن سورها، تحقق في عظيم يستدرى بها. قد شهدت حافاته بالحجارة المركومة، فجاء في نهاية الوثاقة والقوة، وسور القلعة وثيق الحصانة، وله هذه البلدة نهر، مجرى بالجهة الشرقية أيضاً منها بين سورها وجبانتها، ومصببه من عين هي على بعد من البلد.

والبلد كثير الخلق، واسع الرزق، ظاهره البسالة، كثير المساجد، جمع الوقف، على احتفال ما يكون من الدين. وصاحبنا مظاهر الدين بن زين الدين، وطاعته إلى صالح الدين، وله هذه البلد كلاً من المرصف إلى نصبيين إلى الفنر، المعروف بببر ربيعه وحدها من نصبيين إلى الفنر مع ما يلي الجذب من الطريق، وبيان بكر التي تلها في الجانب الجنوبي كامد و抽查ق وحاني وغيرها مما يبطول ذكره، ليس في ملوكها من ينهاش صلاح الدين، فهو إلى طاعته
فكان نزولنا ظهراً إلى الأرض ببركة على نهره المذكور ، وألقنا مريحين يوم الاثنين ويوم الثلاثاء بعده ، واثر الظهر منه كان اجتماعنا براقة المكسوف الرأس ، التي فاتنا لقاءه يوم الاثنين ، فلقيناه بمسجده فرائنا رجلاً عليه سيفاًصاحيلين ، وسُمِّن الحيين ، مع طاقة وبشر ، وكرم لقاء و_Reset ، فانكسنا ودعنا ، وودعنا وانصرفنا جامدين الله عز وجل ، على ما من به علينا من ألقاً أعيانًا الصالحين وعبادة المقربين ،

وفي ليلة الاربعاء التاسع لربع المذكور ، كان رحيلنا بعد تحويل ساعة ، فارسنا إلى الصباح ، ونزلنا مريحين ، ابتل عده ، وهو موضوع عمارية ، وهذا التل مشرف مستقيم ، كانه المائدة المنصوبة ، وفيه اثر بناء قديم. و بهذا الموضع ماء جار، وكان رحيلنا منه عند المغرب ، وارسنا الليل كله ، واجتتنا على قرية تعرف بالبيضاء ، فيها خان كبير جديد ، وهو نصف الطريق من حانان إلى الفرات ، ويرتبطها على اليمين من الطريق ، في استقبال الفرسات إلى الشام ، مدينة سرج ، التي مهر ذوكرها الحربي بمست찌بياً زيد إليها ، وفيها البساتين والميا الطيرة ، حسبما وصفها به في مقاماته ،

فكان وصولنا إلى الفرسات ضحها النهار ، وعبرنا في الزوارق المقلة المعدة للعبور ، إلى قلعة جبلية على الشط ، تعرف بالقلعة نجم ، وحولها نينار نابضة ، وفيها سوية يوجد فيها المهم من عرف وخبز ، فأقامنا بها يوم الخميس العاشر لربع الأول المذكور مريحين خلال ما كتملا القافلة بالعبور ، وانذل عُرِفت الفرات حصان في حد الشام ، وسرت في طاعة صلاح الدين إلى دمشق ، والفرسات حد بين ديار الشام ودير ربيعة ومكر ، وعن يسار الطريق ، في استقبال الفرسات إلى الشام ، مدينة الرقة ، وهي على الفرسات ، وتبها -٢٩٧٥-
ذكر مدينة منبج، حرسها الله

بلدة فسيحة الأرجاء، صحية الهواء، يحج بها سور عتيق ممتد للغاية والانتهاء، جوها صقيل، ومجتاها جميل، ونسميها أرج النشر عليل، نهارها يندي ظله، وليلها كما قبل فيه: سحر كله، تحف بغريبها وشرقها بساتين ملتفة الأشجار، مختلفة الثمار، والأماه يطرد فيها، يبتخلق جميع نواحيها، وخصوص الله داخلها بأبار معينة، شهداء العدو، ساسبيلنا الدنا، تكون في كل دار، منها البتر والبيتان، وارضها أرض قريمة، تستبط مياها كلها، واسواقها وكوكبة فسيحة متسعة، وكما فيها وحواذيها كانها الخانات والمخازن اتساع وكبيرة، وأعالي اسواقها مسقفة، وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر من هذه الجهات، لكن هذه البلدية تعاينت عليها الاحتفال، حتى اخذ منها الخير، كان من مدد الرومlectic، ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها، ولها قلعة حديثة في جوفها، تتقطع عنها، تتناجز منها، ومن هؤلاء الجهات، مختلفاً من القلاع السلالمية، وأهلها أهل فضل
خير، سنيون شافعيون، وهي مثيرة بهم من أهل الدنا، المنخرفة، والعقائد الفاسدة، كما تجد في الأثير من هذه البلد، فمعاملتهم صحية، وأحواالهم مستقيمة، وجادتهم الواضح في بينهم من اعتراض بنيان الطريق سليمة.

فكان نزولنا خارجها، في واحد بساتينها، واقعنا يوما مريحين، ثم رحلنا نصف الليل، ووصلنا بيعة ضحية يوم السبت الثاني عشر لربع المذكور.
ذكر بلدة حلب

الله تعالى

بلدة قدرها خطيئة وذكرها في كل زمان يطيع، خطابها من الملك كثير، وحلوها من النفوذ أثر، فحكم أهانها من كفاح و질ها عليهم، من بغض الصحاب، لها قلعة شهيرة الامتثال، بئثة الارتفاع، معدومة الشبه والنظر في القلاع، تنزعها حصانة أن تزام أو
تستطيع كافة كبيرة، ومائدة من الأرض مستديرة، منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء، فسبيان من حكم تقديرها، وأبشع كيف شاء تصويرها وتدويرها، عتيقة في الأزلف، حديثة وإن لم تزل، قد طالات الأيام والأعوام، وشبهت الخواص والآجواء. هذه منزلها وبدارها، فائين سكانها قبیما وعمارها وتك دار مملکتها وفناوها، فائين أمراؤها الحمديين وشعراوها؟ أجل، ففي جميعهم، ولم يان بعد فناوها! ففاقعنا للبلاد لبقى وتنهب ملكها، وبهلكون ولا يقضى هلاكها، تخطب بعدهم فلا، يتغذر ملاكها (7) وتزام فتيه، بأهون شيء ادراكانها هذه حلب، كم اتخذت من ملوكيه في خير كنان، ونسخت بطرف الزمان بالمكان، ابن اسمها فتحل بزينة الغوان، ونالت بالغدر فيمن خان وتجلت عروسها بعد سفوى دولتها ابن حمدي، دهات، هياحات... شبابها، ويعدم خطاها، ويسرع فيها بعد حين خراها، وتتطو بجنيات الحوادث الليها، حتى يرث الله الارض ومن عليها، لا إله سواه، سبحانها جلت قدرته.

وقد خرج هذا الكلام عن مقصده، فقلنعلنا إلى ماكنا بصيده، فقول: إن من شرف هذه القلعة، إنه يذكرناها كانت قد تماما في الزمان الأول روبة يأوي الليها إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، بفتيحنا له، فيجلبنا هداها، ويتصدق بلحها، فذلك سبيت، حلب، والله أعلم. وعليه مشهد كريم له، يقصده الناس ويتزورون بالصلاة فيه. ومن كمال خلالها المشترطة في حصانة القلعة، إن المواء بها تابع، وقد صنع عليه جبان، فهما ينبعان ما فلذا تخف الأظما أبى الدهر، والطعام يصير فيها الدهر وكمل. وليس في شروط الحصنية أهتم ولا أدرك من مهاتين الخلفين، ويطيف بينهم الجبن المذكورين، سوران حصن من المباني الذي ينظر للبلد، ويعترض دوهما خندق والحسن أعظم من ان تنتمي إلى وصفه. وسورهالإلى كله! براج منظمة، فيها العاليم النديمة، والقصاص المشرفة، قد تانتحت كلها طيقاتنا. وكل برج مسكن، وداخلها المساك السلطانية، والمنازل الرفيعة الملونة.
وأما البلد فموضوعه ضخم جداً، حقول التركيب، بديع الحسن، واسع الأسواق كثيرة، متصلاً النظام مستطيلة، تخزف من [سماط] صناعة إلى سماط صناعة أخرى، إلى ان تفرع من جميع الصناعات الدنيا، وكلها مضاف إلى الخشب، فسكانها في ظلال وارفة، فكل سوق منها تقدم الابصار حسناً، وتستوفف المستوفى تفجياً، واما قسيساتها ففديقة بستان نظافة وجمالاً، مطيفة بالجامع المكرم، لايشوق الجالس فيها من جد أي سواها، ولاكان من المواعدين الرياضية. وأكثر حانينها خراشين من الخشب البديع الصنعة، قد اتصل السماط خزانة واحدة، وتخللتها شرف خشبية بعثعة النخيل، وتفتتح كلها حانين، ففجاء منظرها إجمال منظر، وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم، وهذا الجامع من احسن الجوامع وأجملها، قد اطلق بصحبه الواسع بلاط متسع، ففتح كل أبوابه قصرية الحسن، الى الصحن، عدها ينفي على الخمسين باباً، فيستوفف الإبصار حسن منظرها، وفي صحنها بئر نافعين، والبلاط القلي لامدخرية فيه، فجاء ظاهر الاستعاع، راتب الإنشراح. وقد استغرقت الصناعة القرطنسية جدها في منبره، فإلا في بلد من البلاد منيرا على شكله، وغرابة صنعته، واتصال المعزول، الخشبية منه الى المرأة، فتجمل صفحاته كلها حسناً، على تلك الصناعة الغريبة، وأرجع كالأج العظيم على المرابع، وعلا حتى اتصل بسمك السقف وقد قوسه أعلاه، وشرف بالشرف الخشبي للقرطنسية، وهو مرشح كله بالعلامة والإنج والابس فالمرصع من المذحر الى المرابع، مع ما يلبس وما جدار القبلة، دون أن يتبين بينهما انفصلان، فتجلي العيون منه أبدع منظور يكون في الدنيا. وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من ان يوصف.

ويتصل به من الجانب الغربي، مدرسة للحذيفة تناسب الجامع حسناً، واتقان صناعة، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى، وهذه المدرسة من أحق ما شاهده من المدارس بناه وغرابة صناعة، ومن
أخذوا ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي مفتوح كله بيوتا وغرف، ولها طاقان يتصلا ببعضها ببعض، وقد انتهى بطول الجدار عريض كرم مثير عبادة، فحصل لكل طاق من تلك الطاق قسطها من ذلك العناب متلايا أمامها، فبعد السكين فيها ينهي ويجتني مكتنا دون كاف، ولا مشقة، ونلتربة سوى هذه الدراسة نحو أربع مدارس أو خمس، ولها مارستان.

وأمرها في الاحتفال عظيم، فهي بلدة تليق بالخلافة، وحسنها كله داخل للاختار لها إلا أنهير يجري من جوفها إلى قبليها، ويشق رشبها المستدير بها، فإن لها رشبها كبرى، فيه الخانات مالا يحصى عدد، وبهـ

الرحب، وهي متصلة بالبلد، وقائمة وسط رشبها، وبهذا الرياض بعض بساتين تتصل بطوله، وكيفما كان الأمر فيه داخل خارجا، فهو من بلاد الدنيا التي لانظير لها، والوصف فيه يطول.

كان رحنا برضيه في خان يعرف بخان أبي الشكر: فاقتنا به أربع أيام، ورحنا ضحية يوم الخميسPts مسابع عشر لربع الدكر، والاثاث والعشرين لينوني، وواصلنا قئرين، قبل العصر، فراحنا بها قليلا، ثم انطلنا إلى قنزة تعرف، بنقل باجر، فكان معنا بميتنها ليلة الجمعة العشان عشر منه، وقئرين هذه هي البلدة الشهيرة في الزمن، لكنها خربت بعد أن لم تكن بالأمس، فلم يبق إلا أثاثها البارزة، ورسومها الطامة، ولكن قراها عابرة منظمة، لأنها على محجر عظيم، بعد البصر عرضًا وطولًا، وتشهبها من البلاد الادنانية جبان، وذلك يذكر أن اله قئرين عند استنتاج الديانة نزاوا جبان، تقابل بشبه الوطن، وتغلبا به مثلاً فعل في أكثر بلادها، حسب ماهو معروف.

ثم رحنا من ذلك الموضع، عند الاله المأيا من الليل، فاستينا ورسنا إلى ضحية من النهار، ثم نزلنا مريحين بوضع يعذف، بباقين، في خان كبير يعرف بخان التركمان، وليق الحصانة.
ذكر مدينة حماة، حماة الله تعالى

مدينة شهيرة في البلاد، قدامة الصحابة للزمان، غير فسيعة القضاء، ولا رائحة البناء، اقطارها مصمومة، وبيارها مركومة.
لا يهشم البصر إليها، عند الاطلال عليها، فمنها تمكن بهتجتها، وتخفيفها، فتجر حسنا كامنا فيها، حتى إذا جست خللالها، وذرت ظلالها، استمرت بشريتها نهرا كبيرا، تناسق في تدفقها، وأتاطر بسطها، فدعت طرطه، وسأنان، تتجهل أغصانها عليه، وتللح خضرتها عزارا، بصحتيه، ينسرب في ظلالها، وتدسب على سمت اعتزالها، ويبعد شقية المتصال، بريضها مظاهرة متصلة بيضاو الحياة، يختبرها ألم من أحد، والبياض، جميع نواحيها، فلا يجد المغسل اثرانيا فيها، وعلى شبه الثاني، المتصال بالمدينة السفلى جامع صغير، قد فتح جداره الشرقي عليه، طيقاتا تجلتها من لها منظرا تراجع النفس الهاء، وتتقيق الابصار له، وبازوا مرر النهر بجروح المدينة، قلعة حلبية، وقمة العراق، وإن كانت دونها في الحصانة والمخالع، سرب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها، فهي لاتخف صديقه، ولا تتهم مرام العدى، وموضوع هذه، المدينة، في وحدة من الأرض عرضة مستفيلة، كائنها خندق عريق، يرتفع لها جانبان: أحدهما كالجبل المطل، والمدينة العليا متصالبة، بسقف ذلك الجبل الجبلي، والقلعة في الجبل الآخر. بربتعا منقطعة كبيرة مستديرة، قد تولى نحتها الزمان، وحصل لها بحصانتها من كل عدو، والبيضاء السفلى تحت القلعة متصالبة، بالجانب الذي يصب النهر عليه، وكلتا المدينةين صغرتان، وسور المدينة العليا يشدد على رأس جانبانها العلي الجبلي ويطوف بها، والمدينة السفلى سور يحصها من ثلاثة جوان، لأن جانبانها المتصال بالنهر لايجتاح إلى سور، وعلى النهر جسر كبير، معقود بضم الحجارة، وبصقل من المدينة السفلى إلى بريضها، وربضها، كبير فيه الخانات والديار، ولله حواتين يستعمل فيها المسافر حاجته، التي انفرغ لدخل المدينة، وأسواق المدينة السفلى، وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجاريات، وموضوعها حسن التنظيم، بنين الترتيب والتقسيم، ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل، ولها ثلاثة مدارس، ومارستان على شط النهر، بازج الجامع الصغير، وبخرج هذه البلد، بسيط قبيح عريض، قد انظم أكثر شجرات الأعشاب.
وفي المزارع والمحارث، وفي منظره انشرا النسيم وانفساح،
والبستانين متصلاً على شطي النهر، وصوغي، العصي، لأن
ظاهرة اندحران من سقالة على علو، ومجراء من الجنوب الى
الشمال، وهو يختار على قبلي حمص وبقرية منها.
فكان مقامنا بحماة الى عشي يوم السبت المذكور، ثم رحنا
منها، وأسرينا الليل كله، واجننا في نصبه هذا النهر العاصي
المذكور، على جسر كبير معقوود من الحجاره. وعلى مدينة رستن
التي خربها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأثارها عظيمة، وذكر
الروم العظمى أن بها أموالا جمة مكدسة، وله اعلم بذلك.
فوصانا الى مدينة حمص، مع شروق الشمس، من يوم واحد الى
عشرين لربع [الأول] وهوا أول يولي، فنزلنا بظاهرة بخان
السهل.

ذكر مدينة حمص، حرسها الله تعالى

هي فسيحة الساحة، مستطيلة المساحة، نزهة لعين مبصرها،
من النظافة ولاحة، موضوعة في بسيط من الأرض عريض مداه،
لايشترقه النسيم بمشربه، يكاد البحر يقف دون منتهائه افعي اغبر،
لاماء ولا شجر، ولازلا ولا ثمر، فهي تشتمل ظماءها، وتصغى
على البعد ماءها، فيجلب لها من نهرها العاصي، وهو منها بنحو
مسافة الميل، وعليه طرة بستانين تحتلي العين خضرتها، وتسرب
نخرتها، ومنبعه في مغارة بصفح جبل، فقوته بمرحلة بوضع
يقابل، يعلمك، ااعده الله، وهي عن يمين الطريق الى دمشق،
واهل هذه البلدة موصوفون بالحمر والترمس بالحمر، ماجورتهم
إياه، وبعدهم في ذلك اهل حلب، فانحدر خلال هذه البلدة مرواها
الرطب، ونسبيها الميمون تخفيفه وتمييزه، فكان الهواء النجدي
في الصحة شقيقه وقيمه، وبقيت هذه المدينة قلعة حصينة منيعة.
عاصمة غير مطحّبة، قد تباهت وأنهاراً بما توضعها عنها،
ومشرقة جمالاً فيها قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه، هو سيف
الله المسلول، ومعه قبر ابنه ومعه قبر ابنه عبد الرحمن، وقبر عبيد
الله بن عمر رضي الله عنه. وإِنَّهُ هذَا المنْبِئُ مايَا في الانتقاذا
والوثاقة، مرصوص بناها بالحجاره الصمَّم السود، وأبوابها
أبواب حديد، سامية الإشراق، مائدة النظر، زاوية الأطلال
والاناقة، تكتنفها الإبراج المشيدة الحصيَّنة، وأمام داخُّها فما شئت
من بابية شعثاء، خِدة الأرجاء، ملفقة البناء، لا يفراغ لافقَها.
ولا رونق لأسواقها، كامضة لاعِد لها بنافاقها، وماتك بلاد حصن
الأكراد منه على أميال يسيرة، وهو مغفل العدو، فهو منه تترائي
ناره، وحرقه إذا يطب شراؤه، وتعهد إذا شاء كل يوم مغفاره
وسانا أحد الأشياء بهذا البلد: هل فيها مارستان على رسم مدن
المجاهة؟ فقال، وقد انكر ذلك بعض كلها مارستان! وكفاك تبينا
شُهرة أهلها فيها! وبينها مدرسة واحدة. وتجد في هذه البلداء عند
اطلاقها، تبناها من بعد، في يسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها.
بعض شبه مدينة، اشبيلية، من بلاد الأندلس، يقع للحن في
نفسك خياله، وكذا هذا الاسم سميته في القديم، وهي العلة التي
وُجِّب أن يزول الأعراب أهل حصص فيها، حسبما يذكر، وهذا
التشبيه، وإن لم يكن ذئه، فله لحة من إحدى جهاته.

واقنعنا بها يوم أحد المذكور، يوم الاثنين بعده، وهو الثاني
ليوليوه، إلى أول الظاهر، ورحلنا منها وتسببتنا إلى العشي، ونزلنا
بقية خربة تعرف، مغرى، فعشينا بها الدواب، ثم رحلنا عند
الغرب، وأسربنا طول ليتنا، وتماءى سيئنا إلى الضيق الأعلى.
من يوم الاثنينثماني والعشرين من شهر المذرَك.
ونزلنا بقرية كبيرة للنصاري الماعدين، تعريف، بالقارة، ليس
فيها من المسلمين أحد، وله خان كبير كان الحصن المشيد، في
وسطاً صغيراً كبيراً، معلوّه ماء يتسبب، له تحت الارض من عين
على البعد، فهو لا يزال مالن، فارتحنا بالخان المذرَك إلى الظهر،
ثم رحلنا من إلى قرية تعرف، بالبنك، بها ماء مار ومصرح.
متسع، فنزلنا بها للتمشية، ثم رحلنا منها بعد إختلاس تهويته خفيفة.

واسربنا الليل كله، فوصلنا إلى خان السلطان مع الصباح، وهو خان بناء صلاح الدين صاحب الشام، وهو في نهاية الوثاقة والحسن، بباب جديد على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها، واحتفالهم في تشبيدها. وفي هذا الخان ماء جار، ينصرف الى سقيا في وسط الخان كانها صريحة، ولها منافسة نصب منها الماء في سقيا صغيرة مستديرة حول الصريحة، ثم يغوص فسر في سرب في الأرض، والطريق من حمص الى دمشق قليل العمارة إلا في ثلاثة مواضع أو أربعة: منها هذه الخانات المذكورة. فوافقنا بهما يوم الاربعاء الثالث والعشرين لربيع المذكور بالخان المذكور، مريحين ومستدركيين للنوم الى أول الظهر، ثم رحلنا وجزنا بثني العقاب، ومنها يشرف على بسيط دمشق وغوطتها. وعند هذه الثنية مفرق طرقين: احدهما التي جتنا منها، والثانية لخان شرقا في البرية على السماوة الى العراق، وهي طريق قد لكيها لاتخال إلا في الشتاء، فانحدرنا منها بين جبال فبطن وادى البسيط، ونزلنا منه بموضع يعرف بالقصر، فيه خان كبير، والنهر جار أمامه، ثم رحلنا منه الضبع، وسرنا في بساتين مثملة لايوصف حسنها، ووصلنا دمشق في المنى الجامع على مرم الخمسين الرابع والعشرين لربيع الأول، والخمسين لليولية، والحمد لله رب العالمين.

شهر ربيع الآخر

استهل هلاله يوم الاربعاء، بموافقة الحادي عشر لبيوله، ونحن بدمشق نازلين فيها بدار الحديث، غربي جامعها المكرم.
ذكر مدينة دمشق، حرسها الله تعالى

جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنث المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريها، وعرض الدين التي اجتيلها، قد تجلت بأزهار الريحان، وتجأ في حل سندية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكن، وتزينت في منصته لأجمل تزيين، وترفعت بأن أوى الله تعالى الدمع بأمه صلى الله عليه منها إلى ربوة ذات قرار ومعين، نظار ظليل وراء سامسيلة، وتدسب مذانيب إنسباب الاراقم بكل سبيل، ورياض يحيى الفنوس نسيمها العليل، تتبير لنا ظريدها بمجمل صقيل، وتناددهم: هلموا إلى معرس للحسن وقيل، قد سثرت ارضها كثرة الماء حتى اشقت إلى الظلماء فتكاد تناثك بها الصد الصلاب، أعرض ببركها هذا مفتسل بارد وشراب (8)، قد أحرقت البساتين بها إحدى الهالة بالقمر، واكتفتها اكتف كمامة للزهر، وامتدت بشريتها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فظل موضوع لحظته بجهاتها الأربعة نشرته البائعة قيد النظر، والله صدوق القائلين عنها: إنه كانت الجنة في الأرض قدمشق لاشك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحكيها.

ذكر جامعها المكرم، عمره الله تعالى

هو من أشهر جوامع الإسلام حسناً، واتقن بناء وغرابة صنعة، واحتفال تمييز وتزين. وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه. ومن عجيب شأنه لا نتسع به العكبوت ولا تنخله، ولا تلم به الطرك المعروفة بالخطاف...

وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم، كل يوم أثر صلاة الصبح، لقراءة سبع من القرآن دائماً، ومثله أثر صلاة العصر.
لقراءة تسمى الكوثية، يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى الخاتمة. ويجتمع في هذا المجتمع الكوثري كل من لاجئ حفظ القرآن، ومجتمعين على ذلك أجراء كل يوم، يعيش منه حفظ القرآن، والمجتمعين على ذلك أجراء كل يوم، يعيش منه حفظ القرآن، على أن تأخذ هذه الجامع المكرم، فلا تخلو القراءة منه صباحًا ولا مساءً، وفي حلفوف في التدريس إلى الطلبة، والملحقين فيها أجراء واسع، وللملكة زيادة التدريس في الجانب الغربي، يجتمع فيها طلبة المغاربة، ولهما أجراء معلوم. ومراقب هذا الجامع المكرم للغرباء، وأهل الطلب، كثيرًا واسعة، وتُؤتنب ما يحدث به أن سارية من سواريخ، هي في الفقه، وهي في المثل وفي القصيدة، والحديثة، لها وقف معلوم يأخذها هذا المجتمع إلى المذكرة والتدريس، والملحقين بها فقيهًا من أهل إشبيلية، يعرف بالحراش، وعند ضرورة المجتمع السبعة من القراءة صباحًا، يستدلك كل أنسان منهم إلى سارية، ويلجس لشامه صبي يتأثر القرآن، وهم يأخذوا على قراءتهم جريمة معلومة، فاهل الجدة من أبائهم ينذرون ابنائهم عن أخذها، وسائرهم يأخذوا. وهذا من المفاخر الإسلامية.

والإイヤام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد، ولهما وقف كبير، يأخذهم على المقام السفري من العلم له، ما يقوم به، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم ويكسوهم، وهذا أيضًا من أثر ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد. وتعليم الصبيان للقرآن، وهذه البلاد المشتركة كثيرة، انها تكون في التمثيل، وبالكثير في الأشعار وغيرها، تنزه أيضًا كتاب الله على وجد من أبناء الصبيان له، بالاتجاه والنمو. وقد يكون في أكثر البلدان المتقن حدة والكتب على حدة في فصل من التمثيل إلى التكبير، لهم في ذلك سيرة حسنة، ولذاك ما يتأثر بهم حسن الخط، لأن العلم هولايشتغل فيه، فهو يستغرق جهده في التعلم، والصبي في التعلم كذلك، ويحسن عليه لأنه بتصور يحده حدوة.

ويأخير هذا الجبل جبل قاسيون، في آخر البسفط، البساتين الغربي من هذا البلد، الربيبة المباركة المذكورة في كتاب
الله تعالى: مأوى المسيح وآله صلوات الله عليهما، وفي من أباع مناظر النياح حسنام، وجمالها، وشروقا، واتلاق بناء، واحتفال تشبيه، وشرف وضع، هي كالأقصر المشيد، ويسعد السيد على إدراج، والنادي المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها، وهي كالبيت الصغير، وبارزاتها بيت يقال: إنه مصلى الخضر صلى الله عليه وسلم، فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين، ولا سيما المآذن المبارك. ولله باب حبيبر صغير يناله دونه، والمسجد يطيف بها، ولها شوارع دائرة، وفيها سقاية لم يرها من، قد سيق إليها الماء من علو، ومااءها ينصب على شنازرون في الجدار، متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه، لم ير أحسن من منظره. وخلف ذلك مظاهر، يجري الماء في كل بيت منها، ونستدير بالجانب المتصل بجدار الشازرون. وهذه الر晕ة المباركة رأس بساتين البلد، ومقسم مات، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار، يأخذ كل نهر طريقه، وأكبر هذه الانهار نهر يعرف بثورة، وهو يشق تحت الربوة، وقد نزله في الحراق السلام، اسفلها، حتى انفتح له مسرب واسع كالفار، وربما ينغمض الجسر من سباح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوة في النهر، واندفع تحت الماء حتى يشق مسرية تحت الربوة ويخرف اسفلها، وهي مخاطرة كبيرة. وشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغريبة في البلد، وانشار كأشارافها حسنات وجمالا، وتناسخ سحر الأصباق، وتحت تلك الانهار السيفة تنتشر وتسبح في طرق شتي فتحار الأصباق في حسن اجتماعها، وافتراقها، وانفصال انصابها، وشرف موضوع هذه الربوة ومجموع حسناتها، انعم من انسحابية، ورفع وصف واصف في غرض من، ونشاطان في موضوعات النسيان الشفيرة خديبة.

ويتصل بها أسفل منها، بمقربة من المسافة، قرية كبيرة تعرف بالنيرب، قد غطتها البساتين، فلا يظهر منها إلا ما سما بنا، وعليها جامع لم ير أحسن من، ومغمر سطحه كله بفصول الرخام الملون، ففيه لناظرها أنه نباج مبسوط، وفيه سقاية ماء
رائحة الحسن، ومظهرة لها عشة ابن راوب، يجري الماء فيها، ويطير بها، فوقها لجحة القبلة قرية كبيرة، هي من أحسن القرى، تعرف بالمرة، وها جامع كبير وسقاية معينة، وبقرية النيرب حمام، وأكثر قرى هذه البلدان فيها الحمامات.

وفي الجهة الشرقية من البلد، عن يمين الطريق إلى مولد إبراهيم عليه السلام، قرية تعرف ببيت لاهية، يردنون الألحة، وكانت فيها كنيسة هي الآن مسجد مبارك. وكان أزرا אבלهم ينحوت فيها الألحة ويصورها، فيجده الخليل إبراهيم صلات الله عليه وعلى نبينا الكريم في كسرها، وفي اليوم مسجد يجتمع فيه أهل القرية، وسطحه كله مفروش بفصوص الرخام الملونة، منظم كله خواصات، وأشكال بديعة، يخيل لمصرحها أنها فرش متقنة مرفرفة، وهو من المشاهد الكريمة، والرحبة المباركة اوقف كثيرة، من بساتين وأرض بيضاء ورباع. وهي معينية التقسيم، ووظائفها: فمنها ما هو معين باسم النفق في الأدم للبئنين فيها من الزوار، ومنها ما هو معين للأكسية برسم التخطيط بالليل، ومنها ما هو معين للطعام، إلى تقسيم تستثمر جميع موازنتها، ومؤن الأئمة الطائفة فيها برسم الأصامة، والمؤن المنظم خدمتها؛ ولهم على ذلك كله مرتبت معلوم في كل شهر، وهي خطة من أعظم الخطط.

والايمان فيها الآن من بقية المراقبين المسوفيين (9) ومن أعيائتهم، يعرف بأبي الريحان بن اسم بن طلحة بن برهم بن ماك، له مكانة من السلطان ووجوه الدولة، له في الشهر خمسة بانور حاشية قائمة الرقوة، وهو مسم بالخور ومرئي، وهو متعلق بسبب من أسباب البر في أواخر أهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات، ينبغي لهم وجوه المعاش من الإمامة في مسجد، أو سكتى بمدرسة تجري عليه فيها النفق، أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع يجيي إليها فيها رضوعه، أو حضور في قراءة سبع، أو سانتة مشهود من المشاهد المباركة يكون فيه، ويجري عليه ما يقوم به من أوقافه، لا غير ذلك من الوجه المعاشية، على هذه السبيل
المباراة مما يطول شرحته، فالغريب المحتج هنا، إذا كان على طريقة الخبر، مصنون محفوظ غير مرغوب ماهوجهه، وسائر الغرابه من ليس على هذه الحال، منع عهد الخدمة والمئة، يسبب له إياها أسباب غيرية من الخدمة: إما سيستأنكون ناطورا فيه، أو حمام يكون بعينا على خدمته وحافظا الاعتقابا داخلية، أو طاهونة يكون مينا عليها، أو كابحة ضريبان يختتمهم على محاصيرهم ويرصوفه إلى منازله، إلى غير ذلك من الوجوه الواسعة، وليس يؤمل فيها كلها سوى المغازرة الغرابه، لأنهم قد عالاتهم بهذا البلد، ضربت في الأربعة، وطار لهم فيها ذكر، وأبلغها لا يتحملون البلدين. وهذا من الطاف الله تعالى بالغرابه، وله الحمد والشكر على ما يولى عباده. وإن شاء أحد العقلين باسيا العالم مما تعرض هنالك للسلطان، يقبله ويكرمه ويرتيبه، ويجري عليه بحسب قدره ومنصبه، فقد طبعه هذه البلاد، مما كوكبا على هذه القضايا قدما وحديثا. وقد تساؤلنا القول إلى غير الباب الذي نحن فيه الحديث ذو شجون، والله كفيل بحسن العون، لا ريب سواء.

ويغري البلد جبالة (10) كبيرة، تعرف بقبور الشهداء، فيها كثير من الصحابة والتابعين الأئمة الصالحين رضي الله عنهم. فالزهور بها من قبور الصحابج، رضي الله عنهم، وقبر أبي الدرداء، وقبر زوجته أم الدرداء رضي الله عنها، وموضع مبارك فيه تارك قديم مكتوب عليه، في هذا الموضع قبر جمعة من الصحايا، رضي الله عنهم، منهم، فضالة بن عبد، وسهل بن الحنظلة، من الذين بايعوا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تحت الشجرة، وخلال [ أمير] المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وقبره مسند في الموضع المذكور. وقرارات في فضائل دمشق: إن أم المؤمنين أم حبيبة أخت معاوية رضي الله عنهم، مدفونة بدمشق، وقبر واثلة بن السبع من أهل الصفا، وفي الجهة التي [كلى] هذا الموضوع المبارك، تاريخ فيه مكتوب: هذا قبر أسى ابن أسى الثقفي، وحوال هذا الموضوع المذكور، على مقرية منه، قبر بلال بن حمامة مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وفي رأس القيبر المبارك تاريخ باسمه رضي الله عنه، والدعاء في هذا الموضوع المبارك مستجاب، فقد جرب ذلك كثير من الأولياء وأهله الخير المثيرين بزيارتهم، إلى قبور كثيرة من الصحابة وسواهم من الصالحين، ومن قدم ذهب اسمه وغبر ذكره، ومشاهد كثيرة لا تخلو البيت رضي الله عنه رجلاً ونساء، وقد احتفل الشيعة في البناء عليهم، ولها الاوقاف الواصعة.

ومن احتفال هذه المشاهد مشهد منسوب لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قد بني عليه مسجد حديق، رافض البناء، وبرز ذلك بسمان كله نارنج والماء يطرد فيه من سقابة معينة. والمسجد كله سُنْت معلقة في جوانبه صغار وكبار، في الحراب حجر عظم، قد شق بنصفين، والتحم بينهما ولم بين النصف عن النصف بالكلية. يزعم الشيعة أنه انشق لعلي رضي الله عنه: إما بضربة بسيطة أو بآخر من الامور الإلهية على يديه. ولم يذكر عن علي، رضي الله عنه، أنه دخل قط هذا البلد، اللهم إلا إن زعموا أنه كان في النوم، فظل جهة الرؤيا تصح لهم، وإذا لا تصح لهم جهة البقعة، وهذا الحجارا وجب بنين هذا المشهد، والشيوع في هذه البلاد أمور عجيبة، وهم أكثر من السنين بها. وقد عموا البلاد بنهابهم، وهم فرق شتى.....

وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنينية، سنون يذيعون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها، وكل من الحقوه بهم لحفلة، يرونها في منها يحرمونه [يلبسوه] السراويل، فيلقوه بهم، ولا يرون أن يستعدوا أحد منهم في نازلة تنزل ب، لهم في ذلك ماهب عجيبة. وإذا أقسم أحدهم بالفتوة برقسمه، وهم يقتلون هؤلاء الروافض، أينما وجدوه. ونشؤهم عجب في الأذية والناتلاف.

ومن المشاهد المكرمة مشهد سعد بن عبادة رئيس الخزرج، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو بقرية تعرف بالمهجة، شرقية البلد وعلى مقاطع أربعة أمثال منه، وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء، واليقير في وسطه، وعند رأسه مكتوب:
هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخنزير، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن مشاهد أهل البيت رضي الله عنهم: مشهد أم كاثوم ابنه علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وقيل لهما زينب الصغرى، وأم كاثوم كنيتها أوقها عليها النبي صلى الله عليه وسلم لشبهها بأبيها أم كاثوم، رضي الله عنها، والله أعلم بذلك، ومشهد الجهة الكريمة بقبل البلد تعرف بجارية على مزارع فرسخ، وعليه مسجد كبير، وخارج مساكن، ولم توقف، وأهل هذه الجهة يعرفونه بقبر الأست أم كاثوم، مشينا إليه، ويتنا به، وتركنا برؤيته، نفعنا الله بذلك.

وبالجبانة التي بغرب البلد، من قبور أهل البيت، كثير رضي الله عنهم، منها قبران عليها مسجد يقال: إنهما من ولد الحسن رضي الله عنهما، ومسجد آخر فيه قبر يقال: إنه لسكونه بنت الحسين رضي الله عنه، أو لعلمها سكنية أخرى من أهل البيت، ومن المشاهد أيضا قبر بجامع الدير، في بيت بالجهة الشرقية منه، يقال: إنه لم رم رضي الله عنها، وثمنية داريا، قبر أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه، وعليه نداء هي علامة القبر، وعليه أيضا قبر أبي سليمان الداراني، رضي الله عنه. وبين هذه القرية وبين البلد مقدار أربعة أميال، وهي جهة الغرب منه، ومن المشاهد الكريمة، التي لم تعانيها ووصف لها قبر زينب رضي الله عنه. وصقا بالبقاء، وهي على يومين في البلد. وحدثنا من ذرع قبر شاب فما فيه أربعين باغا، وفي قبر نوح ثلاثين، وبازار قبر ذهاب ابنه له. وعلى هذا القبر بناء، ولها أوقف كثيرة، ولها قيم يلتزمها، ومن المشاهد المباركة أيضا. بالجبانة الغربية، ومقرية من باب الجباية، قبر أبوس القدر رضي الله عنه، وقبر خلفاء بنى آمية، رحمهم الله، يقال: إنها ببازار باب الصغير، بمقرية من الجبانة المذكورة، ومن المشاهد المباركة بهذه البلدة أكثر من أن تتضبط بالتقيد. وإنما رسم من ذلك ما هو مشهور ومعلوم.
ومن المشاهد الشهيرة أيضاً، مسجد الاقدام، وهو على مقدار ميلين من البلدة مما يلي القبلة، على قارعة الطريق الأعظم الأخذى بلاد الحجاز والساحل وبيار مصر، وفي هذا المسجد بيت صغير، فيه حجر مكتوب عليه: «كان بعض الصالحين يرى النبي صلى الله عليه وسلم وسلام في الدوم، فقوله: هنالك قبر أخى موسى صلى الله عليه وسلم»، والكثيب الأحمر على الطريق، بمجردة من هذا الموضوع، وهو بين غالية وغويلية كما ورد في الآثار، وهو موضوعان، وشأن هذا المسجد في البركة عظيم، وقيل: ان الدوار مخالق من: هذا الموضوع الذي يذكر أن القبر فيه، حيث الحجر المكتوب، وله اوقف كثيرة. فاما الاقدام في حجارة في الطريق إليه، معلم عليها، تجد اثر القدم في كل حجر، وعدد الاقدام تسع، وقيل: إنها اثر قدم موسى عليه السلام، والله أعلم بحقيقة ذلك، لا الله سواه.

شهر جمادي الأولى، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الجمعة، بموافقة العاشر لشهر غوشت العجمي

ذكر جمل من احوال البلدة، عمره الله بالسلام

لهذه البلدة ثمانية أبواب، باب شرقي، وهو شرقي، وفيه منارة بيضاء يقال: إن عيسى عليه السلام ينزل فيها، لما جاء في الآثار أنه ينزل بالمنارة البيضاء شرقي دمشق، وليه هذا الباب، باب توما، وهو أيضاً في حي الزرق، ثم، باب السلام، ثم، باب الفرح، ثم، باب النصر، وهو غربي، ثم، باب الجابية، كذلك، ثم، باب الصغير، وهو بين الغرب والقبلة.
1921

والمسجد الجامع مأله إلى الجهة الشمالية من البلدة، والأرياض
به مطيفة لا من جهة الشرق مع ما يتصل بها من القبلة يسيراً.
الأرياض كبار، والبلد ليس بمفرط الكبر، (و) هو مأله
الطول، وسكة ضيقة مظلمة، ونهاة طين وقصب، طبقات بعضها
فوق بعض، ولذلك ما يسرع الحريق إليه، وهو كله ثلاث طبقات،
فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن لأنها أكثر بلاد الدنيا
خلقاً، وحسن كله خارج لأداخل.

وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شان عظيم، تعرض بكنيسة
مرنيم، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها، وهي حييلة
البناء، تتضمن من التصوير أمرا عجيبا تتبث الأفكار، وتستوقف
الابصار، ومرأى عجيب، وهي بناية الروم، ولا اعتراض عليهم
فيها.

وبهذا البلدة نحو عشرين مدرسة، وها مارستانان قديم وحديث،
والحديث أحقهما وأكبرهما، وجزائه في اليوم نحو الخمسة عشر
بيناراً، ولله قومة يأتيهم الأزمة الح tj java 0 على أسس المرضى، وعلى
النقاط التي يحتاجون إليها في الادوية والأغذية وغير ذلك،
والاطباء يبكونا اليه في كل يوم، ويتقرون السر المرضى، ويا مرن
باعدا ما يصلحهم من الادوية والأغذية، حسبما يليق بكل انسان
منهم، والمارستان الآخر على هذا الرسم، لكن الاحتفاظ في الجديد
أكثر، وهذا القديم هو غزبي الجامع المكرم، والمجانين المعظمين
أيضا ضرب من العلاج، وهم في سلسلة موثوق، ونحوه بالله من
الحالة مسود القدر، وتدرك من بعضهم النواورة الظرفية، حسبما كنا
نسمع به، ومن أعجب ما حدث به من ذلك: إن رجلا كان يعلم
القرآن، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجهة البلد، من أوتي مسحة
جمال، واسم نصر الله، وكان المعلم يهيم به. فزاء كافه حتى
اختبى، وادي إلى المارستان، واشتهرت علته وفضحته بالصبي،
وربما كان يدخله أبوه إليه، فقيل له: اخرج وقد كنت عليه من
القرآن. فقال متمنينا تماجنا المجانين، وأي قراءة بقيت لي؟ ما

- 43 -
1422

بقي في حفظ القرآن شهوداً، انا جاء نصر الله، فقضاه
منه، ومن قوله، ونساء الله العافية له ولكل مسلم، فلم يزل كذلك
حتى توفي سمع الله له.

وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام، والدار
كذلك. ومن أحسن مدارس الدنيا من مدارس ذور الدين، يمنحه
الله، وبها قبره ذور الله، وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصب
فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساحية
مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار. فتجار الإصار
في حسن ذلك المنظر، فكل من يبصره يجد الدعاء لذور الدين رحمه
الله، وأما الريابات التي يسمونها الخواواق، فطريفة، وهي برسم
الصوفية، وهي قصور مزخرفة، يطرد في جميعها الماء على أحسن
منظر يبصر.

وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد، لأنهم قد كفاهم
الله مؤن الدنيا وفضلها، وفرغ خواترهم لعبادته من الفكرة في
أسباب المعايش، واستثنوا في قصور нихمهم قصور الجنان،
فالأسعاد الموقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا
والاخرة، وهم على طريق شريفة، وسنة في المعاشره عريبة،
وسيئتهم في التزام رتب الخدمة شريفة، واعتقادهم من الاجتماع
السامم المشوق جميلة، وربما فكار منهم الدنيا في تلك الحالات
الندف البشير رقة وترشقا. وبالجملة فاحولهم كلها بديعة وهم
يرجون عيشا طيبا هنيئا.

ومن أعظم ما شاهدها لهم موضوع يعرف بالقصر، ووالصريح
عظيم مستقل في الهواء. في اعلاه مساكن لم ينجد اشراها منها،
وهو من البلد بنصف الميل، له بستان عظيم ينثر به، وكان متنزها
لأحد ملوك الأتراك فيقال: أنه كان فيه احدي البابلي على راحة.
فاجتز به قوم من الصوفية، فهربوا عليهم من النبي الذي كانوا
يشربونه في ذلك القصر. فرفعوا الأمر لذور الدين، فلم يزل حتى
لا يفوتنا من صاحبه، ووفقه برسم الصوفية مزيدا لهم، فطلال
العلي من السماحة بعثه، وباقي الأئمة الفضلاء فيه مخالدا لنور الدين
رحمه الله. ومناقب هذا الرجل الصالح كبيرة، وكان من الملوكي
الزهاد، وتوفي في شوال سنة تسعم وتستين وخمسة مئة، واستولى
بعده على الامام صلاح الدين، وهو على طريقه من الفضل شهيرة،
وشانه في الملوك كبيرة، وله الآثر الباقى شرفه من وصالة الملوك
بطرق الحجاز، ودفعه عوضا عنها لصاحب الحجاز، وكانت الأيام
قد استمرت فيما بهذه الضريبة المعينة، التي أن محا لله رسمها
على يدي هذا الملك العادل، أصلح الله.

ورد من مناقب ذور الدين رحمه الله تعالى: أنه كان من المغاربة
الغربيين الملتزمين زاوية الملكية بالمسجد الجامع المبارك. وقاف
كثيرا، منها طاهوانكان، وسبعة بستين، وأرمل بضعة، وحما
ودكان، وعسا做一些، وأخبرنا أحد المغاربة الذين كانوا يناظرون
فيه، وهو أبو الحسن بن بلال الشيباني المعروف بالأسود. أن
هذا الوقود الغربي يقبل، إذا كان النظر فيه جيدا، خمس مئة
ديناز في العام، وكان له رحمه الله بجانبهم فضل كبير، دفعه الله
بما أسلم من الخير، وهذا ديارا موقوفة لقراء كتاب الله عز وجل
يسكونونها.

وأما الغرباء بهذه البلاد أكثر من أن يأخذوا الاحصاء،
ولسيا لحفظ كتاب الله عز وجل، والمنهجين للطلب، فاعشون بهذه
البلدة لهم عجيب جدا، وهذه البلاد المشرفة كثيرة على هذا الوضم
لكن الاحتفال بهذه البلاد أكثر، والاتسع أوجد، فمن شاء الالفاح
من نشأة مغامرة، فليرحل إلى هذه البلاد، ويتغذى في طاب العلم،
فيفج الأمور المعينات كثيرة، فقولها فراع البلاء من أمر العبادة،
وهو أكبر الآعون ولههمها، فإذا كانت اللهمة فقد وجد السبيل إلى
الاجتماع، ولا عذر للمقصر إلا من يدين بالعجز والتعويد، فذلك
من لا يتوجه بهذا الخطاب عليه، وإنما الخطاب كله ذي همة يحول
طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي، فهذه

- 46 -
المشرق بابه مفتوح لذلك، فانطلق أيها المجتهد بسلام، وتقدم الفراق والانفراد قبل عرق الأهل والأولاد وت.GetCurrentTerm() سن الندم على زمن التضييع، والله يوفق ويرشد لا اله سواه، فقد نصحت أن آلفت سامعا. ونادي إن اسعت مجيباً، ومن يهد الله فهو المهتدٓ (11)، جعل قدرته، وتعالى جده. ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقة كلها الا مبادرة أهلها لاكرام الغرباء، وأيضاً الأفكار، ولا سيما أهل باديها، فانه تجد من بادر الى بضراف عجبى، كفى بذلك شرفًا لها. وبه ما تعرض أحدهم كسرت على فقيه فيتوقف عن قبولها، فينكي الرجل ويقول: لو علم الله في خيرا لأكل الفقيه طعامي، لهم في ذلك سر شريف.

ومن عجيب أمرهم تطهيرهم للحج، على قرب مسافة الحج منهم، وتسير ذلك لهم، واستطاعتهم لسبيله، فهم يتسامون بهم عند صدودهم، ويثبطونهم علىهم تبركاهم، ومن أغرب ما حدثاه من ذلك: أن الحاج المسمى مع من انخفاض البيم من المغاربة عند صدورهم الى دمشق في هذا العام، الذي هو عام ثمانين، خرج الناس تلقينهم: الجم الغفير نساء ورجالاً، يصافحونهم، ويتمسكون بهم، وأخرجوا الدراهم لفقراءهم، يتناولونهم بها، وخرجوا البيم الأطعمة، فأخبرنثمن اصر كثيرة من النساء تلقين الحاج، وبناولنهم الخبر، فان ضع الحاج فيه اخطفته من ابديهم، وتبادرون لا كاف، تبكتا بأكل الحاج له، ودفعن له عوضًا منه رواهم، الى غير ذلك من الأمر العجيبة ضد ما اعتتنا في المغرب في ذلك. وصنعنا بنينا في بغداد عند تلقي الحاج بها مثل ذلك أو قريب منه، ولو شننا استضانه هذه الأمور لخرجت بنا عن مقصد التقيد، وإنما وضع الإذاعة بلحمه داية، يكتفي بها عن التطويل، وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للاجتراد يلزم بضيقهم الأصميم من الضياع، فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال، وديث الخير على من أهل الضياع ويلتزم الإمامة والتعليم أو ماشاء، ومنى

الواقعية بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تعترض الرعايا، ولا التحارب، فالآمن لاييفهم في جميع الأحوال سلمًا أو وحربًا، وشأن هذه البلاد في ذلك أعبج من أن يستوقف الحديث عنه والله يعلي كلمة الإسلام بمنه.

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان، منحازة في الجهة الغربية من البلد، وهي بإزاء باب الفرج من أبواب البلد، وبحا جامع ال人民服务 فيه وعلى مقربة منها، خارج البلد في جهة الغرب، ميدان كانهما ميسطن خزة اشتهية خضرتهم، وعليهما حلق، والنهر بينهما، وغيضة عظيمة من الحور متصلة بهما، وهم من أبعده المناظر، يخرج السلطان اليهما، ويبلغ فيهما بالصوارج، ويساقي بين الخيل فيهما، ولا مجال للعين كمجالاتها فيهما، وفي كل ليلة يخرج أبناء السلطان اليهما الرماية، والمسابة، واللعب، بالصوارج، وبهذه البلدة أيضا قرب مئة حمام فيها وفي رياضها، وفيها نحو أربعين دارا للوضوء، يجري الماء فيها كلها، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب، لأن المراقب بها كثيرة، وفي الذي ذكرناه من ذلك كفاية، والله يبقيها دارا للإسلام بمنه، وأسواق هذه البلدة من أجمل أسواق البلد، وأحسنها انتظاماً، وأبدعها وضععاً، ولا سيما قيساراتها، وهي مرتفعات كنها الغنادق، مثقلة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصر، وكل قيسارية متفردة بضيقتها، واغلاقها الجيدة، ولها أيضا سوق يعرف بالسوق الكبير، يتصل من باب الجاوية إلى باب شرقي وله بيت صغير جدا قد اتخذ مصلى، وفي قبته حجر يقال: ان براهم صلی الله عليه وسلم كان يكسر عليه الألله التي كان يسوسها ابوه لليه.

وحدث الدار المنصور لمعري بن عبد العزيز - الذي هي اليوم للصوفية، وهي في الدهليز الذي في الباب الشمالي المعروف بباب الناطفين، وقد تقدم التنبه عليها قبل هذا - حدث عجيب: وذلك أن الذي اشتراءها، وباها، وجعل لها الوقف الواسعة، وامر
بين يدفن فيها، وان يختتم على قبره القرآن كل جمعة، وعين من تك الاوقاف لن يحضر ذلك كل جمعة رطلاً من خير الحواري - وهو ثلاثة ارطال من ارطال المغرب - رجاء من العلم يعترف بالسياسي - وسميسيطية - وسميسيطية بلدة من بلاد العجم - وكان موصوفاً بالبر ورجه، وأصل يسارة وتموله، فيما ذكرنا، أنه الفقه يومنا من الأيام بالدهليز المذكور أزاء الدار المذكورة، رجاء أROYD مريضاً، متروحاً بموضعه، غير ملتقي اللعب، ولا معتدي به، فتأجر فيه، والتزم تمرد، وخدعته، والنظر له اعتناء للأثواب من الله عز وجل. فثابت وفاة الرجل، فاستدعى مرضه السيسيطي المذكور، فقال له: إن قد أحسنت إلي وخدعتي، ولطفت في تمرد، واشفت لحالي وغرتني، فلما أدرت أن كالفك على عقد بي، زادنا إلى مكافحة الله عز وجل عني في الأجل، إن شاء الله. وذلك أبي كنت جن احد قبائل الخليفة المعتدي العباسي، ومروعًا بزمام الدار، وكانت لي حظوة ومكانة، فعطى على بعض الأمر، فخرجت طيلة، فانتهت إلى هذه البلد، فأصابني فيها من أمر الله وما أصابني، فسبح الله لي رحمته، فلما اعتقل مكانه، وأهده إليك فيها عهدًا، أنا نامت وغرتني، فانهض على بركة الله تعالى على بغداد، وتطف في السرائر عن دار صاحب الزمام في الخليفة، فإذا أرادت الله فصرف الحيلة في أكتشافها، وأرجل الله يعيدك على ذلك. وإذا سكتها فأعد إلى وضع - سماه الله، وذكر له أمارة عليه - فافطر فيه مقدار كذا، وأثري اللوح الذي تجده معترضاً تحت الأرض، وخذ الذي تجده مدفوناً تحت الأرض، وصرفه في منافك، وما يوفقك الله إليه من وجه من الرب والخير، مبارك كذا في ذلك، إن شاء الله. ثم توفر الرجل الموصي رحمته الله، وتوجه الموصي إليه بعده إلى بغداد، فيسر الله له في الدار، وانتهى إلى الموضع المذكور فاستخرج منه خزائناً لاقتليها، عظيمة الشأن، كبرى القدر، فسماها في أحوال متباع الفداء، وخرج إلى دمشق من بغداد، فثبت الدار المذكورة المذوبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وبناءها خانقاً للصويفية، واحتفل فيه، وايتنا لها الأوقاف ضياعاً ورباعاً، وجعلها بسم الصويفية.
واوصي بأن يدفن فيها. وأن يختم القرآن على قبره كل جمعة، وعين لكل من يحضر ذلك مناكرناه. فوجد البقاء والإقرار في ذلك مرفقا كثيراً، فأتغص الخائقة بالقراءة كل جمعة، فإذا ختموا القرآن دعوا له وانصرفوا، فاندفع لكل واحد منهم نقل من الخبز، على الصفة المذكورة. وبقى للمتسق جملة الأثر والخيار رحمة الله ورضوانه عليه.

والفكرية التي ذكرناها أيضاً بالجامع المكرم، والمقررة كل يوم بعد العصر، المعينة لن لايفظ القرآن كان أصلها أيضاً أن أحد ذوي اليسار توفي، وأوصي بأن يدفن قبره في الجامع المكرم، وأوقف وفقاً يغل مئة وخمسين ديناراً في السنة برسم من لايفظ القرآن، ويقرأ من سورة الكوثر إلى الخاتمة. فيقسم له أربعون ديناراً في كل ثلاثة أشهر من السنة، وذكر أن أحد الملاك السلفين توفي أيضاً، وأوصي بأن يجعل قبره في قبة الجامع المكرم، بحيث لا يظهرون، وعين وفقاً عظيمة تغل نحو الاف دينار وأربع مئة دينار في السنة ورائد لقراءة سبع القرآن كل يوم، ووضع الاجتماع لقراءة هذا السبع المبارك كل يوم، أثر صلاة الصبح، بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم، ويقال: إن في ذلك الموضوع هو القبر المذكور. وقراءة السبع لاانتظى ذلك الموضوع، متصلاً مع جدار القبلة إلى الجبار الشرقي، والله عز وجل لايضيع أمر المسلمين. وبقيت هذه الرسوم الشريفة مخالفة مع الآيات، نفع الله بهما راسمهما، وناهيك فيها من بلاد يرى فيها هذا الصحن الزائف لرضوان الله عز وجل، وللفقراء المحتاجين الجلوس في الجانب الشرقي من الجامع المكرم، الذين ليس لهم مايؤون إليه، وقف وضعه بعض المتاجرين الموافقين برسمهم، إلى مبايض ذكره من المتأثرا الإخراوج الصدقة، التي كلف الله بها غرباء هذه الجهات.

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد المستحسنة، المرجع لهؤم فيها من الله عز وجل قبول، أنهم في كل سنة يتذوتخون الوقف يوم
عرفة بجوالمهم، إذ صلاة العصر، يقف بهم امتتهم كاشفي رؤوسهم، داعين الى رحبتهم، التمسا بركة الساعة التي يقف فيها، وفد الله عز وجل وحجيج بيته الحرام بعرفات فلا يزالون واقفين، داعين، متضرعين إلى الله عز وجل، وحجاح بيته الحرام، متسللين، الى أن يسقط قرص الشمس، ويقروا ذكر الحاج، فينصحوا باكين على محرومهم من ذلك الموقف العظيم بعرفات، وداعين الى الله عز وجل في أن يوصلهم الىها، ولا يخلوهم من بركة القبول في فعلهم ذلك.

ومن أعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشائعة، وهياكلها الهائلة البيانية، المعجزة الصناعة والانفتاح، المعترف لوصفها بالتقتصر لسان كل بيان: الصعود الى أعلى قمة الرصاص المذكورة، في هذا التقيد، القائمة، وسط الجاعم الكرم، والدخول في جوفها، وإجالة لحظ الاعتيار في بديع وضعها، مع القبة التي في وسطها كانت كرمة محوطة داخلة وسط كرمة أخرى أعظم منها، صعدنا اليه في جملة من الأصحاب المغاربة ضحوة يوم الاثنين الثامن عشر لجمادي الأولى المذكورة، من مرقي في الجانب الغربي من باب الطCake، وكان صومعة في القبلي، وتمشي لنا على سطح الجاعم الكرم، وكلوا الواح رصاص منتظمة، كما قد تقدم الذكر لذاك، وطول كل لحرب أربعة أشياب، وعرضه ثلاثة أشياب، وربما اعتراض في الأحوال نقص أو زيادة، حتى انتهىنا إلى القبة المذكورة، فصعدنا اليها على سلم منصور، ورحب الميد تكاد تطير بنا، فهربنا في المخال الطيف بها، وهو من رصاص، وستة أشياب، فلم نستطيع القيام عليه لطول الوقوف فيه، فسرعنا الولوج في جوف القبة، على أحد شرائبه المفتوحة في الرصاص، فاصبرنا مرأى تجاري في العقول، وتقف دون ادرك هيبة وصفه الاههام، ولننا في فرش من الخشب النظام، حول القبة الصغيرة الداخلة في جوف الرصاصية على الصفة التي ذكرناها، ولها طبقان يصير منها الجاعم ومن فيها، فكنا نصير الرجال فيه كأنهم الصبيان في الحاضر، هذه القبة مستورة كنكرة، وظاهرها من خشب قد شيد باضلاع من الخشب
الضخام، موثقة بنطق من الحديث، ينطوف كل ضلع عليها كالمباشرة، وتجمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب، أعلاها، وداخل هذه القبة، هو مابل الجامع المكرم، خواتيم من الخشب، منتظمة ببعضها بعض، قد اتصلت صلاباً عجيبة، وهي كلها معينة بأربعة صنعة من التذهيب، مرخة الثلاثين، بديعة القرنية، يرتفع الأبيض شفاع ذهبها، وتثير الأباب في كيفية عقدها ووضعها لأفئاط سموها أبصرنا من تلك الخواذم الخشبية.

خاتماً مطروحاً جوف القبة، لم يكن طلوعه أبل من ستة أشجار في عرض أربعة، وهي تلوح في انتظامها للعين كأن دور كل واحد منها شير أو شيران الغاية لعظم سموها، والقبة الرسخية محثوبة على هذه القبة المذكورة، وقد شنت أيضاً بإضلاع علبة من الخشب، الضخام، موثقة الأوساط بنطق الجديد، وعدهما ثمان وأربعون ضلاعاً، بين كل ضلع وضع أربعة أشجار قد انعطفت انعطافاً عجيبة، واجتمعت أطرافها في مركز دائرة من الخشب إعلاها.

ودور هذه القبة الرسخية ثمانون خطوة، وهي مثناً شير وشتوت شيران، والحال فيها أعظم من أن يبلغ وصفها، وإنما هذا الذي ذكرننا سبب يستدله بها على موردها، وتحت القارب المستطيل المسمى النسر، الذي تحت هاتين البقتين، داخل عظيم، هو سقف المقصد، بينه وبينهما جسمرزينة، وقد انظفه حتى من الخشب، ما لايحيى عده، وبعد أن انخفقت بعضها بعضها على بعض، وتوثيت تركيبها هائلة منظر، وقد أدخلت في الجدار، كله دعاء للبقتين المذكورتين، ولهذا الجدار حزارة، كل واحد منها نزن قناطر مقطورة، لانقلاذها الفعلية ضلاً من غيرها، فالجدول كل العبج من تطيله إلى ذلك الموضع المفرط السموع، وكيف تمكنت القشرة الشرقية لذاك، فسمح من أغمابه إلى هذه الصنائع العجيبة، ومعنينهم على النبي لميس موضع، في تلاجم البشري، ومظهر آياته على أيدي من يشاء من خلقه، لا اله سراً، والاقتبس على قاعدة مستديرة من الحجازة العظيمة. قد قامت فوقها ارجل قصور ضخام من الحجازة الصمك الكبار. وقد فتح بين كل رجل ورجل شمسية، واستدامت الشمسيات بالاستمرار، والاقتبس
في رأي العين واحدة، وكنينا عنها بالنثرين لكون الواحدة في جوهر الأخرى، والظاهر منها قبة الرصاص.

ومن جملة عجائب ما عابنا في هذين النثرين ان لم نجد فيهما ذكر مساكتهما، على اعتقاده من التفوق لهما من أحد، والتعاكد للفضيلة مساحتها، والإهمال في مثالهما موجود كثير، وقد كان حسن عندنا أن الجامع المكرم لا ينسج فيه العنقبوت، ولا يدخل الآثار المعروفة بالخطاف، وقد تقدم ذكرنا لذلك في هذا التقيد، فاعترضنا من منادين، وقد قضينا عجبنا عجبًا من هذا النظر العظيم شأنه، المعجز وضعه، المترفع عن الأدراك وصفره.

ويقال: إنما على ظهر المعمورة أعمى من النظرا، ولا أعد سوا، ولا أغرب بنينا، من هذه القبقة، إلا ما يحكى عن قبة بيت المقدس، فإنها يحكى أنها ابتدأت في الارتفاع والسمو من هذه. وحملة الامر ان نظرها، والوقوف على هيئة وضعها، وعظيم الاستقرار فيها عند معاينها بالصعود إليها، والولوج داخلها، من أغرب ما يحدث به من عجائب الدنيا، والقدير لله الواحد القدر، لا وصى.

ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنائزهم هيئة عجيبة، وذلك أنهم يمشون أمام الجنائز بقراء يقرهون القرآن بأصوات شجاعة، وصلاة مؤثرة، نكلا تتخلل لها الدفوس شجعا وحنانا، يرفعون أصواتهم بها، فتلتقطها الآذان يندفع الأذان، وجنائزهم يصلى عليها في الجامع، قبة المقرورة، فلا بد لكل جنزة من الجامع، فإذا بلغوا إلى بابه قاطعوا القراءة، ودخلوا إلى موضع الصلاة عليها، إلا أن يكون المنت من إثمه، الجامع أو من سدنته، فإن الحالة الوضوح لم تذكر في ذلك أن يدخلوا إلى القراءة التي على موضع الصلاة عليه، وفيما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن، باب البريد، فيصرون أفرادا افرادا، وبجاسون وأمامهم ربعات من القرآن يقرؤتها، وذبابة الجنازة يرفعون أصواتهم بإلقاء لكل وصل للعزاء، من محتمشي البلدة وعياتهم، ويحاولون بهم خططهم للهيئة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالإضافة إلى الدين.
فتسمع ماشئت من صدر الدين، أو شمسه، أو بدره، أو نجمه، أو رزقه، أو سماحه، أو جماله، أو مجده، أو فخره، أو شرفه، أو مغتنين، أو محبيه، أو زكيه، أو نجيبه، إلى مثالاً، جاءة هذه الألفاظ الموضوعة، وتتبعها ولاسماً في الأفقيها، بما شئت أيضاً من سيد العلماء، وجمال الأنثى، وحجة الإسلام، وفخر الشريعة، وشرف الملة، ومفتى الفريقين، إلى مثالانها، هذا الآلفاظ المحالية، فيصدع كل واحد منهم إلى الشريعة ساحباً بإلهام من الكبر، ثانياً عطفه وقذاله، فإذا استكملا وفرغوها من القدرة، وانتهى المجالس بهم متتهام، قام وعاظم واحداً واحداً بحسب رتبهم في المعرفة، فوعظ وذكر، ونبه على خداع النبتاء، وحذر وانتشر في المعني ما حضر من الأشعار، ثم عُتمت بتعزيز صاحب المصاب والدعاء له، والمتوافقة، ثم قد، وتباهه آخر على مثل طريقته إلى أن يفرحو ويتفرقوا، فربما كان مجلساً نافعاً من يحضره من الذكرى.

ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتضريد، وبالمثال الخديعة، وتعظيم الحضر، وإذا أحد منهم آخر دسلما يقول: جاء الملوك أو الخادم برسم الخدمة، كتابة عن الإسلام، فيتعاطون المجال تعاطياً، والجلد عندهsimulate. مغرب، وصفه سلامهم ايماء للزروق، أو السجود، فترى الاعتقاد تتلاعع بين رفع وخفض، ويوسف وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك، وأناح ينح وآخر يقوم، ومعاناتهم تهوي بينهم هسياً.

وهذه الحالة من الانبعاث الركوعي في الإسلام كنا عهدنا آقتنات النساء، وعند استعراض رقي الأمة فيفعجاها لؤلؤ الرجال، كيف تحال بين بسمات ربات الحجاج، لقد ابتلعوا نفسهم فيما تأذف الدفوس وليبته، واستعادوا تكفر الذمي الذي في الشرع عنه، لهم في هذا الآشان طروق عجبة في الباطل. فيلعنهم، لن، إذا تعاملوا بهذه المعاملة، وأنتوا إلى هذه الأفقيها في الألفاظ بينهم، فيماذا يخطبون سلاطينهم ويعاملونهم؟ لقد تساءت الانتاب عنهم.
والرئوس، ولم يميز لديهم الرؤوس والمروئس! فسبقنا خالقنا الخلق، أطراء، لا شريك له، ولا معبود سواه.

ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير، بجميع هذه الجهات كلها، أنهم يمشون وأيديهم إلى خلف، قابضين بالواحدة على الأخرى، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشيبة بأحوال العناة مهنة واستكانة، كانوا قد سيروا تعنيفا، ووازدوا تكتيفا، وهم يعتقدون تلك الهيئة لهم تميزا لهم في ذوي الخصوصية وشيسيفا، ويرمزون أنهم يجدون بها نشاط في الأعضاء، وراحة من الأعياء، والاحتشام منهم من يسحب نيله على الأرض شيرا، أو يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى، قد اتخاذا هذه الهستية بينهم سننا، وكل منهم قد زين له سوء عمله، فرأى حسنًا، استغفر الله منهم! فان لهم من أداب المصالحة عواطف، تجد لهم الأراكان، وتستوب لهم من الله الخفريان، لما بشر به الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المصالحة، فهم يستعملونها أثر الصلاوات، ولا سيما أثر صلاة الصبح، وصلاة العصر، وإذا سلم الأمام، وفرغ من الدعاة أقبلوا عليه بالصافحة، وأقبل بعضهم على بعض يصافح أدرء عن يمينه وعن يساره، فيتحركون عن مجلس مغرفة، بفضل الله عز وجل. وقد تمذى الذكر فيما سالف من هذا التقييد أنهم يستعملونها عند رؤية الأهلة، ويدعو بعضهم لبعض، بتركة ذلك الشهير وينتهي واستصباح السعادة والخير فيه، فيما يعود عليه من مثاله! وذكر أيضًا طريقة حسنة، يذفعهم الله بها، فما فيها من تعاطي الدعوات، وتجسيد الودات، ومصالحة المؤمنين بعضهم ببعض رحمة من الله تعالى ونعمه.

وقد تمذى الذكر أيضًا في غير موضوع من هذا الكتاب عن حسن سيره السلطان بهذه الجهات، صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب، وملائه من الأثر المأثور في الدنيا والدين، ومثابره على الجهاد أعداء الله، لأنه ليس أمام هذه البلدة لصلاة، والشام أكثره بيد الأفرنج، فسبق الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه
الجهات، فهو لا يأوي لراحة، ولا يخلد الى دعة، ولا يزال سرحه مجاسه: إننا بهذه البلاد نازلون منذ آثرين اثين، وحكاها وفقد خرج لنازة حصن الكرك، وقد تقدم الذكر ابضا له، وهم عليه محاظر حتى الآن، والله تعالى يعينه على أخيه، وسمعنا أحد فقهاء هذه البلاد، وزعمائها المسلمين بسدة هذا السلطان، والحاضرين مجلسه، يذكر عنه في حضرة مخلد علماء البلد، وفقهائه، ثلاث مناقب في ثلاث كلمات حكاها عنه، رأينا إثباتا هما: إحداها أن الحلم من سجايها، فقال، وقد صفح عن جريرة أحد الجناء عليه: أما أنا فلا أخطئ في الحلم وحبي إلى أن أصيب في العقوق، وهذا في الحلم من زعاء حذفي (١٣) وقال أيضا: وقد دوشدت بحضرته الأشعار، وجري ذكر من سألت من أكارم الملوك وأجدوه: والله لو وقفت الدنيا للقاضي الأول ما كنت استكره له، ولو استفرعت له جميع ما في خزانتي لما كان عوضا مما رافقه من حر ماء وجهه في استطلاعه ايا، وهذا في الكرم مذهب رشدي أو جغرفي (١٤) وحضره أحمد مالكي التميزين لديه بالحظوة والأثر، مستعينا على جمال ذكر نباه عما معينا، أو صرف عليه جملاً بعباد لم يكون فيه، فقال السلطان له: ما ماعس ان أصنع لك، والمسلمين قاض يحكم بينهم، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعام، وأمره ونواهيه متصلة، وإنما أنا غياب الشرع وشحته، والشحنة عندهم صاحب الشرطة، فالحق يفيك كأو عليك. ولهذا في العقد مقصداً عمري (١٥) وهذه كلمات، كلف بها لهذا السلطان فخراً، والله يمنع ببيته الإسلام والمسلمين، بمنه.

شهر جماة الآخرة، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الأحد التاسع من شهر شتبار العجمي، ونحن بدمشقي حررسها الله على قدم الرحلة الى عكّة، فتحما الله، والتماس ركوب البحر مع تجار الصصاري، وفي مراكبهم المدعة السفر.
الخريف المعروف عندهم بالصلبية، عرفنا الله في ذلك معهود خيرته. وتكفنا بكلامه وصحته، بعزمته وقدرته، أنه سبحانه الحنان المنان، ولِي العُمُوم والآخِسِسان، ولا يَدِر خِبره. وكان انفصانا منها عطى يوم الخميس الخامس من الشهير المذكور، وهو الثالث عشر من شهر شتنبر المذكور، في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكا.

ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا، أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الأفرنج، وسيهم يدخل إلى بلاد المسلمين، شاهينا من ذلك عند خروجنا أمارا عجيبا، وذلك أن صلاح الدين عند منازلتة حصن الكركر، القديم المذكور في هذا التاريخ، قصد عليه الأفرنج في جميعهم، وقد تألفوا من كل وسيلة وراء ما انسيابه إلى موضع الماء، وقطعوا عنه الميزة من بلاد المسلمين. فصمص اليهم، واقلح عن الحصن بجماله، وسباقهم إلى موضع الماء، وفشاءوا عن طريقه، وسلوا طريقا ورعا نعم فيه أكثر وراءهم، وتوجهوا إلى حصن الكركر المذكور، وقد سدد عليهم Visibility الطريق القاسحة على بلادهم، ولم يبق لهم إلا طريق عن الحصن باتخذ على الصحراء، ويعده مداه عليهم بتحليق يعترض فيه، فاهتيل صلاح الدين في بلادهم الغرة، وانتهى الفرصة وقصده قصدها عن الطريق القاسحة، ظلم مدينة نابوس وهمها بعسكره، فاستولى عليها، وسبي كل من فيها، وأخذ اليها حمصنا وضياعا، وبعث إلى أديرة المسلمين سيا لاحصل عنه الأفرنج، ومن فرقة من اليهود تعر قبض والمسرة منسوبة إلى السامرود، وانبسط فيهم القتال الذي، وحصل المسلمون منها على غنائم يُضِمي الحصر عنها، إلى ما اكفت من الامتعة، والخسائر، والإسبب، والآشات، إلى النعم والكرع، إلى غير ذلك. وكان من فعل هذا السلطان الموفق، أن أطلق أيدي المسلمين على جميع ما احتاواه، وسلم لهم ذلك، فاحتازت كل يد [ ما] حدوت، وامتقات غني ويسارا، وعفى الجيش على رسم تلك الجهات التي مر عليها من بلاد الأفرنج.
وابوا غانين فائزين، بالسلامة والفنية والأياب، وتخليصهم بالإضافة إلى
삶 المسلمين يعد كثيراً وكان غزوة لم تسمع بمثلها في البلاد.

وخرجنا نحن من دمشق، وأوائل المسلمين قد طرقوها بالغنائم،
كلما أحسوا وحصلت يده عليه، وكان مبلغ السبب الافا لم يتحقق
احصاءها، وحلق السلطان بدمشق يوم السبت بعدن الانقرب ليوم
انفصاثنا، واستعا انها يجم عسكره قيلى، وبعدها إلى الحصن
المذكور، فاليه ميعيه وفتح عليه بعزته وقدره، وخرجنا نحن إلى
بلاد الفرنج، وسيهم يدخل البلاد المسلمين، وناهيك من هذا الاعتقال
في السياسة، فكان مبينا ليلة الجمعة بدارياً، وهي قرية من دمشق
على مقدار فرسخ ونصف، ثم رحلنا منها، ثم يوم الجمعة بعده
الي قرية تعرف ببغرا، هي بين جبال، ثم رحلنا منها
صيبة يوم السبت من مدينة بانياس، واعترضنا في نصف الطريق
شجرة بلوشة عظيمة الجرم، متسعة الدرويع، وأعلنا انها تعرف
بـ١١١١ـ الجرمة الميزان، فسألنا عن ذلك، فقيل لنا:

هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحراميه الفرنج، وهـم
الحواصل والقطاع، من اخذوها وراءها إلى جهة بلاد المسلمين، ولع
بباع واشتراها، ومن اخذ دونها إلى جهة بلاد الفرنج بقدر ذلك
اطلق سببه، لهم في ذلك عهد يوفون به، وهو من أطراف الارتباطات
الفرنجية واغريها.

ذكر مدينة بانياس، حماما الله تعالى

هذه المدينة تعرف بلاد المسلمين، وهي صغيرة، ولها قلعة يستدير
بها تحت السور نهر، ويقضي إلى احدها، وهي المدينة، وله مصب
تحت أرضاه، وكانت بيد الفرنج، فاسترجعها دون الذين رحمه
الله، ولها محروش واسع في بحراء منصلة، يشرف عليها حصن
للفرنج، يسمى *ـ١٠٤٢ـ*، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة
فُراسخ، وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج وبين المسلمين، لهم في ذلك حد يعرف بعد المقدمة، فهم يتشاركون الغلظة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حفظ يجري بينهما فيها. فرحلنا عنها، عش يوم السبت الذكرى إلى قرية تعرف به باسمه (٤٦) بمقدمة من حصن الإفرنج الذكور، فكان مبيتنا بها، ثم رحلنا منها يوم الاربعين، واختنا في طريقنا إلى هونين وتبنين، بواض ملتوء الشجر، واكثر شجرة الأردن، بعد العمود كانه الخليفة السحيق المماليك، تلتقي حافته، وتعلق بالسماء، أعلاه، يُعرف بالساحة، لوجته المساكن لقيت فيه، لا منجى ولا مجال لمسالك من يد الطالب فيه، المهد المطلع عنه عقبتان كُرودان، فعجبنا من أمر ذلك المكان، فاجتزنا، وميشينا عنه يسيراً، وانتهينا إلى حصن كبير من حصن الإفرنج يعرف بتبنين، وهو موضع تمكس القوافل، وصاحبته خنزيره، تعرف بالملك، وهي أم الملك الخنجر صاحب عكة، دمرها الله، فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن، ومكس الناس، تمكس غار مستقيمة، والضربية فيه بينار وقبران، من الندائي الصورية على الراض، ولا اعتراف على التجار فيه، لأنهم يقصدون موضع الملك المعلوم، وهو محل التعشير، والضربية فيه قبران من البنيان، والبناية أربعة وعشرون قبوتاً.

وأكثر المعتذر في هذا المكان المجاربة ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين، وذلك لابقية منهم احتفظت الإفرنج عليهم، سببها أن طائفة من اندادهم غزت منهم نهر الدين رحمه الله أحد الحصن، فكان لهم في أخذه عينى ظهر واشتهر، فجازهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية، الزموها رؤوسهم، فقلت مغربي بين على رأسه البنيان الذكور في اختلافه على بلادهم، وقال الإفرنج: إن هذه الممارسة كانوا يختفكون على بلادنا وفسسالهم ولا نزرؤهم شيئاً، فلما تعرضوا للحربنا، وناجوا مع اخوانهم المسلمين علينا، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم. فلمغاربة في أداء هذا المكس
سبيب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو، يسهل عليههم، ويخفف عنهم

ورحلنا من ثينين دمرها الله، سحر يوم الاثنين، وطريقنا كله
على ضياع متصلة، وعمائر منتظمة، سكانها كلا مسلمون، وهم
مع الافرنج على حالة ترفية، نعوز بالله من الفتنة، وذاك أنهم
يرويون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها، وجزية على كل رأس بدناز
وخمسة قراراً، ولايعتبرضونهم في غير ذاك، ولهم على ثمر
الشجرة ضريبة خفيفة يؤديونها أيضاً، ومساكنهم بأيديهم وجميع
احدمهم وهم مشتاقون موعد لهم موجود

وما بآيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذى
السبيل، رستاقهم كلها للمسلمين وهي القري والضياع، وقد
اشتقت الفتنة قلوب أكثرهم، لما يصرون عليه أخوئهم من أهل
رساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من التصرف
والرفق، وهذه من النجاحات الطارئة على المسلمين: إن يشتكي
الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمده سيرة ضده، وعدوه
المالك له من الافرنج، ويائسه بعده، فالتى الله المشتكي
من هذه الحال، وحسناً تعزيتها وتسليمة ما جاء في الكتب العدنى: "إن
هي الافتنان تضلل بها من تشاء وتهدي من تشاء." (17)

فنزلنا يوم الاثنين المذكور بمضيعة من ضياع عكة، على مقدار
فرسخ، ورضي بها الناظر فيها من المسلمين، تقدم من جهة الافرنج
على من فيها من عمارها من المسلمين فاضف جميع أهل القافلة
ضيافة حفيلة، وأحضروهم صغيراً وكبراً في غرفة مسورة بمنزله,
وانزلوا ألوان من الطعام قدمها لهم، فعمهم يذكرهم وكنا فيمن
حضر هذه الدعوة.

وبعدها تلك الليلة، وصبننا يوم الاثنين العشير من الشهر
المذكور، وهو الثامن عشر لشهر رمضان المبتدية عكة دمرها الله، وحملنا
إلى الديوان، وهو خان مد لحوز القافلة، وأمام بابه مصاطب
ذكر مدينة عكا، دمرها الله وأعادها

هي قاعدة من الأفرنج بالشام، ومحط الجوواري المنشأت في البحر كالاعلام، مرتاً كل سفينة، والمشهورة في عهدها بالفلسطينية، مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين، والنصاري من جميع الأفاق، سكانها وشوارعها تغوص بالزحام، وتضيق فيها مواطئ الأقدام، تستغر كفرا وطغيانها، وتتوفر خنازير وصابات، زمرة قرية، مملوءة كلها رجساً وعذرة، انزوعها الأفرنج من أبيدي المسلمين في العشر الأول من السنة السادسة، ففي لها الإسلام مله جفوته، وكانت أحد شجعه، فعذدت مساجدها كنائس، وصواعها مضاوض للزوارق، وظهر الله من مسجدها الجامع بغصة ببيت بابي المسلمين، مسجداً صغيرا، يجمع الغرباء، منهم فيه لاقامة فريضة الصلاة، وعند محرابه قبر صالح النبي صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء، فحرص الله هذه البقعة من رجس الكفرة، ببركة هذا القبر المقدس!

وفي شرقي البلدة العين، المعروفة بعين الباخر، وهي ни اخرج الله
ذكر مدينة صور، دمرها الله تعالى

مدينة يضرب بها المثل في الحصانة، لاتلاقى طالبها ببدعة ولا استكشاف، قد ادعى الأفرنج مقزعاً لحانته زمانهم، وجعلوها مثابة لامانهم، هي انظف من عكة سكاكا وشوارع، وأهلها ابن في الكفر طباع، وأجربى الى بر غرباء المسلمين شماكل ومزاج، فخضائتشهم اسجح، ومنازلهم اسوين وأفصاح، وأحوال المسلمين بها اهرون واسكن، وعكة أكبر وأفخاف، وما حساساتها ومناعتها فاعجب ما يحدث به، وذلك أنها راجعة الى بابين: احدهما في البحر والآخر في البحر وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة فالية في البحر يغض الباب، بعد ولوح ثلاثة أبوب أو أربعة، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب، واما الذي في البحر، فهو مدخل بين بدرجين مشيدين إلى مياه، ليس في البلاد البحرية اججي ووضعها منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب، ويدعو بها من الجنب
لا آخر جدار معقود بالحص ، فالسفر تدخل تحت السطور وترسي فيها ، وتعرض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة. تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب إلا عند ازالتها.

وعلى ذلك الباب حراس وامناء ، لا يدخل الداخان ولا يخرج الخارج إلا على اعينهم ، فكان عند هذه الإقامة شأن عجيب في حسن الوضع ، ولعكة مثلها في الوضع والصفة ، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك ، وإنما ترى خارجها ، والمراكب الصغر تدخل اليهـا ، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل.

فكان مقاما بها أحد عشر يوما ، وبخلناها يوم الخميس ، وخرجنا منها يوم الأحد الثاني والعشرين لجمادى الذكر وله quant يوم منـ شـنبـتـبر ، وذلك ان المركب الذي كنا أملناه فيه استغورناه ، فلم نر الروك فيه.

ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها ، زفاف عروس شاهدنا بصور في أحد الأيام عند مينائها ، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء ، واصطفوا سماطين عند باب العروس الهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات الهوائية ، حتى خرجت ينهداً بين رجليين يمسكانها من عينين وشم، كانهما من ذوي أرحامها ، وهي في أبهي زي ، واحتر لباس ، تسحب أنيال الحريض الذي صنح على الهيئة المتهورة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب ، قد حلفت بشبكة منسوجة ، وعلى لبها مثل ذلك منتظم ، وهي رافقة في حليها وحللتها ، تمشي فترا في فتر ، مشي الحمامات أو سير العامة ، نحوه بالله من فتنة الناظر ، وأمامها جلة رجالها من النصارى ، وأفرحوا لهم باب الفهلة ، تسحب أنصارها خلفهم ، ووراءها أكفاء وأمتنناء من النصارى ، يتهابين في انفس الملبس ، ويرفعون في أرفه الحلية ، والألات الهوائية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من التظاهر قد عادوا في طريقيهم سماطين ، يتعلمون فيه ولا يذكرون عليهم ذلك : فساروا بها حتى

- 64 -
انخلوها دار بعلها، وأقاموا يومها ذلكر في وليمة، فدانن اتفاق
الى رؤية هذا المنظر الظرف في الاستعاذ بالله من الفتنة فيه.

ثم عدلنا إلى عكة في البحر، وحالتنا صبيحة يوم الاثنين الثالث
والعشرين من جمادى الأموروحة، وأول يوم من شهر أكتوبر،
واكترينا في مركب كبير، نروم الأقلع إلى مسية من بلاد جزيرة
صقلية، والله تعالى كأذال بال تسوير والسهل، بما كان، وقدرنا.
وكانت راحتنا مدة مقامنا بصوم رفقي بايدي المسلمين، ولهم.
فيها مسجد آخر، فأعلناه به أحد أشياء أهل صور من المسلمين.
إنها أخذت منهم سنة ثماني عشرة وخمسة من، واتخذ عكة قيلها
بائنتي عشرة سنة، بعد محاسرة طويلة، وبعد استياء المسلمين
عليهم ذكرنا أنهم انتهوا منها لحالة نعود بالله منها ونحن حملتهم
الانفخاخ على أن همابه بركوب خطة صميمهم الله منها ونحن أنهم عزموا
على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم في المسجد الجامع، ويحملوا
السيف عليهم، غير من تملك النصارى لهم، ثم يخرجوا إلى
عدهم بعزمتهم نافذة، ويصبحونهم صديقة صادقة حتى يمرونوا على
دف واحد، أورقيي الله قضاءه، ومنهم من ذلك فقدواهم والذكورون
منهم، واجتمعوا على دفع البلد، والنزوح منه سلام، فكان ذلك
وتفروا في بلاد المسلمين، ومنهم من استهواء حب الوطن، فدفعه
إلى الرجوع والسكتي بينهم، بعد أمان كتب لهم في ذلك بشرط
اشترطوها، والله غالب على أمره، سبحانة جل ذكره، وتفرت في
البريت مشيتته، ولا، بل عند الله معجزة في حلول بيئة من بلاد
الكراس السحرة، وهو وجه ممنوبة في بلاد المسلمين، لم الشقات
واهو من ينعمها في بلادهم: منها النزل والمسك النديم، ومنها
سمع ما يفعج الأففاء من ذكر من قدس الله ذكره، وأعلى خطره،
لاسيما من أرادتهم واسائهمهم، ومنها عدم الطهارة، والتصريف
بين الخنازير، وجميع الحرمات، إلى غير ذلك مما لايحصى ذكره
ولا تعداده، فالحذر من دخول بلادهم، والله تعالى المسؤول
حسن الأقالة والمغفرة من هذه الخطى التي زالت فيها القدم، ولم
تُداركها إلا بعد مومضة التدمير، فهو سبحانه ولي ذلك لرب غيره.
ومن الفجائع التي يعانيها من حل بلادهم أسرى المسلمين، بيضرون في القيود، ويصرون في الخدمة الشاقة تصرف العبيد، والإسراء المسلمين كذلك، في أوقاف خالصة الحديبة، فتنفطر لهم الأفتدية، ولا يغفي الأشقاء عنهم شيئاً، ومن جميل صنع الله تعالى لآسرى المغارة، بهذه البلاد الشاميه الإفريقية، أي كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشاميه وسواها، وإنما يعينها في أفكاك المغارة خاصة، لبعدهم عن بلادهم، وأنهم لا خصص لهم سوى ذلك يعد الله عز وجل، فهم الفقراء المنقطعون عن بلادهم فمعلون أهل هذه الجهات، والمهاجرين من النساء وأهل البلد الذين إنما يذوقون أموالهم في هذه السبيل. وقد كان نور الدين رحمه الله نذر في مرضه أصابته تفتيق أشياء عشر ألف دينار، في فداء أسرى المغارة، فما استقبل من مرضه ارسل في فداءهم، فسبق فيهم ذكر ليسوا من المغارة، وكانوا من حماة من جماعة عمالته، فثارو بصرفهم، واخرج عوض عنهم من المغارة وقال: هؤلاء يفتقرون أهلهم وجيرانهم، والمغارة غباء لأهل لهم، فانظر الي لطيب صنع الله تعالى لهذا الصنم الغربي.

وقضي الله لهم بدمشق رجعين مم من ميسار التجار، وكثيراً، واغتنامهم المتضمين في الأثراء: احدهما يعرف بنصر بن قواه، والثاني بأبي الدرب يافوت موئل العماني، وتجارتهما كلها بهذا الساحل الإفريقى، ولاذكر فيه استواهما، ولهما الأمانة من المقرين، فالقوافل صادرة وواردة ببيضائهما، وشأنهما في الغني كبير، وقد رحمة عند أمير المسلمين والأفرنجيين خطير، وقد نصبهم الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغريبيين بأموالهما، وأموال ذوي الوصاية، لانهما القصودان بها لما اشترى من أمانتهما، وثقتهما، وبذلهما أموالهما في هذه السبيل. فلا يكاد مغربي يخضع من الأسر إلا على أحيهما، فهما طويل الدهر بهذه السبيل يذوقان أموالهما، ويذلان اجتهادهما في تخليص عباد الله المسلمين، من
ابدي أعداء الله الكافرين، والله تعالى (لا يضيع أجـر)
المحسنين (١٨ )

ومن سوء الاتفاقيات، المستناع بالله من شرها، إنه صبجا في طريقنا إلى عكة من دمشق رجل مغربي مـين، بدونه عمـل، بجابة: كان أسرى فخِلت على أبي أبي الدر المذكور، وبقي في جملة صبيانه، فوصل إلى قافلته إلى عكة، وكان قد صحب النصارى وتعلق بكثير من اختلاقهم، فمازال الشيطان يستهويه ويرغبه، إلى أن نبذ الدين الإسلام فكافه، وتصرفت مدة مقامنا بصور فانصرفنا إلى عكة، وأعلمنا بخبره، وهو بها قد بسط (١٩) ورجب، وقد عقد الزنام، واستمع النار، وحققت عليه كلمة العذاب، وتأهب لسوء الحساب، ومسحوق المآب، نسأل الله عز وجل أن يثبتنا بالقول الثابت في الدنيا والآخرة، ولا يعدل بنا عن الملة الحنيفية، وأن يزفنا مسلمين، بفضله ورحمته.

وهذا الخنجر صاحب عكة، المسمى عنههم بالملك، محجوب لليظهر، قد ابتلاه الله بالجناح، فجعل له سوء الانتقام، قد شغفتله بواها في صباح، عن نعييم نبيه، فهو فيها يشقي (وعذاائر الآخـرة) أشد وأبقى (٢٠). وحائجه وصاحب الحال عوضته خاله القوامس، وهو صاحب المجيب، واليه ترتفع الأمور، والمشرف على الجميع بالمكانة، والوجاهة، وكبر العلماء في الإفـرنجة، الامتنى، القوامس اللعين، صاحب طرابلس وطبرية، وهو ذو قدر ومنزلة عند الأفرنج، وهو المؤهل للملك والمشرش له، وهو موصوف بالدهاء والمكر. وكان أسيراً عند ذور الدين، نحو إثني عشرة سنة أو أزيد، ثم تخلص بمال عظيم بنزل في نفسه مدة صلاح الدين، وقد أول ولايته، وهو معترف لصلاح الدين بالعربية والعثما.

وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق، سهولة طريقها.
ورصد بقوافل البغال على تنين لعورتها وقصص طريبها، وبجيرة طبرية مشهورة، وهي ماء عذب، وسعتها نحو ثلاثة فراسخ أو
٩٣١٠

اربعًا، وطولها نحو ستة فراسخ، والاقوال فيها تختلف سعة وضعفيًا، وفيها قبور كثيرة، من قبور النبياء صلى الله عليه وسلم، واللهد، وروحيل، وابن سبئ زوج الكليم موسى، وغيرهم صلوات الله وسلامه [عليهم] أجمعين وجب الطرح منها قريب، وبين عكة وبيت المقدس ثلاثة أيام، وبين دمشق وبينه مسجد مسجد ثمانية أيام، وهو بين المغرب والقبلة من عكة إلى جهة الاسكندرية، والله يعيده إلى أيدي المسلمين، ويطهر من أيدي المشركين، بعزته وقدرته.

وهاتان المينتان، عكة وصرور، لا يسبتان حولهما، وإنما هما في بسيط من الأرض أرض، متصلى بسيف البحر، والفراء دجل البلاط، بينهما من بساتينهما التي بالقرب منهما، ولهما عماله متنفسة، والجبال التي تقرب منهما معمورة بالضباع، ومنها تجرب الأثورات، اليهما، وهما من غرب البلاد، ولعكة في الشرق منها، مع أخر البلاد، وأد يرسل ماء، ولها مع شاطئها، مما يتصلى بالبحر بسيط رمال لم ير أجمل منه منظر، ولا ميدان للخيل يشبها، وإليه ركوب صاحب البلد كل بكرة وعشية، وله يجمع العسكر، نمره الله، ولصوره عند يام الفريرة عين معينة، ينالها السماوات، والإجابة بها كثيرة لا تخلو دار منها، والله تعالى يعيد إليها وإلي إنها كلمة الإسلام بمنه وكرمه.

وفي يوم السبت الثامن والعشرين لجمادي الذكرى، والسادس لاقترن، صعدنا إلى المركاب، وهو سفينة من السفن الكبار، ومنة الله على المسلمين بالماء والرزاب، وبحار المسلمين مواضعهم بانفراد عن الأفرنج. وصعد نحن من النصارى المشرقين بالبغلبين، وهم حجاج بيت المقدس، عامي لا يحصى، ينتهي إلى أزيد من ألفي أنسان أراح الله من صحبتهم بعجل الإسلام، ومأمور السهيل والصنع الجميل، بمنه وكرمه لمعبود سواد. ونحن به مكتفون موفقًا، الريح، وكمال الوسط، بشيتة الله عز وجل.
شهر رجب الفرد، عرفنا الله بركته وينه

استهل هلاله ليلة الثلاثاء، بموافقة التماش السَّهَر أكتوبر،
ونحن على ظهر الصرف بمَرْكَ عكة منتظرون كمال وسطه، وإلقاء
باسم الله تعالى، وبركته، وجميل صنعه، وكريم مشهنته،
وتمام مقاتنا فيه مدة أثنتي عشر يوما، لدمع استقامة الريح.

وفي مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب، وذلك أن الريح الشرقية
لاتذهب فيها إلا في فصول الريح المُحرَّ، واليسوع لا يكون إلا
فيهما، والتجار لا ينزلون إلى عكة بالبضائع إلا في هتين الفصلين،
والمصر في الفصول المرمغي من نصفا بسِر، وفيه تتحرك الريح
الشرقية وتطول مدتها إلى آخر شهر ماية واكثر وأقل، بحسب ما
يقضي الله تعالى به، والصخر في الفصول المرمغي من نصف أكتوبر،
وفيّ تتحرك الريح الشرقيّة ومدتها أقصر من المدة الربيعية، وإنما
هي عندهم خِلاصة من الزمان، قد تكون خمسة عشر يوما، واكثر
واقل وماسو إلى ذلك من الزمان فالريح في غرابة تختلف، والريح الغربية
أكثرها دواما، فالسافرون إلى المغرب، والصقيبة، والبلاد
الروم، ينتظرون هذه الريح الشرقيّة في هذين الفصولين، انطلاقاً وعند
صادق قبجمان المدعو في حكمته، العجز في قدرته، لا الله سواء.

وكانا طول هذه المدة، التي اقتُم فيها على ظهر الصرف، نبيت في
البر، وتدفقت الصرف في الأحجار، فكانت صحراء يوم الخميس
العاشر لرمضان الذكور، ولاعثين عشر لأكتوبر، اقتُف الصرف، وكنا
على عادتنا في البر باثنين، ولم يحسن الهمار للروم بأيَّة السفر،
ففي علينا الحزم، ونستعي المشوي في إعداد الماء والزبد، وإن
لا يفقر الإنسان رحله، فأشجعنا الصرف لعين له ولا أثر.
فاكتبرتنا لحي السفاح، زورقاً كبيراً، له أربعة مجاميع، وأقنعنا نتبعه.
وكانت مخاطر عصم الله منها، فأدركتنا الصرف مُع العشي.
فحمنن الله عز وجل على ما من به، وكان أول ذلك اليوم يوم شدتنا في هذا السفر الطويل. وأخرجه والحمد الله يوم فرجنا، وله الحمد
والشكر على كل حال.

واتصل جرينا، والرياح المخافة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام. ثم
هبت علينا الرياح الغربية، دافعة في وجه المركب، فأخذ
رئيسه ومديره الرومي الجذوي، وكان بصيرا بصنعته، حاذقا في
شغف الرياسة البحرية، يراوغها تارة يمينا، وتارة شمالاً، طمعاً
أن لا يرجع على عقبه، والبحر في اثناء ذلك رهو (21) ساقن،
فلما كان نصف الليل، أو قريب منه، ليلة السبت التاسع عشر
لزوج المذكور، والسابع والعشرين لآذان، ترددت علينا الرياح
الغربية، فقصدت قرية الصارفي المعروفة بالاردمن، واقت نصفها
في البحر مع ما اتصل بها من الشراع، وعصم الله من وقوعها في
المركبة. لانا كانت تشبه الصواري عظماً وضخامة. فنبادر
البحريين إليها، وحبح شراع الصاريف الكبير وعلل المركب مس
جريها، وصيح بالبحريين الملازمين للهاشري المرتبط بالمركبة،
فقصدوا إلى نصف الخشبة الواقعة في البحر، وأخرجوها مع
الشعار المرتبط بها، وحصانتها في أمر لا يعلمهم إلا الله تعالى.

وشرعوا في رفع الشراع الكبير، وقاموا في الأردمن شراعا يعرف
بالدلون، وثبتا بليلة شبهاء. صلى أن وضع الصباح، وقدن الله عز
وجل بالسلامة. وشرعوا البحرية في اصلاح قرية أخرى، من خشبة
كانت معدة عنهم، والرياح الغربية على أول لجاجها، ونصح بين
الأياس والرجاء ترد، وحذبل حسن الثقة بجعلة صنع الله تعالى
وهنفلي لفظها، ومعهود فضله، سبحانه، هو أهل ذلك جلت قدرته،
وتناهت عظمته، إلا إله سواه.

وفي يوم الأربعاء الثالث والعشرين منه، تحركت الرياح الشرقية
نسيماً فاترا علياً، فاستبشرت النفوس بهار رجاء في نمائها.
وقتها، فكانت نفسها خائفة، ثم بعد ذلك غشي البحر ضباباً رقيقاً، سكنت له اموجه، فعاد كان صرح مBER من قوارة، ولم يبق للجهات الأربعة مع نفس يتنفس. ففيما لا عيين على صفحة ماء، تخاله العين سييئة لجين، كنا نجول بين سماء، ولهدا الهواء الذي يسميه البحريين الغليبي، وفي ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور، وهو أول يوم من ذويبر العجمي، كان النصارى عبد مذكر عندهم، احتفظا لى في إسراج الشمع، وكاد لا يخلو أحد منهم صغيراً أو كبيراً، ذكرنا وأثنا، من شمعة في يده، وتقدم قسوسهم للصلاة في المركب بهم، ثم قاموا واحدا واحداً لوعظهم، وتذكيرهم بسائر دينهم، والمركب يزهير كله أعلاه واسفله سجا متقدقة، وتمانيا على تلك الحالة أكثر تلك الليلة. ثم أصبحنا بجعل ذلك الهواء الساكن، واتصلنا بنا ذلك الى ليلة الإحد السابع والعشرين منه، فتحركت ربيع شمالية، فعاد المركب بها لجريته واستبهرت النفوس، والحمدلله....
من تاريخ عبد اللطيف البغدادي ورحلته
الخليفة الناصر

كان الناصر لدين الله شاباً مرحاً عند ميعة الشباش، يشع الدروب والأسوق أكثر الليل والناس يتهيرون لقياه. ظهر المشبع بسبب ابن الصاحب ثم انطفأ بهلاكه وظهر التسن المفرط، شمل زال وظهرت الفتوة والبندق والحمام الهوادي، وتفتت الناس في ذلك ودخل فيه الأجلاء ثم المولك، فأبلسوا الملك العادل وأولاده سراً وليل الفتوة وكذا السوا شهاب الدين الغوري ملك غزنة والهند وصاحب كيش واتباع سعد صاحب شيراز، والملك الظاهر صاحب حلب، وتخوفوا من السultan طفريل وجرت بينهم حروب. وفي الآخر استعدوا تكش لحرمه وهو خازم شاه فخرج في جحف لجب وتقق معه على الري واحتز رأسه وسربه إلى بغداد ثم تقدم نحو بغداد يلتمس رسوم السلطنة محركات عليه ارتفاع الخطأ فرجع إلى خوارزم وما ليه إن مات.

وكان الناصر لدين الله قد خطط لولده الأكبر مأمون نصر بولاية العهد، ثم ضيق عليه مما استشعر منه وعين أخاه، ثم أمر بناصربين يشحر على نفسه أنه لا يتحΙ وأنه قد نزل عن الأمير، وأكبر الأسباب في ذهور الناصر من وله هو الوزير تحقير الدين بن المهدي العليوي، فإنه خلي إلى الخليفة فسادًا ولم يبوجع كثيرة، وهنا الوزير أفسد على الخليفة قلوب الريفية والجند وبغضه البهم ولي المولك الأطراف وكاد يخلي بغداد عن أهلها بالإرهاب ثارة وصالقت تارة أخرى، ولا يقدر أحد أن يكشف الخليفة حال الوزير حتى تمكن الفساد وظهر، فقبض عليه برفقة.

ومن أثناء ذلك ظهر بخراشان وما وراء الين خازم شاه محمد ابن تكش وتجبر، وطوي البلاد واستيعد المولك الكبار، وتفتت بكثير منهم وأبدلاً مما كثيرة من الترك، فابلادًا الخطأ وأمة التدرك.
واساء الى باقي الامام الذين لم يصل اليهم سيفه، ورؤيته الناس كلهما، وقطع خطبة بني العباس من بلاده، واصبح بالوقعية فيهم وقصد بغداد، فوصل الى هندوان وبوادره الى حلب، فوقع عليه مثلاً عشرين يوماً فغطاه في غار ابنه، فأشاره بعض خواصه ان ذلك غضب من الله حيث يقصد بيت النبوة، والخليفة مع ذلك تجمع الجمهور وانفق النفقات، واستعد بكل ما يصل الملكة اليه وسره ان الله رده على عقبه، وقد سمع ان أمام التدرك قد تالبا عليه وتمموا في البلاد لابد اث عما فسدهم فسدهم، ثم كادوه وكادوه الى ان مزقوه في كل وجه، وابلوا له وشتواه شملهم، وكما عليه أقطار الأرض حتى ضاقت عليه بما رحب، وصار ابنه وجه سيئهدهم متحكمة فيه، فتقاذفت به البلاد حتى لم يجد موسعًا يحويه و لا صديقاً يؤويه فشرب وانجد واسهل وأبكر وأجل، واربع قد ملك له، فعند ذلك قضى عليه، قال: وكان الشيخ شهاب الدين لما جاء في الرسالة خطبه بكل قول وثباته ولا يزداد الا طغياناً.

ولم يزل الامام الناصر مندحة حياته في عز وجلالة وقمع الإعداء واستثمار على الملوك، لم يجد ضيما ولا خرج عليه خارج إلا قمعه، ولا خلاف إلا دمه، وكان من أسراره لسراً رماد الله بالخنادق وأباباه، وكان مع سعادة جده شديد الاهتمام بمصالح الملك لاحظه عليه شيء من احوال كبارهم وصغارهم، وأصحاب أخباره في اقطار البلد ينضرون الى احوال الملوك الظاهرة والباطنية حتى يشاهد جميع البلاد دفعة واحدة، وكان له حيل طفيفة ومكائد غامضة وخدع لايفطن لها أحد يوقع الصداقة بين ملوك متعاونين وهم لا يشعرون، ويوقع العداوة بين ملوك متفرقين وهم لا يفطنون.

قال: ولما اخذنا في نواذار حكاياته لاحتاجت لمصداقه كثيرة، ولا دخل رسول صاحب مازندران بغداد كانت تأتيه ورقة كل صباح بما عمل في الليل، فصار يبالغ في التكتم والورقة تانيته فاختي ليلة بامرأة دخلت من باب السر صاحبة الورقة بذلك وفيا، كان علينا دواج في صورة الأفيلة، فتحير وخرج من بغداد وهو لايشك أن
الخليفة يعلم الغيب لأن الأمامية يعتقدون أن الإمام المعصوم يعلم ما في بطن الحامل وما وراء الجدار، وأن رسول خوارزم شاه برائحة مخفية وكتاب مخومم قبل ارتجاع فقد عرفنا ما جعلته فبرع، وهذا يظن أنهم يعلمون الغيب. ووصل رسول آخر فقال الرسالة معي مشافهة إلى الخليفة فحبس ونفي ثمانية أشهر ثم أخرج وأعطى عشرة آلاف دينار، فنهب إلى خوارزم شاه وصار صاحب خبرهم، وسير جاسوسا يطلعه على أخبار عسكر خوارزم شاه لما توجه إلى بغداد وكان لا يقدر أحد أن يدخل بينهم الا قتلوا فابتدأت الجاسوس وشوه خلقته وأظهر الجنون وأنه قد ضاع له حمار فانسوا به وضحروا منه، وترد بينهم أربعين يوما، ثم عاد إلى بغداد فقال لهم مانعة وتسون ألفا إلا أن يزيدوا ألفا ويدفعوا ألفا.

وكان الناصر إذا أطمغ اشبع، وإذا ضرب أوجع، وله مواءطن بعطي فيها عطاء من لأي خاف الفقر، ووصل رجل معه ببغاء يقرأ قل هو الله أحد تحفة الخليفة من الهند، فأصبحت ميتة وأصبح حيران فجاء فراش يطلب منه البغاء فيك وقال الليلة ماتت فقال: قد عرفنا هاتها ميتة، وقال كم كان في ذنكن ان يعطيك الخليفة قال خمسمئة بيتار فقال: هذه خمسمئة بيتار خذها فقد أرسلها اليد أمير المؤمنين، فإنه جمعه حلال من خرجت منه وناء، وكان صدر جهان قد سار الي بغداد ومعه جميع من الفقهاء، وأخذ منهم ما خرج من داره من مهرجان على فرس جميلة فقال له أهله أو تركنتها عندها لتلا تؤخذ منه في بغداد، فقال الخليفة لا يقدر أن يأخذها مني، فأمر بعض الوقاتين أنه حين يدخل بغداد يضربه، وأخذ الفرس ويهره في الزهمة فالف، فجاء الكفبة يستغيث فلا يغاث، فلم يرجعوا من الحج خلع على صدر جهان وأصابه سوى ذلك الفقه، وبعد الفراق منهم خلع عليه وأخرج إلى الباب وقتلمه له فرسه وأعليه سرج وهم نهب وطوق، وقال له لم تأخذ فرسك الخليفة إلا أنني أ تخذه أخرى، فخر مغشيا عليه واستجل بكرامتهم.
قال الموفق عبد اللطيف: وفي وسط ولايته اشتكغل برواية الحديث، واستناب نواباً في ذلك، فاجرى عليهم جرائب وكتب الملوك والعلماء اجازات، وجمع كتاباً مب بينما حديث، ووصل على يد شهاب الدين الى حلب، وسمرة الثالث الظاهر وجماهر الدولة، وشرحته شرحاً حسناً، وسمره صحة شهاب الدين وسبب اعتقاله.
على الحديث أن الشريف العباسي قاضي القضاة نسب إليه تزوير، فانحضر القاضي وثلاثة شهداء فزع فرحة القاضي بأن حرك عندهم فقط.
وعزم الثلاثة أن يركبوا جمالاً ويطفظ بهم المدينة يضريون بالمئة، فمات واحد تلك الليلة، وأغرى ليس ليس الساسة ودخل بيتهم والثاني لزوم بيه وادعى وهو البدناني رفيقنا، فبعد مدة احتاج وأراد بد كتبته فتبين أحد الأجزاء فوجد فيه اجازة للخليفة من مشايخ بد فرعها فضل عليه، واخط مانه بنيار وجعل وكلاً عن أمير المؤمنين في الاجازة والتسامي.

وأقام سنين يراسل جلال الدين حسن صاحب الأمو تريراً أن يعبد شعار الإسلام من الصلاة والصيام وغير ذلك، مما رفعه في زمن سنان، ويقول إنكم إذا فعلتم ذلك كتبوا واحدة، ولم يتغير عليكم من أحوالكم شيء، ومن يروم هذا من هؤلاء فقد رام مثل العبوق، واتفق أن رسول خرازمن شاه بن تشوك ورد في أمر من الأمور فزور على لسانه كتب في حروف الملاحظة يشيط من الوضوء وعظم الإيقاع بهم وأنه سيخبر قلائكم، وبطل من الخليفه المعونة.
في ذلك، واحضروا مه من كان قاطعاً ببغداد ووقف على الكتب وأخرج بها، وكتب أخيري على وجه النصيحة نصف الليل على الريح، فاما وصل الأموت أرهبهم فما واحد مخلصاً لا اتظاهر بالسلام وإقبال شعاره، وسليروا إلى بغداد رسولًا مع مانة شاب، ومنهم ودائي كبار في منهجون وعليه الله الحمد ورسول الله، وطافوا بها في بغداد وجمع من حصل بها حسن الشهادتين، وكان الناصر لدين الله قد ملا القلوب أغير الخلافة، وكانت قد ماتت بموت المعتصم، ثم ماتت بموت، وقد كنت بمشر والشام في خلاف الملوك والأكابر، وإذا أرى ذكرنا حفظنا أصواتهم هيبة وإجلال، وورد
بغداد تاجر معه متباع دمياط النصب فالسماله عنه فانكر فاعطي
علامات فيه من عدد والوانه وأصنافه فاضزا إذ كانه، فقيل له: من
العلامات إذن نقمت على سماوك الكركي فلان فأخذته إلى سيف بحر
دمياط خاوة وقتلته ودفنته هناك ولم يشعر بذلك أحد.

أما مرض موته فهو وسنان بقي به سته أشهر ولم يشعر أحد من
الرعية ذكاء حاله حتى خفي على الوزير وأهل الدار، وكان له جارية
قد علمها الخط بنفسه، فكانت تكتب مثل خطه فكتبت على التواقيع
بمشورة قهرمانة الدار، وفي أثناء ذلك نزل جلال الدين محمد
خوارزم شاه على ضواحي بغداد هاربا منملال الرجال
والدواب فافسد بقدر ما كانت تصل يده إليه، وكانوا يقارونه
ولایمسون فيه أمرًا غريبة رأى الخليفة عنهم إلى أن راح إلى
أذربيجان ونهب في نهامه دفوفه واستباحها، وكانت خلافته سبعا
وأربعين سنة، توفي في سفح رمضان ووبيع لولده أبي نصر وافق
بالظاهرة بأمر الله، فكانت خلافته تسعة أشهر.

المستنصر

ROYI ABU JUFEER، وسار السيرة الجميلة وعمر طرق المعروف
القادة، وأقام شعار الدين ومنار الإسلام، ومعبسخاء وبناله،
واجتمعت القلوب على حبه والأستنة على منهه، ولم يجد أحداً من
المتعبة فيه معايا، قد اطروحا عليه، وكان جده الناصر يقربه ويحبه
ويسميه القاضي لعقله وهديه وذكراه ما يجد من الذكر، والناس معه
اليوم في بلهينة وعديدة مرضية، وسماه خوارزمبه يلتمس منه
سراوة الغفوة، فسير إليه فرس الدؤبة فسر بذلك وابنهم، وقيل
الأرض مروا شكرًا لله على هذه المنزلة التي رزقها وحرمها أبواه،
ثم إنه اذعن عن العبوبية والطاعة.

سنة ٥٨٦ هـ/١١٩٠ م
قال الموفق عبد الله الطيف إن الفرنج عاثوا في سوق العسكر، فرجع عليهم السلطان فطلحهم طنناً، وأعشي قتالاهم بأن غزروا في كل قتيل سهما ثم جمعوا الأسلحة، فكانت اثني عشر ألفا وخمس مائة، والذين لحقوا باصحابهم هلك منهم ثمانية وأربعين ألفا، وبلغت الغزارة عندهم مائة وعشرين دينارا، وخرجوا مرة فقال منهم ستة آلاف ونوفع، ومع هذا فصبرهم صبرهم، وعملوا على عكا بشرطين من خشب كل برج سبع طبقات باحشام عالية، وسامير هالكة يبلغ المسار نصف قطرها، وضابات على هذا القباب، ووضع كل برج منهما بالحديد، ولبس الجاود وضم اللجود المشرفة بالداخل، وجلب مشباك من حبال القدر لتزود حدة الموجذق، وكل واحد يعلم سور عكا بثلاث طبقات، وزحفوا بهما إلى السور، وفي كل طبقة مقاتل، فقبض المسلمون بعكا، فقال دمشقي يقال له ابن النحماس: دعوني اخترها بالمجانيق، فسمعوا منه قطاب قرأه أن يعكره من الآلات، ورمى البحار بجحارة حتى خلخلاه، ثم رماها بقرن نافذ شم صاح الله أكبر وعلا الدخان فنتج المسلمون وبرزوا من عكا وعملت النار في ارجائه والفرنج ترمى اسهمها من الطبقات واشتعلوا فاحرق المسلمون الستائر والعدد فانكسرت صوائمه، ثم اجتمع همهم وقوتهم وعملوا كما شاؤه رأسه قناطر من الحديد لينحوا به السور فيهتهم، ولهما سحبهم وقرب من السور ساع في الرجل اثلته وعجزوا عن تخليصه وكان المسلمون في عكا، في مرض وجوع قد ملوا من القتال ما يجعلهم سوى الائمان بالله، وقد هزم الفرنج برجا وبدنا، ثم سد ذلك المسلمون في الليل ووقتحوه، وكان المسلمون أول راكب وأخر نازل.

راضد الدين سنان

كان اخرج لحجر وقع عليه من الزلزلة الكائنة في دولة نور الدين، فاجتمع إليه محبوه على ما ذكره الموفق عبد الله الطيف، لكي يقتله، فقال لهم: لم تقاتلوني! قالوا: لترجع إلي إنا صحيحاً فانا ذكره أن
تكون فينا أعرج، فشكرهم ودعوا لهم فقال اصبروا على قيس هذـا وقت ولطفهم، ولا أراد أن يحلهم من الإسلام ويسقط عنهم التكافل لامر جاهه من الموت على معهد الكيا محمد نزل إلى مصبات في شهر رمضان فاكلك فيها فاكلا معه، واستمر امرهم على ذلك.

الملك العزيز

كان العزيز شابا حسن الصورة ظريف الشمايل قويًا نا بطلش وأيد وعفة حركه، حبيا كريمًا عفيفا عن الأموال والفروح، وبلغ من كرمه أنه لم يبق له خزانة ولا خاص ولا برك ولا فرح، وأما بيوته اصحبه فقليط بالخيرات، وكان شجاعة مقدما، وبلغ من عفته أنه كان له غلام تركي اشترى بالفدين، يقال له آيو شامه، فوقع على راسته خلوة فنظر إلى جماله فأمره أن ينزع ثابه وأجلسه معه مقعد الفاحشة، وأدركه التدفقات وتهض مسرعا إلى بعض سرارية فقضى وثره، خرج والغلام بجماله فأمره بالليسة والخروج، واما عفته عن الأموال فلا أقدر أن أصف حكاياته في ذلك.

الملك الظاهر

كان جميل الصورة رائج الملاحة موصوفا بالجمال في صغره وفي كبره، وكان له غور وشجاعة وكمكر، واعظم دليل على نهائية مقاومته لعه الملك العدل، وكان لأخيه يوما من خوف وشغف قلب، وكان يصادق المالك الأطراف وتبادلهم ويلطفهم ويومهم أن لا هو أقد كان العدل يقصدهم، ويومهم عمه أنه لا هو لم يقطع أحد من المالك ويأكله بالشفاق، فكان بهذا التدبير يستولي على الجهتين ويستعيد الفريقين، ويشغل بعضهم ببعض، وكان كريما.
متعاطي. يعمر الملوك بالتحف والرسل بالنحل والشعلاء والقصائد بالصلات، وتزوج بأبناء العائلات واتجاههم. ثم تزوج باختها وكان له عرس مشهور، وجاءته منه بالملاك العظيم في أول سنة عشر، وأظهر السرور بولادته، ونفعت حلب مزينة شهرين والناس في كل وشруб، ولم يتذكرها من أصناف الناس إلا أغاير الفهم والفهم، ووصلهم بالاحسان، وسير إلى الدارس والخوانك الفذ والدرب، وأمرهم أن يعملوا الزمان، ثم فعل ذلك مع الاجداد والعلماء والخدم، وعمل للنساء دعوة مشهورة أعاقت لها المدينة، وإما داهه بالقلعة فزنية بالجوهر وواحي النعمة الكثيرة، وكان حين أمر بحفر الخراب حول القلعة وجد عشرين نوبة فيها قطعاء بالحليبي، فعمل منها أربعين قوة بحقاقها، وحركها، وله الأكبر أحمد وخرج معه جماعة من أولاد المدينة، وقد لقى قائم فلم يقبل منها شيئاً رفقة بهم، لكن قبلاً قطة سمءن طفل ذراعين في نراق فقُذوها في الزين وأودوها حتى ذهب الزيت، وهي تترفع ببساطة فالجهاز بها عن جميع ما حرر، وكان عنه من أولاد أبيه وأولاده، مائة ومائتين وعشرين نفساً. وزوج الذكور منهم بالاناث، وعقد في يوم واحد خمسة وعشرين عقداً بينهم، ثم صار كل ليلة يعمل عرساً ويدخل في، وبيقي على ذلك سنة رجب، وشعبة، ورمضان، وكان بينه وبين سلطان الروم غزت الدين كيواكس بين كيخرس وصدارة موكية وصراعات، ومرض نيفاً وعمران بقية، وأوحي أن يكون الخدام طرف نذر القلعة، وأن يكون شمس الدين ابن أبي يعلى الموصل وزيراً كما كان، ولا يعرف أحد عن أمره، وسفين الدين بن جندر أتراك الجيشه، وكان القاضي باءه الدين بن شناد مسافراً إلى العدل بصر، فقدم بعد ثلاث فصل جميع ذلك بالتوكيد والخفة وأعانه مرض الوزير، فلم باع في الأمس، ومما بن جندر فنزل عن الاتراكية وجعلهما للملوك المتصور - يعني الذي كان تسلط بمصر بعد وفاة العزيز - قال: فربت أبا معا وعزة شم وله ثم عزوة غمر مرة وطاعت بهم الآراء، وكان قصصاً أن يكون الطواش شهاب الدين طغريب هو الاتراكية فسوا إلى أن تم ذلك، ثم
الملك العادل

كان اصغر الأخوة وأطولهم عمرا، وأعمقهم فكرأ، وأنظرهم في المواقف وأشدهم، وأهوجهم للهراهم، وكان فيه حلم واناقة وصبر على الشدائد، وكان سعيد الجد على الكعبة مقتراً بالإداء من قبل السماء، وكان أكولا نهما يحب الطعام، وأختلاف الأوانة، وكان أكثر أكله في الليل كالخيل، ولو عندما يلتزم الأكل رضيع، وكان رجل بالدمشقي خبير السكر يجعّل زوجته كالجوارش، وكان كثير الصلاة وصدام الخديس، وهو صدد في كثير من الأوقات وخاصة عندما تنزل به الآفات، كان كريما على الطعام يحب من يؤاثر، وكان قليل الأمراض، قال لي طبيبي بمصر: اكتب كن هذا السلطان، ولي لا يجوز لي الستوى يوم
واحد أحضر إليه من البطيش أربعون حملًا، فكسر الجميع بيده، وبايح في الأكل منه ومن الفواكه والمأكولات ففجرا له خمسة. فاصبح فاتح عليه يشرب الماء الحار وأدرك طولًا ففجأ وأخبر النهر تعشير وعاد إلى صحته، وكان ذاك رضي عنه أكثر مما كانه. اقتناه الساري، وكان غيورًا على خيره في الأكل، وكان يحب أن يطبل لنفسه من أن يكون في كل دار من ديار حظاها مطيب دائر، وكان عقيق الفرج لا يعرف له نظر إلى غير حالاته، نجب له لأولاده من الذكور والإناث سلطان الذكور وزوج البنات بمنزل الأطراف، آخر ماجري من ذلك بعد وفاته أن ملك الأزد كيقبد خطب إلى الملك الكامل أخته واحتفاظا عليهما شديدا، واجتمع في العرس لماك وملكات، وكان العادل قد أوقع الله بفضحته في قربئ رعاياها والخامرة عليه في قرب جنده، وعملوا في قلته أصناطف من الحيل الدقيقة مرات كثيرة، وعندما يقال إن الحيلة قد زيت تنفسخ وتتكشف وتحطم موالدها، وولا أولاده يتولون بلاده مما ثبت ملكه بخلاف أخوه صلاح الدين فانتسب حفظ ملكه بالحجة له وحسن الطاعة، ولم يكن رحمه الله بالنزلة المكرورة، وإنما كان الناس قدالفوا دولة صلاح الدين وأولاده، تغيير على المسنود دفعه واحدة، ثم أن وزيره ابن شكر بالغ في الظلم وتفظن، ومن نباته الجميلة أنه يعرّف حقاً الصحبة ولا يغني على أصحابة ولا يضجر، وهم عينيه في حضوة، ويباتب إلى خدمة أخيه صلاح الدين، يكون أول داخ ولأخار وبهذا خلد، فكان يشوارده في أمور الدولة ما جرب من ذوق رايه.

ولا تسلط الأفضل بدمشق والعزيز بمصر قصد العزيز دمشق، وننا خندده عليها شنادن فرحل عنها ثم حاصرها زاوية ثانية ومعه عم العادل، فما جاءه وعوض الأفضل بصرختين، ولم يزل العادل يفظ في الطرفة والنسان حتى أفرطه العزيز دمشق، وهي السبب في أن تماك البلاد كلها وأعطي ابن أبي الحجاج يعني كاسب الجيش ما جاءه بمشوراه المبنية، ثم دخى يقظة الحيلة حتى يستحي العزيز على مصر ويقيم هو بدمشق يتطلع في
بساتينها، ففطخت بعض أصحابه فرمى قلنسوته بين يديه وقال الملاك ملكوك بكتم ودعته بعد صلاح الدين بنحو شهرين فقتله الملاحة، وملك بعده هارون بن ملكوك وبنى قلناً ودعته، ثم، وكان بعده بكتم ودعته حيث السراوة في سفتية الأردن والمفسدون ونسوا له حقهم، فغادر الأخيار وملكوا عليهم بيلان مملوك شاء ارمن، وقدً ركوا بيده، وأخذ بنت بكتم زوجته بالملك المغيرة، فنشرن الفرساة بين قلناً اردن صاحب اردن الروم، وبين بيلان والمغيرة معاً ومتعارة، ولا يذكر جماعة يبية، فكانتا نعمة الملك الأخود بملكوك صاحب موارقين، فقصد خلاط فسار المغيرة لينصر بيلان فانكذه الأخود، وطمغ المغيرة في خلاط فانكذب بيلان، قتله ابن حرق بازار، وتملست المغيرة خلاف فحص لاهلها غين أن غمر ملكوك منعوه. ثم أنه قضى به عن
الإحسان الذي يضخمان ، وقال له بعض الأمراء ، إذا قدر الف
بناير وأنا ضامن بحصول البلد ، قال : اخفف أن لا يصل ويسع
مالي ففعموا أنه صغير الهمه ، فقتروا عنه وكأنه الأوحد فجاء
والكما ، ثم اختلفوا عليه ونكنوا قابل فيهم السيف ، وانهزمت
طائفة ، فقال لي بعض خواصه أنه قتله في مدة أسرة ثمانية عشر
الف نفس من الخواص ، وكان يقتلهم ليلا ببين يبه ويندون في
الأبار ، ومتواتر الا قلبا واختلت عقله ومات ، وتوهم أبوه أنه جن
فسير إليه ابن زيد المتوعد وصدقة الطبيب من دمشق ، وتملك خلطة
بعدها اخوه الأشرف.

ومات الظاهر قبله قسطين فلم يتهن بالملاك بعده ، وكان كل واحد
منهما ينتظر موت الآخر ، فلم يصب له العيش لأمراض لزمنه بعد
طول الصحة والخوف من الفنجر بعد طول الأمان ، وخرجوا إلى عكا
وتمعوا على الفور فنزل العدل قبلتهم على بيسان وخفى عليه أن
ينزل على عقبة فيق ، وكانوا قد هددوا قلعة كوكب وكانت
ظهراهم ، ولم يقبل من الجواسيس ما خبروه بما عزم عليه الفنجر
من الغارة فاغتر بما عودته المقربين من طول السلام ، فشفت
الفنجر عسكره على غرة ، وكان قد ألوى اليهم خلق من هؤلاء البلاد
يعتصمون به ، فركب مجد ورماح الفنجر في أطره حتى وصل دمشق
على شفا ، وهم بدخلوها فمنعها المعتمد وشجعها وقلل المصلحة أن
تقيم بظاهر دمشق ، وأما الفنجر فاعتقدوا أن هزيمته مكيدة فرجعوا
من قرب دمشق بعدما عاشوا في البلاد قتالا واسرا ، وعادوا إلى
بلادهم وقيدوا دمياط في البحر ونازلاها ، وكان قد عرض له قبل
ذلك ضعف وسعدة وصار يعتريهم الأدائي ، فلم يزعم الخيل
على خلاف العاده ونخله الرعب لم يبق إلا منه يسيرة ومات بظاهر
دمشق.

وكان مع حرصه يهين المال عند الشهداء غاية الإهانة
وبيده ، وشرع في بناء قلعة دمشق فقسم ابرجتها على أمرائه
والله ، وكان الحفرون يحفرون الخندق ويقطعون الحجارة فخرج
من تحته خرزة بثر فيها ماء معين، ومن نوادره ان عنتر العاقب بلغه
ان شاهدا شهد على القاضي زكي الدين الظاهري قضية
مذوته، فتكلم عنتر في الشاهد وجرحه، فبلغ العدل فقال: من
عابه عنتر الجرح، وتوضأ مرة فقال: اللهم حمسيني حسابة
بسيرنا، فقال له رجل ماجين: يا مولانا ان الله قد يسر
حسابة، قال: ويلك وكيف ذلك؟ قال انا حاسب فقل للمل كله
في قلعة جعبرف لم افرط في قليل ولا كثير، وكانت خزانته بالك sak شم
ذقلها الى قلعة جعبرف وبها ولد الملك الحافظ، فسول له بعض
اصحابه الحافظ فيها فأتاها الملك العدل ونقلها الى قلعة دمشق
فحصاتها في قضية المعظم، فلم يناعمه فيها اخوته، وقيل ان المعظم
هو الذي سوف لأخيه الحافظ الحافظ والمسلمان فقعل ولم يفت عن
مكينة لتراجع الأموال إليه، ثم ان أحدهم رفعه ام من دمشق
واستضيف امواله وحليهم، وشرع يضع على املاك دمشق
القطع والخروجات النشيلة، الخمس على البساتين، النمن على
المدرعات.

الوزير ابن شكر

هو رجل طوال تام القصب فخماري اللون مشرب بحمارة، له
طلاقة محبا، وحلاوة لسان، وحسن اخلاقه، وصحة بيئة، ذهباء
في هرج، وجب في طيشه مع رعوني مفرطة وحك لاتخذه ناره: ينتقم
ويظن أنه لم ينتقم، لا ينجو عن مه، ولا يقال له عذرا ولا إدانة
وبجعل الرؤساء كلام أعداءه، ولا يرضي لعود به دون الأهللاق
ولاتأخذه في نفسها رحمة ولا يتجأ في أخره، وهو من دميرة ضيعة
بضيرة مصر، واستولى على العدل ظاهرا وباطنا، ولم يمكن احدا
من الوصول إليه حتى الطبيب، وأي وكيك والظفر عليهم عيون
فلا يتكلم أحد منهم فضلا كلما خوفا منه ولما عزل نخل الطبيب
والوكل وغيرهما فانبسطوا، وبكوا وضحكوا فاعجب السلطان ذلك.
وقال: ما مهتمكم أن تفعلا هذا فيما مضى؟ قالوا: خوفاً من ابن شكر، قال فانها كتبت في حبس وانها لا تشعر، وكان غريزة إبادة أرباب البيوت وتقرير الأرامل وشرار الأفخاش، مثل الجمال المصري الذي صار قاضي دمشق، مثل ابن كسا البغدادي، والجده الهندي الذي وزر الأشراف، وكان هؤلاء يجتمعون حوله ويوحونه أنه كتب من القاضي الفاضل، بل ومن ابن العميد والصافي، وفي الفقهاء أفضل من ماك، وفي الشعر أفضل من المتنبي وأبي تمام، ويحاولون على ذلك بالطقاق والغاظ الأيمن، وحافلاً لا يأكل من الدولة، ولا فاساً ولظرف الأمان مفرطة، فإذا لا يعمره عظامه احتججته.

ولعلت له قضية العجلان فامركته أن يكتبها ويردها وقائها: لانسجحت أن تأخذ منه ورقاً، وكان له في كل بلد من البلاد الخلاف، أن يضيع أو أكثر في مصر والشام إلى حد، وبلغ مجموع ذلك مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار، وكان يكثر الإدلاع على العمال، ويسخط أباده وحواصيه، والعادل يتزعمه بكل ما يقدر عليه، وتكرر ذلك منه إلى أن غضب منه على حزنان، فلمما نشأ إلى مصر وغاضبه على عادته فاقره العادل على الغضب وأعرض عنه، ثم ظهر منه فساد وكثرة كلام، فأمر بتفتيش مصر والشام، فمسك أحد واحسن إليه صاحبها، فلما مات العادل عاد إلى مصر ووزر للكام وأخذ في المصادر، وكان قد عمر.

ورأيت منه جدًا عظيماً أنه كان لا يستثنى للفتوح ولا يخضع للذكوات، فمات أخوه ولم يتمتع، ومات أولاده وهو على ذلك، وكان يحم حمي قوية، وياخذ النافذ، وهو في مجلس السلطان يتفقد الأشغال ولا يدلي بجبه إلى الأرض، وكان يقول ما في قلبي حسيرة، إلا أن ابن البغدادي، يعني القاضي الفاضل — وما تمرغ على عتباتي، وكان يشتهى وابنه حاضر فلم يظهر منه تغيير وداراه أحسن مداورة، وبذل له إمولاً جمة في السر.

وعرض له اسهام دمور ورخية وأنهك حتى انقطع وبيت منه الأطباء، فاستدعى من جيشه عشيرة من شيوخ الكتاب فقال: انتهى.
الحاج لؤلؤ

كان شيخاً أرمياً في الإصل من أجناد القصر، وخدم مع صلاح الدين مقدماً للاستوكل، وكان حيدماً توجه فتحه وانتصر وغنم، ادركته وقد ترك الخدمة وكان يتصدّر كل يوم إثني عشر الف رغيف مع قدر الطعام وكان يضيع ذلك في رمضان، ويوضع ثلاثة مراكي كل مسرح – ركبت طلوعه عشرون ذراعاً مملوءاً طعاماً، ويندلع الفقراء أفواجاً وهو مشدود الوسط قائم، بطجة وبيده مغرفة، وفي الأخرى جرة سمن وهو يصلي صفوف الفقراء ويرقب الأثيوس الطعام، ويبدا بارجل الركين، بالنساء ثم بالصبيان، ومع كثرتهم لايزنحون لعلمهم أن المعروف يعمهم، فإذا وسعوا سباقاً سماطاً للاغنياء يعجز الملوك عن مثله، ولا كان صالح الدين على حران توجه فرنج الكرك والشوك لينشبوا في الجرحة الذهبية وينقلوه اليهيم ويخاذوا من المسلمين جعلاً على زيارته، فقام صالح الدين لذلك وقد ولم يسكته أن يتزاحم من مكانه، فأرسل إلى سيف الدولة بن منقذ نانه بمصر أن يجهز لولو الحاج فكلمه في ذلك، فقال حسبك، كم عدهم؟ قال: ثلاثمائة وألف كله لبطال، فأخذ قيوداً بعدهم وكان معهم طاقة من مرثرة العرب ولم يبق بينهم وبين المدينة إلا مسافة يوم فتدا ركهم وبذل الأموال فمالة إليه العرب فاعتصر الفرنج بجبيل عال فصعد
الأمير سيف الدين يازوج الأسدي

له قصة عجيبة، وهي انه كان به حمى ربع اقامت به سبع سنين، فلمما خسر حال السباح وضع بين ارجل الخيل وضرب بالدبابيس حتى اثمان، فاقعت الحال عنده.

أخو القاضي الفاضل

كان له هرس مفرط في تحصيل الكتب وكان عنه زهاء مائتي كتاب من كل كتاب نسخ

أبو الفضل محمد بن محمد بن بنان القاضي الكاتب

الأنباري المصري

كان رفيقا طوالا اسمع عنه أدب وترسل وخط حسن وشعر لا باس به، وكان صاحب ديوان مصر في زمن المصريين والفاصل ممن يغشي بابه ويمتدح ويفتخر بالوصول اليه، فلما جاءت الدولة الصلاحية قال القاضي الفاضل هذا رجل كبير القدر يصلح أن يجري عليه ما يكلفه ويجلس في بيته فعل ذلك.

ثم أنه توجه إلى اليمن ووزر لسفي السلمان، وارسله إلى الديوان العزيز، فعظم ببغداد وجعل، ولما صارت إلى مصر وجدت ابن بنان في ضنك من العيش شديد، وعليه ابن تقيل وأدى أمره إلى
ان حبسه الحاكم بالجامع الأزهر، وكان ينتقص بالقاضي الفاضل ويراه بالعين الأولى، والقاضي يقصر في حقه فيقصر الناس مراعاة الفاضل، وكان بعض من له عليه بين المجيب جاهلا، فصرع إليه إلى سطح الجامع وسنه عليه وقبض على لحيته وضربه، ففر وألقى بنفسه من سطح الجامع فتهشم، فحمل إلى داره وبقي الأيام، ومات، فسير القاضي الفاضل بجهازه خمسة عشر دينارًا مع وله، ثم إن القاضي مات فجاء بعده ثلاثة أيام رحمه الله.
الفصل الثاني

في حوادث سنة سبع وتسعين وخمس مائة

وبدلت سنة سبع مفقرة أسباب الحياة، وقد يديث الناس من زيارة النيل وارتفاعت الأسعار وأضحت البلاد واشعر أهلها البلاد وهرجوا من خوف الجوع، وضيوع أهل السواد والريفي إلى أماته البلاد، وانجلوا كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن، وتفرقوا في البلاد أين يسيب، ومارقوا كل ممزم، دخل على القاهرة ومصر منهم خارع عظيم، واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت، وعند نزول الشمس الحمر وبيء المحوا، ووقع المرض والموت، واشتد بالفقراء الجوع حتى اكلوا الميتات والجيف والكلاب والبحر والأرواح، ثم تداعوا ذلك إلى أن اكلوا صغار بني آدم كثيراً، ومعهم صغار مشويين أو مطبخين، فام加倍 صاحب الشرطة بإحرام الفاعل لذلك والأكل، ورأت صغيراً مشوباً في قفة وقد حضر إلى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهم ائهشت قراعناها، ووجد في رمضان بصر رجل وقد جرته عظامه عن اللحم فقل، وبقي قفصاً كما يفعل الطباخون بالغنم، وجعل هذا أعوز جائينس مشاهدها وذل تلك تطلبه ب بكل حيلة كان من أثر الأطلاع على علم التشريح.

وحين مانشل الفقراء في أكل بني آدم كان الناس يتناقلون أخبارهم ويفضلون في ذلك استغلالًا لأمره وتهجباً من وقوعه، ثم اشتد قرهم إليه وضربتهم عليه بحيث اخضذوه وفشعه ومعطية ومدخراً وتفننوا فيه، وفسخاً منهم ووجد بكل مكان من ديار مصر، فسقط حينئذ التعبج والاستبشاع، واستهجن الكلام فيه والسماع.
وأكد رأيته امرأة مشجعة يسحبها الرعاع في السوق، وقد ظفر
معها بصغير مشوي تأكل منه وأهل السوق ذاهبون عنها مقبلون
على شوؤنهم، لم أن فيه من يعجب لذلك، وذكره، فعاد تعبجي
منهم اشد، وما ذلك إلا أكثرهم تكرر مع اهتمامهم حتى صار في
حكم المئوف الذي لا يستحق أن يتعجب منه.

ورأيت قبل ذلك يومين صبيا نحو الرهائمشوي، وقاد خذبه
شابان اقترا بقتله وشيه واكل بعضه.

وفي بعض الليالي بعيد صالة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه
لبعض الياسير فيهما هو إلى جانبها اهتمت غفالتها عنه مساعدة
فبرقت بطنها وجعلت تأكل منه نينا، وحاكي لي عدة نساء أنه يزودر
عليهم لاقتناص أولادهن وبحامين عنهم بنجد.

ورأيت مع امرأة فظيما فاستحسنتها ووصليتها بحفظة فحكت لي
أنها بينما تدعي على الخليل أنقض عليها رجل جلف نازعها ولهما
فترمت على الولد نحو الأرض حتى أدركها فارس فطرده عنها،
وذاعت أنه كان يهم بكل عضو يظهر منه أن يأكله، وأن الولد بقي
منة مريضاً نشة تجاهه امرأة والمفترس.

ونجد أطفال الاقراء وسبعينهم من لم يبق له كفيل ولا حارس
منيشين في جميع أقطار البلاد، وأئمة الدروب كالجراح المتشو،
ورجال الاقراء ونساءهم يتصدرون هؤلاء الصغار وينذرون بهم
إذنما يعتر عليهم في الدرة وإذا لم يحسوا التحفظ، وأكثر ما كان
يطلع من ذاك مع النساء، وما أظن العلة فيه إلا أن النساء أقل حيلة
من الرجال، وأضعف عن التباعد والاستثمار، ولقد احترق بمصر
خاصة في أيام يسيرية ثلاثون امرأة كل منهن تقرر أنها اكثت جماعة
ورأيت امرأة قد أحضرت إلى الوايلي و في عقدها طفل مشوي
فضربت أكثر من مائتها سوط على أن تقرر فلا تثير جوابا بل تجدها
قد اخملت عن الطباعة البشرية، ثم سقطت فائت على المكان، وإذا
أحرق أكلًا صبح وقد صار ماكولا لأنه يعود شواء ويستغني عن طبخه.

ثم قسا فيهم أكل بعضهم بعضاً حتى تفاني أكثرهم، ودخل في ذلك جماعة من الياسين والمسعرين، منهم من يفعل حلاقة ومنهم يفعله استطاعة، وحكي لنا رجل أنه قد كان له صديق ادعى في هذه النازلة فدعاه صديقه هذا إلى منزله ليأكل عليه ما جرت به عهدهما قبل فلما دخل منزله وجد عنه جماعة علىهم رثاءة الفقر وبين أبيهم طبخ كبير اللحم وليس معه خبيز فرده ذلك وطلب المرحاض فصادف عنده خزانة مشحونة برعم الأدمي وباللحم الطري، فارتاع وخرج.

فاز.

ويرى من هؤلاء الخباث من يتصيد الناس باصناد الحبائل ويجتازونهم إلى مكابمهم بانواع المخالط وقد جرى ذلك لثلاثة من الاطباء ممن ينتابي، أما أحدهم فان ابيه خرج فلم يرجع، وأما الآخر فان امرأة أعطته درهمين على أن يصبحها إلى مريضة فلما توغلت به مضاف الطرق استراح وامتنع عنها وضععت عليها، فترك درهميها وانسلت.

وأما الثالث فان رجل استكشفه إلى مريضة في الشارع بوصفه وجعل في أشياء الطريق بصدد بالكسر ويقول اليوم يغتيم الشواب ويعمل الأجر، فذل هذا فلم يعمل العاملون ثم كثر حتى ارتفع منه الطبيب، ومع ذلك فحص الظن يزغابة وقفة الفنرفع عبده حتى ادخله دارا خريبة، فزاد استشعاره وتوقف في الدرج. وسواق الرجل فاستفز فخرج إليه ورفقه يقول له هل مع أبطالك حصل شيء، فصجز الطبيب لما سمع ذلك واتبعت نفسه إلى إصطبل من طاقة صادفها لمساعدته، فقام إليه صاحب الأصطلح يسأله عن قضيته فاختفا عنده خوفا منه أيضاً، فقال: قد علمت بأن اهل هذا المنزل بذبحون الناس بالخثت.

ووجد باتفيح عند عطار عدة خوابي مملوءة بلحم الأدمي وعليه...
الماء والملح فسالوه عن علة اتخانه والاستكثار منه ، فقال : خففت
إذا دام الجدب ان يهزل الناس ، وكان جماعة من الفقراء قد أودى
إلى الجزيرة وتستروا ببيوت طين يتصدون فيها الناس ، فظن لهم
وطلب لهم قتليم فهربوا ووجد في بيوتهم من عظام آدم شيء كثير ،
وحزنني الثقة أن الذي وجد في بيوتهم أعربع مائة جمعة ، وما شاع
وسمع من لفظ الوالي ان امرأة انتهى سافرة مدعورة تذكر أنها
قابلة ، وأن قوما استذعوها وقدموا لها صحنها وسكتها محكم
الصينة . مكمل التوابل فافتدت كثير اللحم مباينا للحم الممهد
فقتزرت منه ، ثم وجدت خذاء بيد صافية فسالتهم عن اللحم
قامت : إن فلادة السبيرة بدلت لتزورنا ففنجها أبي وهاي معلقة
اربا فقامت القابلة إلى الخزانة فوجدتها انابير لحم ، فلما قسمت
على الوالي القصة أرسل معها من هجم الدار واحده من فيها ،
وهرب صاحب المنزل ، ثم صانع عن نفسه في الخفية بثلاثائعة بدير
ليحن بذلك دمه .

ومن غريب ما حدث من ذلك أن امرأة من نساء الاجناد ذات شال
ويسار كانت حاملا ، وزوجها غايب في الخدمة ، وكان يجاورها
صعاليك فعندما رأحتسه لبيض فطعت منه كم من عادة
الحبلي ، فافتدت لهينا فاستلزتهم فزعموا انها نفذ فسالتهم عن
كيفية عمله . فاستروا عليها انها لحمام بني أم فواطين على ان
يتصبدها لها الصغار وتجل لهم العطاء فلما تذكر منا وضريت
وغبت عليها الطبع السلمية وشي بها جواربها خوفا منها ، فهجم
عليها فوجد عنها من اللحم والعظام ما يشهد بصحة ذلك ، فقبست
مقيمة وأرجى قتلها احتراما لزوجها ووضأ على الولد في جوفها .

ولو أخذنا نقص كل ما نرى ونسوّع لوقعنا في الثورة في الهجر
وجميع ما حكينا مما شاهدننا لم نقصمه ولا نتبغى مساراتنا وإنما
هو شيء صادفناه إتفاقا ، بل كثيرا ما كنت افر من رؤيته لشاعة
منظره .
وأما من يتجزأ ذلك بداره الفعلي فانه يجد منه إصافافاً تحضر مع
انهاء الليل والنهار. وقد يوجد في قدر واحد فتاة أو أكثر، ويجده في
بعض الأيام قدر فيها عشرة أينما تطبغ أكابر الفن، ويجده مرة
أخرى قدر كبيرة وفيها رأس كبير وبعض الأطراف مطمورة بقمع
واصناف من هذا الجنس تقوته الإحساء، وكان عند جامع ابن
طولون قوم ينطوفون الناس وقع في حيالهم شيخ كتب بين مسن
بيبغنا الكتاب فافقت بجريعة الذقن، وكذلك بعض قوام جامع مصر
في حياله قوم آخرين بالقراءة فتدركه الناس فخالص من الوهن، وله
خصائص، وأما من خبر عن أهلته فلم يرجم اليهم فخالص كثير.

وحكى لي من ذاك أنه اجتاز على امرأة بحرية وبين بديها مبت
قد انخفشت وانفجت وهي تأكل من افخارها، فانعكس عليها فزمعت أنه
زوجها وكثيراً ما يبغي الأكلان المأكل ولده أو زوجه أو نحو ذلك،
وهي مع عجوز صغيرة تأكله فاعترضت بان قاتاً فيها هو ولد ابنتي
وليس بأخليتي مني وإن كانا لنا خير من أن يأكله غيري، وأ شباه
هذا كثير جداً حتى أذكر لاجد أبداً في بياد مصر إلا وقد رأى شئنا
من ذلك، حتى أرباب الزوايا والنساء في خدورهم.

ومما ذاع أيضاً نبض القبور، وأكل الموتى، وبيع لحومهم،
وهذه الوباء التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ليس بل الأ
وقد اذك في الناس إكل ذريعاً من أسبان وقروص، والنفوم،
والحملة، والاسكندرية، ودمياط، وسائر الزوايا.

وخبرت بعض أصحابي وهو تاجر مسأمن حين ورد في
الاسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك، وأعجب ما تحكي لي أنه
عاين رؤوس خمسة صغار مطبوخة في قدر واحده بالتبولة الجيدة،
وهذا المقدار من هذا الاقتصاد كافاً وان كنت قد أسهمت اعتقاد
أتي قد قصرت.

وأما الاقتط والفتاك في النواحي فكثر فاش في كل فن ولا سيما
طريقي الهفوم والاسكندرية، وقد كان بطريق الهفوم ناس في مراكب

- 95 -
يرخصون الأجرة على الركاب، فإن توسطوا بهم الطريق ذبحوهم وتساهموا أسلوبهم، وظفروا الوالي منهم بجماعة فمثل بهم، وأقر ببعضهم عندما أوجع ضرباً أن الذي خصه دون رفاقه سنتة الأف بينه.

وأما موت القراء هـ راً وجَـوَـحاً فأمار لابيـطِيْ عَـلَّمـهُ إلا الله سبحانه وتعالى، وإنما ذكر منه كالأنموذج يستدل به اللبيب على فضاعة الأمر فانثنا بمصر والقاهرة وما تأخر ذلك أن المشتاق أين كان لا يزال يقع قدمه أو يبحر على ميت، أو من هو في السيّاق، أو على جمع كثير بهذه الحال، وكان يرفع من القارة خاصة إلى الميّظاء كل يوم ما بين مائة إلى خمس مائة، وأما مصر فليس لدوها أحد ويرمون ولا يورون ثم يذكر عجز عن رمسيهم فبقوا في السراوق وبين البيوت والكاكين وفيها، والبيت منته قد تقطع وال giận فيه، والشوارع والخباش والمنحدر، وأما الضواحي والقرى فأنه هلك أهلها قاطبة إلا مأشاه الله، ويعتمد انجلي عنها اللهم الا الأمهات والقرى والكبار كما يقول الأشمونان والمحلة ونحو ذلك ومعه هذا أيضاً فلم يبق فيها إلا نحلة القسم، وإن المسافر ليمير بالبلدة فلايجد فيها نانج ضريء، وتجد البيوت مفتنة، واهلها موتى مقتابلين، بعضهم قد رم وبعضهم طري وربما وجد في البيوت أثاثه وليس له من يأخذه، حديثنا ذلك غير واحد كل منهم يحكي معيضه به قول الآخرين، قال أحدهم: نخيلنا مدينة قلم نجد فيها وحولنا في الأرض ولا في السماء، فتخلتنا البيوت فانضفنا أهلها كما قال الله عز وجل: (جعلناهم حسناً خامدين) (الأنبياء 15، أفتح من كله)...

دار موتي فيها الرجل وزوجته وأولاده، قال ثم انطلقنا إلى بلد آخر، ذكر لنا أنه كان فيه أربع مائة دكان لبيع الحياكة فوجيناها كثيرون مصيداً في الخراب وان الصابق في بير حياكة ميت وأهله مصدراً، فحضرنا قول الله تعالى (إن كنت لا صحة واحدة فذا هم خادمون) (يس 29) قال: ثم انطلقنا إلى بلد آخر فوجدناه كاذِي قبّه ليس به أئتم، وهو مشحون بموتي أهله، قال: واحتجنا إلى الإقامة به لاجل الزرع فاستجرنا من ينقل الموتى...
 مما حولنا إلى النيل كل عشرة بدرهم، قال: ولكن قد بذلت البلاد بالذنب والمضاعب ترتع في لوحهم أهلها، ومن عجيب ما شاهدت أنى كنت يوما مشكل على النيل مع جماعة فاجتاز علينا في نحو ساعة نحو عشرة مونى كأنهم القرب المذوق هذا من غير أن تقتصد رؤيتهم ولاحظنا بعرض البحر، وفي ذلك اليوم ركبنا سفينة فتناولنا إشاع الورئ في الخليج وسائر الشطوب كما شهبه ما بين حجر باتابيش للنصير. وخبرت عن صيد بفروضه تدنس أنه مربى في بعض نهار أربع مائة غريق يفظف بهم النيل إلى البحر الملح، وأما طريق الشام فقد تواترت الأخبار أنها صالحة مزرعة لبني أدب بلال محصنة، وإنها عادة مادبة بلحوهم للطير والسباع، وأن كل بنيهم التي صحبتهم من منتجهم هي التي تأكل فيهم، وأول من هناك في هذه الطريق أهل البحيرة عندما اندفعوا إلى الشام وانثروا في هذه المسافة مع طولها كالجارود المحسوس ولم تزل تواصلكم ملكهم إلى الآن وانتهى اتجاعهم إلى الموصل وبغداد وضياسان وإلى بلاد الروم والغرب واليمن ومزقو في البلاد كل مقر، وكثير ما كانت المرأة تتملص من صببها في الزحام فتضررون جوعا حتى يموتوا، وأما بيع الاحراق لفعلا وساع عند من لايراقب الله حتى تباع الجارية الحسانة بدرهم معدونة، وعرض على جاريتين مراهقتين بينبران واحد، ورايت مرة أخرى جارية احدهما بكر ينادي عليها أحد عشر درهما، وسالنتي أمرا أن اشترى ابتنتها وكأن جميلة دون البلوغ بخمسة دراهم فعشرتها أن ذلك حرام، فقاتت جذلها حتى، و착را ما يبتغي من النساء والرجال الذين قبضها بهم صاحبة على الناس بأن يشتروها، وأبيعهم، وقد استحل ذلك خلق، عزيم، ووصل سبيلهم إلى العراق وأعمال خراسان وغير ذلك، وعجب من جميع ما أقصصناه أن الناس متحوطون هذه الآيات عاكفو على أصنام شهوتتهم لا يرعون، منغمون في بحر ضلالتهم كانوا هم المستثنون، فمن ذلك اضطروا بيع الاحراق مهجرا ومكتسبا ومنه عزالهم بهؤلاء النسوة حتى أنهم من يجمعون أنه افتضح خمسين بكرا، ومنهم من يقول سبعون كله بالعكس، وأما خراب البلاد والقرى وخزا المساكن والدكاكين فهو مما يلزم.
هذه الجملة التي اقتصصناها، وناهيك ان القرية التي كانت تشمل
على زهراء عشرة آلاف نسمة تمر عليها فتراها دمنة وربما وجد فيها
انهار وبسما لم يوجد واما مصر فخلا معظمها، واما بيوت الخليج
وزياق البركة وحبل والمقص وما تأخ ذاك فلم يبق فيها بيت مسكون
استناداً بعد ما كان كل قطر منها قدر مذينة في زحف الناس، حتى
أن الرعي والمساكن والدكاكين التي في سرة القاهرة وخيرتها
اكثرها خالى خراب، وان ربما في أعمر موضع بالقاهرة فيه نافذ
وخصوص بيتا كلا خالية سوى أربعة بيوت استكنت من يحرس
الموضوع. ولم يبق لأهل المدينة وقود، تناثيرهم وفراهم ويوثهم
بالنسبة للكافة الأفراش والزروب، وما يعيش من العجب أن
جعل من الذين مازالوا محبوسون يختبئوا في دنيهم هذه السنة،
فإنهم من أثرى بسبب متجره في الفنوج، ومنهم من أثرى بسبب
انتقاله بالرث، ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معرفة قتبارك
من بينه القيصر والبسط وكل مخاوف من عنايته قسط.

وأما خبر النيل في هذه السنة فإنه احترق في برمودة احترافا
كثرى وصار التقياس في ارض جزر وانكسر الماء عن نحو الجبزة،
وظهر وسطه جزيرة عظيمة طويلة ومقطوعة طولية، وتغير الماء في ريحه
وطعمه ثم تزايد التغير، ثم اكتشف اجساده عن خضراء طحلبية كلما
تطاول الأيام وظهر وكثيراً كثيروه ظهرت في، وبين السد المنفلتة
الخالية، ولم تزل الخضر تتزايد على الأثر شعبان، ثم تناقصت الى
ان تفدت وفوق في الماء اجزاء أنابية مبنية فقط، وطاب طعمه
وريحه. ثم أخذ في رمضان ينمو وتقوي جريته الى اليوم السادس
 عشر من فقس فيه ابن أبي الرداد قاع البركة فكان ذراعين، واتخذ
في زيادة ضعيفة اضعف منها من السنة الفائقة، ولم ير في زيادة
ضخمة الى ثامن ذي القعدة وهو السابع عشر، ومن مسيرة فزارد
اصيحا، ثم وفق ثلاثة أيام فاقت الناس بالبلد، واستسلموا للهلكة
ثم أخذ في زيادة قوية اكثرها ذراع الى ثلاث ذي الحجة وهو
السادس من توت فبلغ خمسة عشر ذراعا وست عشرة اصيحا، ثم
انحرت من يومه وانهزم على فوره ومنى بعض البلاد حته القسم.
فكانما زارها طيف خياله في الحكم. وإنما انتفع به ماكان من البلاد مطمئناً فأروى المنخفضات كالغربية ونحوها غير أن القرى عالية عن فلاحتها بحراً فهؤلاء كما قال الله تعالى ( فاصبحوا لجيران الأمساكهم ) (الاحتفاظ 25) وإنما ارباب الجدات يجمعون شذاتهم ويلتقون أفرادهم. وقد عز الحراث والبقر جدا، حتى يباع الشور الواحد بسبعين ديناراً والهزليل بدون ذلك، وكثير من البلاد ينحصر عنها الماء بغير حقة ولغير وقته إذ ليس بها من يمسك الماء وينبسط فيها فتبرر لذلك مع ريها، وكثير مما روي في مور لعجره عن تقاوته والقيام عليه، وكثير مما زرع اكلته الدودة وكثير مما سلم منها الضوؤ وعطب بنهبها سعر الخميج في هذه السنة خمسة دنانير الاردب والغول والشعر بارية دنانير، وأما بقصص الأسكندرية فبلغ ستة دنانير، ومن الله سبحانه يرجى الفرج، وهو المتيح للخير بمنه وجوده.
الفصل الثالث

في حوالى سنة ثمان وتسعين وخمس مائة

ودخلت هذه السنة والاحوال التي شرحناها في السنة الخالية على ذلك النظام، ف وقعت الحروب والفقراء لاقتلهم لا أرفاق الأسباب الموجب، وتناقص أكل بني أم تم انقطع خبره اصالة، وقل يخطف الأطماع من الأسماواق، وذلك لفقر
الصعاليك وقتلهم من المدينة وانتحال الأسعار حتى عاد الارد،
بثلاثة نفاين اقتصائد الأكلين، فانقرعت الخالق، وخفت المدينة بأملها،
واختصرت واقتصر جميع ما فيها على تلك النسبة، والفئات
الغلياء واستمروا على البلاء حتى عاد ذلك كانه مزيج طبيعي، وحكي
لي ان كان بمصر تسعة مائات منسج الحصر، فلم يبق الا خمسة عشر
مسجحا، وقس على هذا سائر ما جرت الحالة ان يكون بالدينة من
باعة وخبراء عالقان، وأسماك وإخبار وخبراء وغير ذلك من
الخصائيين، فانه لم ين科尔 من كل صرف عن هؤلاء الا نحو ما بقي من
الصعاليك، واقتصر على ذلك، وما الرجوع قدم رأساً لولا انه جاب
منه شيء من الشام، وحكي لي ان رجل مصرى شارف الفقر فانهم
استر في الشام دجاجاً بستين ريساً وباءها بالقاهرة على
القاطنين بحور ثماني مائات ريساً، ولا وجد البعض بيع بضرة
برورية ثم بيع فينهم ثم ثلاث شام ارتعبا واستمر على ذلك، وأما
الأفراد فيبيع الفروج بثمرهم وابو بازة يبيع الفروج ببئار
خصاها، وما الأفراد قاما توقد باختبار الدور فيشتري الفرائ
دار بالثمن والبكس، وقعد روبه وأخذه بهما، ثم يشترى آخر
وربما كان فيهم من تشتتهن ذاته فيخرج لولا يجوس خلاف البيان
فيخطبه ولا يجد ذاهباً وربما تقهقق الدار بمائلاً ولا تجد لها
مشترية فيفصل اخشابها وبلاه بها وسائر اثارتها فيبيعها تم يطرحها
مهدومة وكذلك أيضاً يفعلون بدور الكراء، وأما الهلالية ومعظم الشارع ودور الخليج وحارة الساسة وأبلقس وما تأخير ذلك فلم يؤقت فيها انيس، وانما ترى مساكنهم خارجة على حروشها، وكثيراً من أهلها مرتز فيها، ومع ذلك فالفقارة بالقياس إلى مصر في غاية العمارة وأهلها في غاية الكثرة، وأما الضواحي وسائر البلاد فبباب رأساً، حتى أن المسافر يسير في كل جهة أياماً لايسحاج حيواناً إلا الرمية ما خل البكلاء الكبار كثيرون وخدمي وحارة ومياء والاسكندرية فإن فيها بقايا ما عدا هذه وأمثالها فإن البلد الذي كان يحتوي على الوقف خال أو كالخالي.

وأما املاك ذوات الأجر المعتبر فإن معظمها خل ولم يبق داب أهلها إلا حراستها بسعى أبواها وتحصين مساكنها أو أسكادها من يحرسها باجرة، اللهم إلا ما كان من ذلك في قضية الديننا فإن بعضه مسكون باخف أجرة، وأعرف ربعاً في آخر موضع بالديننا كانت أجرته في الشهر مائة وخمسين ديناراً، فعادت في هذه السنة إلى نحو عشرين ديناراً، وأخر في مثل موضعك كانت أجرته في الشهر ستة عشر ديناراً فعادت إلى فوقين الديان، وجميع مال يذكره على هذا القياس اقحه، والذي ندخل تحت الأصحاء من الموتى من كان وجرى له اسم في الديوان وضمتها المياسة في سنة اثنين وعشرين شهراً والجوار ثمانية عشرين سنة وتسعين، رجب ومن سنة ثمانية وسبعين وتسعين مائة ألف ذسم واحد عشر ألفاً أحاداً، وهذا مع كثرة نزل في جنوب الدين هلكوا في دورهم، وفي أطراف الدين وصول الحيطان، وجميع ذلك نزل في جنوب من هاك مصر، وما تاخذه، وجميع ذلك نزل في جنوب من أكل الشبقين وذلك نزل جزء في جنوب من هاك أو أكل في سائر البلاد والرحاوية والطرقات، وخاصة طريق الشام فإنه لم ير أحد من ناحيته فساؤته على طريق إلا ذكر أنها مزروعة بالأشلاء والرمم، وهكذا وهكذا ما ساعدتها منها.

ثم إنه وقع بالفروع والغربية ومياء والاسكندرية موتان عظيم ووبار شديد، ولا سيما عند وقت الزراعة فعلاه يموت على المحراث.

- 101 -
الواحدة فلاحين، حكي لنا أن الذين بذروا غير الذين حْرَثوا، وكذلك الذين حصدوا، وباشر زراعة لبعض الرؤساء، فأرسل من يقوم بأمر الزراعة فجاء الخبر بموتهما جميعين، فأرسل عوضتهم.

فمات أكثرهم هكذا مرات في عدة جهات.

وسعنا من النكتة عن الاستكرارية أن الإمام صلى الله عليه وسلم بال العامة على سبع مائة جنازة، وأن تركة واحد أنتقالت في مدة شهر إلى أربعة عشر وارثاً وأن طائفة كبيرة من أهلها تزيد على عشرين الفا انتقالوا إلى بركة وأعمالها فسموها وقطنوها وهي بركة كانت مملكة عظيمة وخرجوا في زمن البايزوري، وعلى يديه وكان وفيراً نظراً، فجأ عنها أهلها وسكت كثير منهم باستكرارية وكان هذا الحادث تفاعلاً في الطبيعة.

ومن عجيب ما اتفق لشيخ من أطباء يهود مصر ممن يشتكي

سوي من سبق ذكرهم أن استدعاه رجل من زوجته ذو شارة وشهيرة بستر وذين وجدة، فما حصل في المنزل إلا اغلب الباب ووضح عليه فجعل في عقده وفقاً، وضربه المريض، غير أنه لم يكن لهما مععركة بالقتل فطالت المناوشة وعلل شجيه قفساً مع ودخاو فخلصوا الشّيخ مرثنا وله رموق وسير، وقد وجّهت خصائصنا وذكرت شبّتحاء وحمل إلى منزل مغشي عليه، وأحضر الفاعل إلى الوالى فسأله ما حملك على ما فعلت؟ فقال: الجوع فاستضفي ونفاه.

واتفق سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان وهو الخامس والعشرين من بشتاس أن حدثت زلزلة عظيمة اضطرب لها الناس، وهبوا من مضايعهم مدهوشين، وضجوا إلى الله سبحانه، ولبثت مدة طويلة، وكانت دحركتها كالعريرة أو كشف جناح الطير، وانتفعت على ثلاث رجفت قوية مادت بها الأنبية وأصبحَت الأدوات، ومرسَت السقف والأخشاب وتداعى من الأنبية ماكان مهدفاً أو مشرفاً عاليًا ثم عاودت في نصف كحرة يوم الاثنين إلا أنها لم يحس بها أكثر الناس لخفائها، وقصر زمنها وكان في هذه الليلة
أبرد شديد يحوج إلى دثار خلاف الجابة، وفي نهار ذلك اليوم تبدل
بحر شديد ومسموم مفرط يضيق الأنفاس يأخذ بالظلم، وقاما
تحدث زلزال بمصر بهذه الليلة.

ثم اختبى الأخبار تدواتر بحدوث الزلزال في النواحي النائية
والبلاد النازحة في تلك الساعة بعيونها، والذي صبح عندي أنها
حركت في ساحة واحدة طائفة من الأرض من قوس إلى دمياء،
والأسكندرية، ثم بلاد الساحل بأسرها وأشباه طولا وعرضًا،
وعرفت بلاد كثيرة بحيث لم يبق لها إشر. وهكذا من الناس خلق
عظام، وأمام لاحق، ولا اعرف في الشام بلدا أحدن سلامة من
القناة، فإنها لم تظل منه إلا ظلال له، وكانت ذكاة الزلزال في بلاد
الفرنج أكثر منها في بلاد الإسلام كثيرا وسمعت أن الزلزال وصلت
إلى الخليج والا جزيرة قبرس وأن البحر رقعت وتندو،
وتشوهت مناظره فانفرقت في مواضع، وصارت فرقة كالإلهاء،
وعادت المراكب على الأرض، وقذف سما كثيرة على ساحلها.

ثم وردت كتاب من الشام ومن دمشق وحماة تتضمن خبر
زلزال، ووصفت بي كتابان، وردتهما بشفافة، ونسخة الكتاب
الوارد من حماة، ولما كان اسم يوم الاثنين السادس والعشرين
من شعبان، حدثت زلزال كانت الأرصفة سيرًا والجبال تمر
مرورًا، وما من أحد من الخلق إلا أنها زلزال الساحة، واندفعت
في ذلك الوقت، أما الدفة الأولى فاستمرت ساعة أو أبدا عليها،
أما الثانية فكانت دنياها، ولكن أشد، وتتأثر منها بعض الملاع
فأولها قلعة حماة مع اقتحامها ومسارتها، وبارونينها
وتطأتها، ومعاليها، ولم يرد على البلاد الشاسعة
الفلاح الباقح إلى الآن ما أذكره، ثم حدث في يوم الثلاثاء السابع
والعشرين منه صلاة الظهر زلزال استوي في عمها البؤس،
والنائم، وتزعزع لها القاعد والقائم، ثم حدثت في هذا اليوم أيضًا
وقت صلاة العصر، ووصل الخبر من دمشق بإن الزلزال أسفدت
فيها منارة الجامع الشرقية وآكثر الكلاسة والبيمارستان جميعه، 
وعدة مساكن تساقطت على أهلها فهاكفوا».

نسخة الكتاب الوارد من دمشق: «والمملوك ينهى حدوث زلزلة ليلة
الاثنين سادس وعشرين شعبان، وقت انفجار البحر، وأقامت مدة
قال بعض الأصحاب أنها مقارا سورة الكهف، وذكر بعض
الشياخ بدمشق أنه لم يشاهد مثلها فيما تقدم وما خرجت في البلد
سقوط ست عشرة شرارة من الجامع، وأحد压制 الموانع وتضايق
أخرى، وقفة الرصاص، يعني النسر وانكسار الكلاسة مانع فيها
رجال، ورجل آخر على نابجورون وتشغقة بالجامع موضع
كثيرا، وسقط بالبلد عدة أدرار، وذكر عن بلاد المسلمين أن بانياس
سقطت بعضها، وصف كذلك، ولم يبق بها إلا من هكاك سوئي
السمرة، وذكر أن الهدم سالم والحمد لله.

اما بيت جن فلم يبق منه ولا أساس الجدران إلا وقداتي عليه
الخسف، وكذلك أكثر بلاد حوران غارت، ولم يعرف بلدها
وضع يقال فيه هذه القرية ثلاثية، وبيقال أن عكة سقطت أكثرها
وصور ذنها وعرقه خسف بها وكذلك صايفتة وأما جبل لبنان ففيه
وضع يدخل الناس إليه بين جبلين يجمع منه النبات الأخضر
فيقال الجبلين إنٹرنا على من بينهما، وكانت عتمة تناظر مائتي
رجل، وقد اكثر الناس في حدثها، وقامت بعد ذلك أربع أيام
تحت في النهر والليل، ونسال الله لطفه وتدبيره وهو حسبنا ونعم
الوكيل.

ومن عجيب ما شاهدنا أن جماعة من بنائه في الطاب وصوا الى
كتاب التشريع، فكان يسر أفهامهم وفهمهم لقصور القول عن
العيان فاختبرنا ان بالإمساك تلاعليه رضم كثيرة فخرجنا اليه فأتينا تلا
من رم له لمسة طويلة في كاد يكون ترائه لأق من الموتى. ببحدس
ما يظهر منهم للعيان بعض الفتاوي دعا وهم على طبقات في
قرب الهد وبعده فتشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية
اتصالها وتناسيبها وأوضاعها ما أقاتنا علماً لانسقيفية من الكتب،
وأما أنها سكت عنها ولا يفي لفظها بالذاتية عليه، أيكون مما
شاهدناه مخالفة لما قبل فيها، والحس اقوى دليل من السمع، فإن
جالينوس وإن كان في الدرجة العليا من التحرير والحفظ فيما
يباشره وبحكيه، فإن الحسن اصدق منه، ثم بعد ذلك يخيل لقوله
نخرج أي امكن ذلك عظم الفلك الأسلف فان الكل قد اقابله على انه
عظامان بمفصل وثقب عند الحذاء، وقناة الكل انما نعمه بهما
جالينوس وحده هو الذي يأتي التشريع بنفسه جعله حرام، ونصب
عينيه وصُنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا، والباقي لم يخرج
إلى لسان العرب، والذي شاهدنا من حال هذا العجب في عظام
واحد ليس فيه مفصل ولادر اصلا، واعتبرنا مشاهد الله
المرات في أشخاص كثيرة تزيد على القلق الجمجمة باصناف من
الاعتبارات فلم نجد إلا عظما واحدا من كل وجه، ثم انا بجماعه
متفقون اعتبروه بحضرتنا كفيه، فلم يذهبوا على ما شاهدناه
منه وحينها، وكذلك في أمثال آخر غير هذه ولفن مكتننا المقدار
بالمساعدة وضعنا مقالة في ذلك نحكي فيها ما شاهدناه وما علمناه من
كتب جالينوس، ثم اني اعتبرته هذا العظم بداعي ووصير القديمة
المقدم ذكرها فوجدته على ماحكون ليس فيه مفصل ولا درز ومن شأن
الدروس الخفيفه والمقاصل الوثنية انا تقادم عليها الأملان ان ينصرف،
وتتفرق وهذا الفلك الأسلف لا يوجد في جميع احواله الاقتصادية واحدة،
واما العجز فقد ذكر جالينوس أنه مؤلف من ستة اعظام ووجدته لانا
ظلماؤه واحدا، واعتبرته بكل وجه من الاعتبار ميتوبة عظما واحدا،
ثم اني اعتبرته في جيئة أخرى فوجدته ستة اعظام كما قال جالينوس،
وكذلك وجدته في سائر البكت على ما قال الا في جزئين فقط فانه
وجدته فيما عظما واحد وهو في الجمع موضع المقاصل ولمستواقا
بذاك كما الاوان ذات باتحد عظم الفلك الأسلف، ثم انه نماي صغر
فرأينا فيها دروب وأسواقا عظيمة كانت مغتصبة بالزمام، والجميع
خال لبس فيه حيونات الا عابر سليل في الاخائيين، وإن الممار فيها
لستوحش، ومع ذلك فلما يذكى قطع منها عن جثه أو ظلام
متبقرة، حتى خرجنا الى موضوع يسمى اسقرجة فرعون، فرأينا
الاقطار كلها مغتصة بالجثث والرمل وغلبت على الآكام بحيث جالتها وكادت تغلب تمامًا —ربما، وراينا في هذه الأسكرة، وهي وحدة عظيمة حينما الشرفنا عليها الجماجم بيضاء وسوداء وذكنا بعضها على بعض طبقات، وقد تخفض كفريتها وتراكها سائر العظام، حتى كان بها رؤوس لم يكن معها أبدان يشبهها من ينظرها ببطيخ قد قطع وجمع. حتى صار كالبيرد شم رايتها بعد أيام وقد حرقت الشمس وأبيضت فشحتها بيض النعام الارتباك، ونما رائتين خلو تلك الحارات والاسواق من الناس وامتلاء تلك الصحاري والأكام خلالي أنه سفر ارتجل فاحلى مكانا وغفل آخر، هذا مع أنه أي جهة نماها القاصد صادف فيها ما حكينا واضعافه، ووجدنا في قلبه جمة بسمر امرأة ذبحت صبيا لتشكله، فاخذت عرفت وقد ارتفعت هذه الحال وانقطع خبرها ومشاهدتها، ولم يجد سوى هذه المرأة.

ومن عجيب الكائنات في هذه المدة ان مولودا في سنة سبع وتسعين ولد براسين، وولد مولود آخر أبيض الشعر، ورايته وليس هو كيام الجبب بل يميل إلى صهونية ما، وولدت في السنة بغلة ولدنا ميتا، وبقي في دار الولاي اماما كثيرة.

وفي سنة ثمان وتسعين وجدت سحالة ذات لبن كان يخرج من حلمتها كانه خط دقيق وأحضرت بدار الولاي مرات، واخيرًا احضرت وعمرها أربعة أشهر.

واما خبر النيل في هذه السنة فنحن نسوقه باختصار —أما ولاكانه احترق في طبيعة، ثم تزايد حتى صار مشبات الناس والدواب وظهرت الخمرة فيه في جموع الآخرة الكائن في برميات وتزايدت جدا في رجب حتى ظهرت في نون وطبعها وريحة، ثم تناقصت حتى ذهبت اصلا وانتهى احتراقه في رمضان، وانحر عن المقياس نحو ثماني اذرع وطالع ابن أبي الولاد باستقرار الماء يوم الثلاثاء لخمس بقين من يئونة وأربع بقين من رمضان من سنة ثمان وتسعين فكان
القاع ذراعا ونصفا وكان في السنة الخالية ذراعين، وتبدأ بالزيادة في السنة الخالية هذا اليوم، فاما في هذه السنة فإن زياضه تأخرت إلى الخامس والعشرين من أبيب لم يزد في هذه المدة سوى أربع اصابع حتى ساءت ظنون الناس وشملهم اليأس فظنوا أن جاداثا وقع بفوهته وعند مبدا جريته، ثم اخذ في الزيادة حتى انسخ ابيب، وهو على ثلاث اذرع ووقف يومين، فاشتدت لحلاش الناس لخروجه في التوقف عن المعتاد، ثم انه اندفع بقوة قوية وزيادات متزامنة، وجبال من المياة متداخلة فزادتا اذرع في مدة عشر اياش منها، ثلاث أذرع متوازية، وانتهى في رابع وت وله واحيد عشر من ذي الحجة إلى ست عشرة ذراع تتقصص اصعبا واقام يومين ثم اخذ ينحث مثباتا وينصرف رويا.

فهذا ما قصد اقتصاصه من احوال هذه الكائنات فليكن آخر المقالة.

ومنه الكلام.

والحمدا لله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين محمد النبي الأمي وعلى آلله الطيبين الطاهرين، كتبه مؤلفه المعتبر الى الله تعالى عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي في رمضان سنة ستمائة بالقاهرة.
الباحر في الدولة الاتباعية
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي النعم الباهرة، والآلاء الظاهرة، والنعمة التي أمكن على عباده (بالإلهام) (1)، وتمليك الملوك وتأمر الأمراء، فجعلهم سببا لکف القوى عن الضعيف، والأخذ للمشرف من الشريف، تحمله على ما انعم فاخر، ولحسن فاضل، ونصلي على الله وسبحه (سبينا محمد وعلى الله وصبه).

اما بعد، والذي غفرونا مسن إنعمام هذى الدولة العزيزة القاهرة (٢)، والإيام الإثابية الزاهرة، وشملنا من إحسانها، وإنانتنا من عز سلطانها، فقد اشتهر خبره، وطاب مخبرة، وطيار ذكره في الارتفاع، وتحدث به الرفاق، لم يخل من ميرة تسبيها، ونعمتة تعالىها، ودرجة في العلا ترفع بضبيعنا الله،ومرتبة في الفقار تشرف بننا عليها، وحالة من القرب تتضاع دونها درجات المقربين، ومنزلة من الوثوق بننا تقارح عنها منازل المخلصين.
وكان أكثر الموالي السعداء قدس الله أرواحهم - إنعما علينا، وإنعاسنا إلينا، الذي السعيد الملك العادل دور الدين أرسلان شاه (٣)، رضى الله عنه وارضاه، وأكرم في الآخرة نزله ومثواه.

والبس الله هاتيك العظام وإن بيلين تحت الثرى عفوا وغفرانا، سقى ثرى ودعوه رحمة ملات، مثوى قبورهم رجحا وريحانا.

فانه طالما انعم علنا وإعانا، ووصلنا وجبنا، وعبينا واصطفانا، وإلى أولى مراتب الكرامة أعلانا، مازال يولينا الجميل، وولي لنا الجليل، وقربنا إلى حضرته العلياء، ويينينا من سنته السنية، وباستره يخصنا، وله شورته يستخارنا، لم يخلي يوما من بر غريب، وإنعام لنفاسته غريب، وكان ما يعننا به مسن.
طول بحراً، يقفف بالغني، ويجود بما لا يبلغه المني. فهذا كانت حيانيتا من سبب أنعمه غرف الحياض، ونافقة الرياض، ولم نزل يقابل قبضي إنعامهم بحذائه باخلاص الدعاء، وصدق البرونية والولاء، وإظهار الشكر والثناء، ونسخته بمحضه، ونودي متناسبه ومفترضه. كل ذلك صادر عن نيات في العبودية صادقة، وطيات في الولاء غير مماثلة. وكتبت عازماً على أن أدنوا أخبارهم، وأجمع اثارهم، وذكرنا ما من الله سبحانه على الإسلام والمسلمين وما حفظ من شعرهم بجلادهم، وما صب بهم على الفرج من العذاب بايديهم، واستندفة من مالهم بجهادهم، واخلد محاسن أعمالهم على ممر الدور، وتعاقب السين والشهور، جزاء لإحسانهم المستمر، وطولهم الثواب المستقر، وكانت الأعدار تحول بني وبين ما أوكله من هذا الفرض، والعواصق تحيل جواهر إسكناني إلى العرض، وله استائر الله تعالى بالمولى السعيد نور الدين - تغمده الله الكريم برضوانه، وأسكنه فسح جناته - وقام بذلك بلهة الدولة المالك الملك القاهر العادل العالم المؤيد المنصرور، عز الدنيا والدولة، سلطان الإسلام والمسلمين، أبو الفتح مسعود بن إسحق شاه بن مسعود بن سودود بن زنكي بن ناصر، ناصر أمر المؤمنين، نسب كان عليه من شمس الضيحي نوراً، ومن فلق الصباح غموراً، لا زالت الاقرار جارية على وفق اختياره، ومقتضى إيثاره، ولا برحت الحوادث عن جنابه الشريف مصروف، وأعين الكوارث عن دولته القاهرة مطروفة - ومنذ ذلك الدست، وشرف ذلك الصدر، وظهرت هذه الشمس بعد أطول ذلك البدر، ولا غرب إذا أشبه الواد الولد، وقام الشبل في عزيمة الإست:
- ۶۲۵۹ -
وأما زال منهم حيث كانت مهالك
تسر المنايا حيث سارت كتاببه

وبهك كانت الحال هذه، تجسر ذلك العزم واحبت أن أجعل مناقب الموالي الملك السعداء من أبائه عليه وأذى عقيلة محاسنهم إليه، وأذكر من مشاهدهم في نصرة الدين، وذنبن عن حوزة المسلمين، ما انتهى إليه علمي، وأثبت قامي: شعر

أخوين قوم بنوا وما نقضوا
فلاذكر يا ما هم قبضا
جادوا مما قصرت اكفرهم
عن غلبة في الدنيا ولا عرضوا
وانهزوا فرضة التمكن إذ
تصوروا ان مكثها عرض
في دولة القاهر الملك عز ال-
دين عن كل من مضى عوض

قال: ليعلم قدر نعمة الله تعالى عنه أولا وأخرا، ويقتدي بأفعالهم
وأردا وصادر، ولبيتينن أنه لم يكن لأحد من الملوك المتقدمين
والخلفاء الراشدين، منقبة نبينية وندوية وتجرب في حفظ المعالك
والرعاية شرعية وسياسية، إلا في بيت الشريف، نهى الله تعالى
قواعده، وشد من عزه معافقه، ما يضحى به، وظهر عنه، ما
يماثله ويناويه، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل
العظيم (4)، لا يل ذي وله من قاس غيرهم بهم قاس الأمد إلى البحر
والخشب (5) إلى الورد، والهشيم بخضرة الربع، والأرض الجرز
(6) ببنرة الروض المربع، ولكان القائل إياهم أراد بقوله:

إم تحمل الأرض ماوكة مثلكم
ولا اظلتها السماوات العلي

- ۱۱۳ -
* معاد كل راغب وراهب
إذا أتى نبأهم القى العص
لانيطر العوراء في ناديهم
ولا يحلون إلى الجهل الحبى
لايصطلى بناهم عند اللقا
وصطلى بناهم عند القرى
هم النجوم طالع وأفل
يعلوهم غرس إلا غرس ذوى
هم الجبال امتنعت أن ترتقي
هم البحور ليس يعلوها القدى
إن سلوا لم يبخوا أو عاهدوا
لم يغدوا أو ذكروا طاب النثا

وذقت أكثره عن والدي رحمه الله تعالى، فأنه كان راوية
حسناتهم، وعين الخبر بحركاتهم وسكتاتهم، وقد فاتني كثير مما
سمعته منه، لأنني جمعت هذا الأمر من حفظي بعد وفاته، ولم
أثبته بعلامي في حياته، ومع هذا فانت تعمم شرك الأكثار، ليل
الناس في زمننا إلى الاختصار، وأبدأت بذكر الموت الشهيد الكبير
قسم الدولة أقسم قر رضي الله عنه، لانه أول مئ سلموه فهما
عمناه، وذكرت ما حضره من الحروب قبل ملكه وعهد، وكذلك وله
المولى الشهيد عماد الدين زنكي قدس الله روحه، ولم أذكر أحداً
غير ملوك هذا البيت الشرف، إلا وفاة خليفة واستثناء آخر
وموت سلطان سلبيق وولاية غيره، إذ الضرورة تدعو إليه، وبالله
التوافق وهو المستعان وهو حسيب ونعم الوكيل.

في ذكر ابتداء حال قسم الدولة أقسم قر رضي الله
عنده

قال صاحب التاريخ(7): كان قسم الدولة تركيا من أصحاب

- 113 -
السلطان جلال الدولة ركن الدين (8) ملكشاه بين الارسلان وتراثه، ومنه ربي معه في صغره وصحبه إلى حين كبيره، فلمَا أفضت السلطنة بعد أبيه إليه، وأفاضت تاجته عليه، ولعى لقسيم الدولة صاحبته، فجعله من أعiani أمراه، وأخص ولائه، فصاحف الأحسان أهله، فرفع قدره وعلي محلة، واعتمد على السلطان في مهماته، وافقيه إليه بمسارته في خلوته وجلواته، ووثقوه به وثوقًا حسيبه عليه سائر أمرائه واجناده، لما رأى من شجاعته وحزمه وسادته، وقدم عنه تقدماً فاق في سائر الناس، واختصائه السلطان للقرب والإياض، وزاد قدره عاوياً إلى أن صار يتقبه مثل نظام الملك مع تحكمه على السلطان، وتمكنه من المملكة بحلو المنصب وكثرة الآراء، فشانع على السلطان بجان بوله سديدة حلب وأعمالها، ويبقاه في عساكرها وأمرائها، ويضيف إلى حكمه غيرها من البلاد الشامية، وكان قصده أن يتخذ عند قسيم الدولة بدًا، ويبعد عن خدمة السلطان، ومن أعظم الدلالات على علو منزلته وسما مرتبتة لقبه، وهو قسيم الدولة، وكانت الالقاب حينئذ مصنحة لاتعطى إلا استحقابها، حتى أن السلطان - مع جلالة قدره - لم يكن يعرف إلا بجمال الدولة ولم يكن لقبه في الدينمشورا. وكان قسيم الدولة أيضاً يقفاً على جابب تخت السلطنة عن يمينه ولا يتقده أحد، وصار ذلك أيضاً لعقبه من بعده. وهكذا كان سيف الدين غازي بن عماد الدين ذنكي رغيف الله عذماً يقفاً.

عند السلطان غياث الدين مسعود، ولا توجه المؤلف السعيد شرف الدين ابن المحمل المنظم قطب الدين قضس الله روحهم على همزة - وبها حينمد السلطان الارسلان بين طغرل محمد، وأتاكه البهولان، هو أخو السلطان لأمه، والبلاد له، وبحكمه ليس للسلطان معه غير اسمه - وكان البهولان يقف على يمين التخت، فلما حضر شرف الدين انتقل البهولان يقف على يمين التخت، فلما حضر شرف الدين انتقل البهولان على مقامة، وقال لشرف الدين: هذا كم من قديم الزمان ليس لأحد غيركم أن يقف فيه وحضوره، وكل هذا يدل على ماذكرناه من جلالة قدر قسيم الدولة وعلو محلة
ذكر مسير قسم الدولة
مع فخر الدولة بن جهير إلى الموصل بامر السلطان ملكشاه

في سنة سبع وسبعين واربعمئة، سير السلطان ملكشاه الوزير فخر الدولة بن جهير وزير الخليفة إلى ديار بكر ليتمكنها وجيلي عنها بني مروان على ما ذكرناه في المستقصى في التاريخ، وسیر عمد الدولة بن فخر الدولة بن جهير – وكان زوج ابنة نظام الملك – إلى الموصل، وكانت لشرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلي، وسير معه جيشاً عظيماً، وجعل المقدم على الجيش قسم الدولة اقتصراً، وتقدم إلى عمد الدولة ليكون فعلاً في حروبه وحصاره برأي قسم الدولة، لمعرفته بتديبر الجيوش وحصر البلاد وشجاعته في حروبه كلها، فسأروا نحو الموصل، فلم يبلغاً إلى الطريق الأمير أرث بن أكسب التركمان، جد ملوك الحسن (9) ومماليك يومنا هذا ومعه خلق كثير من التركمان فاستصباحه معهم، وكان مشهوراً بالعقل والدين، فاما وصلوا إلى الموصل، حضروها وضيقاتاً على من بها وأرسل أرث إلى من بها يشبر عليهم بالانخل في طاعة السلطان ودرك العصيان عليه، وخوفهم عابرة فعلهم إن امتنعوا، وأصرروا على الخلاف، فقلوا نصحته وأنغوا له واطعوا وسالموا البلد، فأخذ عبيد الدولة ما كان به من مال شرف الدولة واهل ونخاله. وكان السلطان عازماً على اخذ جميع البلاد التي شرف الدولة واستمال ملك العرب، فناثروا الخبر بخروج أخيه تكش عن طاعته بخрасان واجتماع المساكر عليه، فسارل مسجد الملك بن نظام الملك إلى شرف الدولة فطيب قلبه، وذكر له أن اباه نظام الملك قد شفع فيه فاالسلطان فاجاب شفاعته، وأمره بالسير معه إلى خدمة السلطان، فسار صحبته وよりも السلطان بالبورزيج (10) فظل عليه ورد عليه الموصل وجميع ما أخذ له من اهل ومال، وسار السلطان نحو خراسان فظافر به.
ذكر ملك قسيم الدولة مدينة حلب وغيرها

كانت حلب لشرف الدولة مسلم وكانت انتفاضة للروم قد ملكوها سنة
ثمان وخمسين وثلاثمائة، ولم يزالوا بها إلى سنة سبع وسبعين
وأربعمائة، وكان صاحبها حينئذ روميًا يسمى الفردوس (11)
فسار عنها إلى بلاد الروم، فكتب له إلهامًا إلى سليمان بن
فتالش وهو جد هذا الملك غياث الدين كيخسر وصاحب قونية
وغيرها، وراسل له لحضر عندهم ليسموا إليه انتفاضة، فسار
إليهم وتسلم البلاد وملكها، وقتل من أهله خلقًا كثيرًا، وأخذ منهم
ملا عظيمًا. وكان لشرف الدولة على صاحب انتفاضة الرومي جزية
يأخذهما من كل سنة، فلم يặc البلد سليمان، ارسل إليه شرف
الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الروم، وتهدده وخوفه عاقبة،
معصية السلطان، فأعاد الجواب: إنني في طاعة السلطان وهذا
الفتح بسعادته، والخيبة والسكون له في، ولست بكافر auprès أعطيك
ما كت تأخذه من الروم، فأعاد شرف الدولة الجواب يهله ويلعب
بالمال، فأخذه سليمان جميعا فسار إلى بلد شرف الدولة ونهره،
فقصده الذين تهيموا واستغادوا إليه، فقال لهم: صاحبكم أحوجني
إلى مفعلكه، وإلا فليس من عادي اخذ مال مسلم ورد عليهم ما خذ
فهم، فجمع شرف الدولة العرب والتركمان عن بكرة ابيهم وسار
نحو انتفاضة، فأتيه سليمان في أول أعماله مسلمًا حلب في صفوف
سحابين وأربعمائة، فاقتتهن أشد قتالًا فانهزمت العرب
والتركمان عن شرف الدولة فاضطر إلى الهزيمة فقتل مندهزما وأذا
عاقبة فيه وكان ملكه من السنية بالعراق على نهر عيسى إلى منبج
ومابينهما من البلاد الفرنجية: كهيت، والانبار وغيرهما، وملك
الموصل، وديار ربيعة، والجزيرة بسراها، وملك مينبة حلب.
وكان عادل حسن السيرة عظيم السياسة، ولا قتل شرف الدولة قصد
سليمان مدينة حلب فحصرها فارسل إليه أهلاً: إذا انفصل الأمر
بينك وبين تاج الدولة تدشن سلما اليك البلد. وكان تاج الدولة له

- 116 -
مدينة دمشق ونواحيها قد أقطعه أياها أخوه السلطان ملكشاه، وقد سار نحو حلب بعد قتل شرف الدولة ليمكها، وكان معه أمراء بن أكسب - وقم اقطعه تاج الدولة البيت المقدس - فلم أرسل أهل حلب إلى سليمان مذكوركا، سار نحو تاج الدولة فافتتحوا واقتنعلا قتالاً شنيعاً صبر فيه الفريقان، وانجلت الحرب عن هزيمة عسكر سليمان، وثبت هوا قتل. وسار تاج الدولة إلى حلب فحصرها فملك المدينة وحصر القلعة، فكاتب اهلها السلطان ملكشاه لسلموها الله وهو بالرها، وكان سبيل مسيره الله، ان ابن عشيري النميري كان قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار وسلماها الله، ففتحوها، واخروا المساجد واضلوا المسلمين عنها، فسار ملكشاه الله هذه السنة فحصرها وفتحها واقطعها الأمير بزائ، فلم اتاهم رسل اهل حلب بالتسليم الله، سار الله فملا بلغ خبر مسيرتهم إلى تاج الدولة، رحل عن حلب إلى دمشق، وصل السلطان إلى حلب، وباقامة سلام بن مالك ببن بدران العقيلي - وهموا ما عم شرف الدولة - فسلمها إلى السلطان بعد قتال، وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جعبر، وكان قد ملكها هذه السفرة من صاحبها جعبر العقيلي وكان شيخا كبيراً أعماً، فقمت بيد سالم ولاده الله ان اخذهما منهم الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي رضي الله عنهما، على مانذكروه ان شاء الله تعالى. فلم نملك السلطان حلب، ورسل الله العادل نور الدين علي بن العربية بن منذر الكاتني صاحب شيزر ودخل في طاعته وسلم الله لاذقية، وفامية، وكفر طاب فاجابه ملكشاه الى الصلح وترك قصده.

ثم إن نظام الملك اشار على السلطان بتسليم حلب وأعمالها، وحماه، ومنبه، ولاذقية، ومسمعا إلى قسم الدولة(mutex) فاقطعه الجمع، ففيته بيد الله ان فتحه سبن سبع وثمانين وأربعمائة، على مانذكروه ان شاء الله تعالى.

واقطع السلطان مدينة انطاكية باغي سيان، وهو صاحب صلاح
الدين محمد الياغسياني الذي صار أمير حاكم الدولة الشهيد عماد الدين زنكي.

ولا استقر قسم الدولة في الشام، ظهرت كفاهته وحمايته و_heading_1
في جميع بلاده، وأن السلطان استدعاه إلى العراق فقدم إليه في تجلب عظيم لم يكن فيعسكر السلطان من يقاربه، فاستحسن ذلك منه، وعظم محله عنه، ثم أمره بالعودة إلى حلب فعاد إليها. ونا مات السلطان ملكشاه سير قسم الدولة جيشا إلى تكيرت فلماها.

معرفة حسنة

ينذكر أهل التواريخ أنه ليس من مشهور العرب من قتل هو وأبوه وجد وجد أبيه، غير عبد اللطيف بن الزبير بن العوام بن خويلد، فقد عبد الله قتله الحجاج، والزبير رضي الله عنه قتله يوم الجمل، وقتل العوام وخويلد في الجاهلية، وليس مشهوراً، لذلك، غير قليلاً أرسلان فقد قتله جاملي سقاوا بالخابور غرباً، وهذا سليمان قتله تاج الدولة تدش كما ذكرناه. وما أبوه قتله ابن أرسلان يبغو بن سلطان، فقد قتله صاحب مدنية استوا (12) لأنه جمع خلقا كثيراً من الاتراك وخرج عن السلطان الارسلان لفقته، صاحب استوا فقاتله، فانهزم قتامش وسلفت عن فرسه فمات. وما أبوه أرسلان يبغو بن سلطان، فقد قتله غزنة من أولاد محمود بن سبكتوك (14) اخذه قتله، واتاب ابن قتامش حتى خلصه الملك داوود والسلطان الارملان لما ملك خراسان.

ذكر قتل نظام الملك وزير السلطان ملكشاه رحمه الله

في عام رضوان سنة خمس وثمانين وأربعمئة، قتل الوزير نظام الملك أبو علي الحسن بن سلطان قتله صبي بيلام بعد الإفطار.
وقد تفرق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقهاء وغيرهم من أصناف الناس، وحمل في محبة لقرس، كان بالي خيمة الحرم، فقلبه صبي نبي مصطفى بن قربه منه ليس مع شكوكه الفتاه، وقتل الصبي أيضا، فدمت الدنيا واحدها الذي لم تر مثله. وكان تلك الليلة قد حكي لبعض الصالحين، أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النائم كانه أتاه واخذه من محفته، فاستبشر نظام الملك بذلك، واظهر السرور به، وقال: هذا أبقى وياه اطلب، وبلغ ممن الدنيا مبلغا عظيما لم يله غيره.

وكان عالما، فقتها، بيتا، خيرا، متواضعا عادلا يحب أهل الدين ويكرمهم ويجل صلاحتهم. وكان اقرب الناس منه واحدهم الية العلماء، وكان يناظرهم في الهامل، ويبحث عن غواص مساذل، لانه اشتكى بالفقات في حداثته مدة.

واما صدقاته ووقوفه فلا حد لها، ومدارسه في العالم مشهورة، لم يخل بلد من شيء منها، حتى جزيرة ابن عمر - التي في زاوية من الأرض لا يرؤيها لها - بني فيها مدرسة كبيرة حسنة، وهي الآن تعرف بمدرسة رضي الله.

واعماله الحسنة، وصناعاته الجميلة مذكورة في التواريخ، لم يسبقه من كان قبله ولادره من كان بعده، رحمه الله ورضي عنه.

وكان من جملة عبادته انه لم يحدث الا توضعا، ولاتوضعا وصلى.

وكان يقرأ القرآن حفظاً، ويعتم على اوقات الصلاوات محافظة لايت.FileInputStream فيها المتفرغون للعبادة، حتى أنه إذا غفل المؤمن أمره بالاذان، وإذا سمع الآذان امسك عن كل ما هو فيه، واشتكى باباجيته ثم الصلاة.

واما ابتداء أمره، فإنه كان يحب التصرف، فاتصل بأمير كان صاحب بلغ يعرف بالامير ياخر - وكان مقدم عسكر الملك الجغر.
ذكر وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان رضي الله عنه

في منتصف شوال سنة خمس وثمانين وأربعمئة توفي السلطان ركن الدين ملكشاه رضي الله عنه. وسبب وفاته أنه اكل لحم صيد فسألك منه، فأخذته حمى حادة فتوفي منها (۱۵) وكان مولده في جمادى الأولى سنة سبع واربعين وأربعمئة، فكان عمره ثمانية وثلاثين سنة وستة أشهر. وكان ملكه نحو عشرين سنة.
وكان أحسن الناس صورة ومعنى ويكفيه أن من جملة حسناته، نظام الملك، وكانت سعادتهما متقاربة. حكي لي والدي رحمه الله تعالى - ثم اني رأيت ماهكة بعد ذلك ذكرت في كتاب التاريخ - قال: أن السلطان ملكشاه عشب على نظام الملك في شيء فعله بعض أولاده، وقال له في غزوة عتبة: أن كنت شريكي في الملك فغرني، وإن كنت وزيري فاسلك مايسكله الوزراء والأطباق دواتك وزلتك، فقال للرسول: قل للسلطان عني: أن كنت متعلم اني شريك فاعلم، وانذكر ما فعلت معك حين خرج عليك اعمامك واخوته وتازووك في الملك وكادوا يقهرونك، فتوثبت ردهم بنفسي، وقامت المقام الذي تعلمه حتى صفا كملك السلطنة، وذكر له عدة مواقد جزوع فيها ملكشاه، وخصاص، فنتردها نظمام الملك بالرأي والحرب، فان كان هذا كلامه ذلك الوقت. وأما قوله أنه يطبق الوقت دواتي فقل له: أعلم أن هذه الدوام متعلقة بذر قلنسوته التي على رأسه، فتمت اطيطه هذه سقطت ذلك. فيقال أن هذا كان سبب قتل نظام الملك، وإن السلطان وضع ذاك الليمي حتى قتله، وصح قول نظام الملك، لما طبقت دواته لم يعسر السلطان غير خمسة وثلاثين يوما ومات. وكان هذا كالكروما لنظام الملك، وكانت مملكة السلطان ملكشاه قد اتسعت اتساعاً عظيماً، اطاعته البلاد جميعها ومكلاها، وخطلب له من حدود الصين إلى الداروم من ارض الشام، واطاعه اليمين والحجاز، وكان يأخذ خراج ملك الأقطنتين كل سنة، واطاعه صاحب طراز واسطيجب، وكماش، وبلساغون وغيرهم من مملكة البعيدة، وملك سرقو وجميع مواريه النهر. ثم ن صاحب كاشغر علنا عسرا في فسارة السلطان اليه، فلم قارب كاشغر هرب صاحبنا من فسارة طلهه، ولم يزل حتى ظفر به وأحسن إليه واستصحبه معه إلى أصفهان. وعمل السلطان من الخيراوات وأواباب البر كثيرا، ومنهما ماسحله وعمله من المصنوع بطرق مكة، وحفر من الأنهار، وبنى مدرسة عند قبر الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، وبنى الجامع الذي يظاهر ببغداد عند دار السلطنة. وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البحر.
ثم سار إلى نصيبين فحصرها، فسبه اهلها ففتحاً عدوة وقهرها، وقتل بها خلقاً كثيراً، واستلاب بها محمد بن شرف الدولة العقيلي.

وراسل تامر الدولة ابراهيم بن قريش بن دران – وهو صاحب الموصل حينئذ – بأمره بالخطبة له وإن يعطيه طريقاً إلى بغداد، فامتنع عليه، وسلم كل واحد منهما إلى صاحبه، فالتقتا بالضيوع من بلد الموصل، وكان على ميمنة تاج الدولة، قسم الدولة اقتصر، وعلى مسرته بوزان، ففتح العرب على بوزان فانهزم، وحمل قسم الدولة على العرب مما يليه فهزمهم، أمر ابراهيم وجماعة من أمراء العرب، فقتلهم تاج الدولة صبرأ ومالك بلادهم جميعاً، الموصل وغيرهما.

وسار في ربيع الآخر من هذه السنة إلى ميافارين فمكنها وسائر بلاد نبار بكر.

ثم سار منها إلى إضرابين فقصده الملك ركن الدين بركياروق – وكان قد ترك كثيراً من البلاد منها: الر ويهمان وما بينهما، فلما تقارب العسكر، قال قسم الدولة لبوزان: انا اطعنا هذا الرجل لننظر ما يكون من أولاد صاحبه، وان فقد ظهر بركياروق، والراي والدروة تقتضي بأننا نقصده ونكون معه، فافرضاً تاج الدولة وسرا إلى بركياروق وصار معه، فلما رأى تاج الدولة ذلك، رجع إلى الشام، وأقام قسم الدولة عند بركياروق، فخرج عليه خاله اسماعيل بن ياقوتين ثم اطاعه، فخلا به قسم الدولة وبوزان، وسبطته في الحديث فاعلمهم أنه يريد السلطنة وقتل بركياروق، فولذا عليه محافظة على صاحبهما، ثم أمرهما ركن الدين بالعودة إلى الشام لينما تاج الدولة عن البلاد ان قدسها فعذاباً.
ما يلي الكوفة بمكان يعرف بالسبيوع وبنى مثلها بسمر قدما أيضاً، ولا مات ضبطت زوجته تركان خاتون العسكر، وكانت مروتة فلم يلطم أحد وجها، ولم يشغ عليه ثوب، ولم يسمع بسلطان مثله توفي فلم يصل أحد عليه، ولم يجلس أصحابه للعزة سواء، وارضت زوجته العسكر وحلفتهم لولدهما محمود، وعمره اربع سنين، وسارت إلى أصفهان.

وظهر الملك بركياروق بن ملكشاه، وهو الأكبر، فطلب السلطة فأخذه وتوت بمحمود، ثم ظهر السلطان محمد بن ملكشاه، فناعم اخاه بركياروق، وجرت بينهما حروب كثيرة دامت حوالي اثنتي عشرة سنة، إلى أن توفي بركياروق واستقرت السلطة لمحمد.

وفي السنة تلك الحروب ظهر الفرسنج إلى الساحل، ولما انطاكية أولاً ثم غيرها من البلاد، وقين استوفينا ذلك في المستقصى في التاريخ.

ذكر صلح قسم الدولة اقصدنقر
وتاج الدولة تتش بين البارسلان وماشده من الحروب معه

قد ذكرنا أن السلطان ملكشاه كان قد قطع اخاه تاج الدولة مدينة دمشق وأعمالها وما وأرها كثيرة والبيت المقدس وغيرهم، فلما توفي ملكشاه واختف اخاده وهم صغار، جمع تاج الدولة العسكري وسار نحو حلب، ولما قسم الدولة اقصدنقر، فلم قسم الدولة ان أولاد صاحب صغار، وأن الملك لا يسمح لهم، وسقرواهم، وخلف الواقع بينهم، ولم يكن له طاقة بتاج الدولة، فصالحهم وخطب له بحلب، ورسل دور الدين بوزان صاحب حزران وياشي، وساحب انطاكية يشير عليهما بطاعة تاج الدولة، فلموها، وخطب لنفسه بالسلطنة في محرم سنة ست وثمانين وأربعمئة.

- ١٢٣٠ -
ذكر وفاة أمير المؤمنين المقتدى بأمير الله ولودية ابنه المستظهر بالله

في المحرم من سنة سبع وثمانين وأربعمائة، توفي الإمام المقتدي بأمير الله أمير المؤمنين رضي الله عنه فجأة. و اسمه أبو القاسم عبد الله بن الأمير محمد بن القائم بأمير الله. وعمه تسع وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام.

وكان خلافته تسع عشرة سنة وخمسة أشهر. وانشأ في بغداد عدة محلات، منها: البصلية، والبسانين التي كانت بباب الآزج، والحيية، والإمجية، وذرب القيار، والمقذفة، وخرابة ابن جردة، والخاتونية.

وهو استوريس فخر الدولة ابنا نصر محمد بن محمد بن جهير، وهو من الموصل.

وكان خلافته بعدف من جده القائم بأمير الله أمير المؤمنين، والدة تركية.

وكان في الجانب، كثير الحلم، وعاش واعدا مرفعا.

وتوفي وفد علم على منشور السلطان بركيابو بالسلطنة. وكتب الله القمر مائة شمس النهار مؤهلا، وحضرت الوزير واعيان الدولة وجدت البيعة لولده أبي العباس أحمد المستظهر بـالله أمير المؤمنين، فلما أباعوا أظهرت وفاة المقتدي.

ونا بويج المستظهر بالله ارسل إلى السلطان بركيابو لأخذ البيعة - وكان في بغداد - فإنه فروا بركيابو وزيه عز الملك بن نظام الملك والأمير برسق وكوهانين شحنة بغداد، فبايعوا، ثم بايعه فلما تمت البيعة السلطان احضر الغزالي والشاش وغيرهما من
ذكر نسب الاستظهر بالله

هو الاستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الأمير النخير معمود بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن الأمير أبي أحمد الموفق بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم أبي أسحاقي بن محمد الرشيد أبي جعفر مهارون بن المهدي أبي عبد الله محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس بعبد المطلب رضي الله عنهم، بينه وبين العباس عشرة خلفاء ووالي عهد، وأربعة لم يواха الخلافة ولا ولاية العهد.

فاما الخلفاء: فالنخيرة، والقائم، والقادر، والمقتدي، والمعتصم، والمستشار، والقادر، والمنصور.

وأما وليا العهد: فالنخيرة محمد بن القائم، وهو ولي المقتدي بأمر الله، والموفق الناصر لدين الله، أبو أحمد بن المتوكل، وهو جد المقتدي بالله.

وأما الذين لم يواха الخلافة ولا ولاية العهد: فسحاقي والد القادر بالله، ومحمد والد المنصور، وأبو علي، وعبد الله بن العباس.

وقد ولى الخلافة من بنى العباس من غير ابنه الاستظهر سبعة عشر خليفة، وهم: أبو العباس عبد الله بن محمد السماح، أول خلفاء بنى العباس، والهادي موسى بن المهدي، واليمن محمد، والمأمون عبد الله ابنا الرشيد، والواقف، وهو آخر المتوكل. ثم...
ذكر قتلى قسم الدولة أقسقر رضي الله عنه

في جمادى الأولى من سنة سبع وثمانين وأربعمائة، قتل قسم الدولة أقسقر وبوزنان صاحب حنان. وكان سبب قتلهما أن تاج الدولة تتشن لم يزل يجمع العساكر بعده من الزبيكان إلى الآن، فأكثر جمعهما، وعظم حشدته، وسار عن دمشق نحو حلب، فاجتمع قسم الدولة وبوزنان وامدهما السلطان ركن الدين يركياروق بالامير كروفا - وهو الذي صار فيما بعد صاحب الوصل - فلمًا اجتمعوا وبلغهم مسير تاج الدولة عن دمشق، تقدموا نحوه والتقوا برويان على نهر سبعين بالنقرب من تل السلطان، بينه وبين حلب نحو ستة راسخ، واكتشافوا واشتت الاقتال، فخاض عساكر قسم الدولة وأنهذموا وتبهم الباقيون، وثبت قسم الدولة فأخذ اسيرا وأخذ عن تاج الدولة، فقال له: أوقفت بي ما كنت صنعت. قال: كنت اقتلك. قال: فانا احكم عليك بما كنت تحكم علي قتلي صبرا. وسار نحو حلب، وكان قد دخل إليها الأمير كروفا وبوزنان فحفظاها منه، ولج في قتالها حتى ملكها واختنهما اسرين، وأرسل الي حنان والرهن يملاهم - وكانتا لبوزنان - فأتمت من نيهما التسليم لبوزنان إليه - قتل بوزنان وأنفق رأسه وتسلم البلين. وأما كروفا فانه أرسله إلى حمص فسجنه بها إلى أن أخرجها الملك رضوان بعد قتل ابيه تاج الدولة.
وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظها لهم، وكانت بلاده بين عدل عام، ورخص شامل، وأمن واسع، وكان شرط على أهل كل قرية في بلاده، متي اختر عند أهدهم قفل أو أحد من الناس، غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموات من قليل و كثير، فكانت السيارة إذا بلغوا قريه من بلاده القوا رحالهم وناموا، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا، فاستمطر الطرق، وتحدث الركبان بحسن سيرته.

وأما وفاؤه وحسن عهده فكمفاه فخراً أنه قتل في حفظ بني صاحبه وولي نعمته.

ذكر حال ولده عماد الدين زنكي بعد والده رضي الله عنهما.

 لما قتل قسيم الدولة اتسرع، لم يخلف من الولد غير ولد واحد، وهو المولى الشهيد عماد الدين زنكي، وكان حينئذ صبيا له من العمر نحـو عشر سنين، فجاججعت عليه مماليك والده، وأصحابه وفيهم زين الدين علي، وهو صغيبي أيضا.

ثم ان الأمير كريوقا خصص من السجن بحمص بعد قتل تاج الدولة سنة تسع وثمانين وأربعمئة، وتوجه إلى حصن - وقد جمع معه عسكر صالح - فهاكها. ثم صار إلى نصيبين فماكها أيضا. ثم إلى الموصل فماكها وأزال عنها على بنك شرف الدولة العقيلي، فأنه كان مالكا لها وصار نحو ماردين فماكها أيضا.

وعظم شأنه وهو في طاعة ركن الدين بركة روى فماك البلاد. أحضر مماليك قسيم الدولة اتسرع، وأمهم بأحضاز عمار الدين زنكي. فقال: مباين إخري وانا أولى الناس بتربته فاحضروه عندنا، فاقطعوا الاقطاع السنوية وجمعهم على عمار الدين زنكي.
واستعان بهم في حريته وكانوا من الشجاعة في أعدم درجاتها. فلم يزالوا معه.

ثم ان كربوقة توجه إلى أمد وصاحبها بمن امراء الكركمان، فاستنجد صاحبها ببعين الدولة سقمان بن أرتق - جد صاحب الحصن يونا هذا - فجمع من الكركمان خلقا كثيرا وسار نحوهم وتصاف هو وقوم الدولة كربوقة، فرآى كثرة الكركمان فخافهم، فأخذ عماد الدين زنكي وألقاه بين مماليكه والده، وقال لهم: قاتلو عن ابن صاحبكم، فحينما اشتفىهم وحمى الوطيس فهزموا سقمان وأسرروا ياقوتي ابن أخيه، فحبسه كربوقة ثم أطلقه. وكان هذا أول صاصح حضره الشهيد عماد الدين زنكي بعد قتل والده. ولم يزل عماد الدين مع كربوقة إلى أن توفي سنة أربع وتسعين وأربعماثة.

وماك بعده موسى الكركماني من أصحابه، فلم تطل أيامه وقت. وملك الموصل شمس الدولة جكرمش - وهو أيضاً من مماليك السلطان ملكشاه واحذ الشهيد عماد الدين وقربه واحبه، واتخذ ولياً لمعرفته بمكانة والده. فبقي إلى أن قضى سنة خمسمائة. ولأجرم أن الشهيد قدس الله روحه، روى هنالك جكرمش لما ملك الموصل وغيرهما من البلاد، فانه اخذ وله ناصر الدين كوري، فاكمه وقدمه واطلعه اقطاعاً كثيراً، وجعل منزلته أعلى المنازل. فعندما اتخذه صهراً.

ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاوي سقاوا فاتصل به عماد الدين زنكي وقد كتب فظهرت عليه امارات السعادة والشجاعة، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد. وكان جاوي قد عبر إلى الشام ليملك من الملك رضوان، فأرسل السلطان إلى الموصل الأمير مودود وأقطعه أياها سنة ثنتين وخمسماثاً. فلم ياتصل الخبر بجاولي فارهة الشهيد وغيره من الأمراء، وفيهم الأمير التونتشي الأبري، وهذا كان سبب المعرفة بينه وبين الشهيد، فلما ملك
اكرومه واعظمه وأكثر أقطاعه، فحكم لي والدي قال: كنت أراه على جانب الدوله الشهيد لينتقم عليه أحد من الأمراء، وله عقب بالواصل إلى الآن في خدمة الدولة القاهرة.

فلا استقر الأمير مودود بالواصل، واتصل به الشهيد عماد الدين عرف له ذلك، مضافاً إلى منزله أبيه، وراى منه من العقل والشجاعة، فزارد في اقطاعه وشهد معه حربه، ففما بلغني منها، إن الأمير مودود سار إلى الغزاة بناشام ففتح في طريقه قلعاً من شبعتان، وكانت للبرنج وقتله من بعدها منهم، ثم سار إلى الرها فحصرها ولم يقدر على فتحها، وكانت عقيبة ومركمة وفضيلة.

قد انخرها الله سبحانه وتعالى للدولي الشهيد.

فاستوضحت سبل الأمال حائدة
عن الملوك إلى أعلاهم حسباً

ابرههم فضلاً، اغمرهم باللا
أخبرهم بما فعلا ومنتسباً

اشم اشوش مضروبا سرداً
على الملوك مرفخ دونها الحببا

ممتتع العز، معمور اللفاء به
مظفر العزم، والأراء منتخبباً

من معشر طالما شبا دفلا وغي
نارا، نظل اطعمس لها حطباً

ثم ان الأمير مودود رحل عنها وعبر الافرات إلى الشام، فحصر تل بناشر خمسة وأربعين يوما ولم يبلغ منها غرضا، ثم سار عنها إلى معرة النعمان فحصرها، وجاء إلى الأمير طفديك صاحب
دمشق، فلما رأى كثرة عسكره خاف أن يأخذ منه دمـشـق فشرع في صلح الفرنج سرا من مودع فصالحوه، وكانا قد ضعفا عن قتال المسلمين أكثرتهم فان السلطان محمودا، كان قد أمر الأمير مصدوما بعسكر مقدمهم الأمير سـكـمان القـطـحي صـاحب تـريـز وغيرها، فمرض سكمان واشتد مرضه فعاد، فادركه الدوام وباصل فأخذ أصحابه تابوه وقادروا بلاده، فاعترضهم إيلغازي بن أرتـق لباخذهم، فصافوه وجعلوا تابوت سكمان في القلب كما كان حيا، وقاتلوا قفاوقا، وانهزم إيلغازي وعادوا الي بلادهم.

فلما رأى مودود تفرق العسكر، وصل طفلكين للفرنج ضعفت نفسه وعاد عن الفرنج، ولم يكن في عسكره من ظهرا اسمه غير الشهيد، وان لعسكره في العود والاستراحة ثم الاجتماع لقتال الفرنج فتفارقوا.

وراسل مودود طفلكين وأصلحه وجمع العسكر وعاد الي الشام، وحضر عنه اتابك طفلكين وساروا جميعا الي طبرية وحصروها وقاتلوا قتالا شديدا وظهر من اتابك الشهيد رضي الله عنه شجاعة لم يسمع بمثلها فمنها: أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه، وهو يظن أنهم يتبعونه فتخالفوا عنه وتقدم وحده، وقد انهزم من ياظار البلد الفرنج فخندا البلد، ووصل راحه الي الباب فآثر فيه وقاتلهم عليه، وهو ينتظر وصول من كان معه ليقاتلو الفرنج ويتقدم بباقي العسكر فيماكين البلد، ففيه لم ير أحدا حمي نفسه وعاد سالا، فعجب الناس من أقدامه اولا ومن سلامته أخرا، وهذه الحادثة مشهورة بالشام لاسيما عند الفرنج.

وجمع الفرنج فرسائه ورجالهم وملاكهم وقمامتهم، فهـم الملك يردويل صاحب القدس، وعكا وصور وغيرها، وجـوـسلين صاحب تل باشر والرها وغيرهما، فصداقا ثلث عشر محرم (سنة 507) عند بحيرة طبرية، فظفر المسلمون وانهزم
الفرنج لعنهم الله. ووصلوا إلى مضيق دون طبيبة فاجتمعوا به. ولم يكن فيه سعة، فتبعهم المسلمون، فلما كان من النافذ وصلوا إلى الفرجن عسكر قوي من منطاكية وغيرهما، فقويوا فقوسهم واحضروا، وحصروا المسلمين وهم على رأس جبل والمسلمون في الغور، وصابروهم ستة وعشرين يوما، واشتد الحر على المسلمين لمقامهم في الغور. فرحلوا نحو بيسان، فنزل اليهم الفرجن وتواقعوا خمسة أيام، وانتهت المدة عن المسلمين لبعدهم عن بلادهم، فعادوا إلى مرج الصفر، وأثناء الأمير مودود للعسكر في الرجوع إلى بلادهم ولاجتذب إليه في الربيع، فلما تفرقوا نخل دمشق وأقام بها، فخرج يوما يذكر الجميع، فلما صلاها وخرج إلى صحن الجامع وبدع طغدكين، وكتب إليه انسان فضريه بسيكك معه فجبره أربع جراحات وكان صائما، فحمل إلى دار طغدكين واجتهد به ليجبره فلم يفل، وقال: لا أحب الله إلا صائما، فإني ميت لمحالة سواء أفترظت أو صمت، ونها في بقية يومه رحمه الله فقيل أن الباطنية بالشم خافوه فقتلوه، وقيل بل خافه طغدكين فوضع عليه من يقتله.

وكان خيرا عادلا حسن السيرة، فحدثني والدي رحمه الله تعالى قال: كتب ملك الفرنجة إلى طغدكين يقول له: إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبردها، لحققي على الله أن بنيها فلما قتل الأمير مودود، أقطع السلطان محمد الموصول وغيره للأمير جيورج بك، وسير معه ذلك المحترم إلى الموصول، ثم أنه جهز أسطرق البرسيقي في السماك وسيره إلى قاتل الفرنجة، وكتب إلى السماك الموصل وغيره يأمرون به السير معه، فساروا وفيهم الأشجع عماد الدين زنكي، وكان يعرف في عسكر الفرنجة بزعبي الشامى، وكان قد ظهر عنه من الشجاعة مالا يوصف، ولا سيما بعد ما فعله طبرية، فلما اجتمعت السماك على البرسيقي، سار إلي الرها في خمسة عشر ألف فارس، فحصروا وقاتل من بقاها في الفرنج، والآرمن، فضاقت البيرة عن العسكر، فرحل إلى سبسطاء، وهي أيضا لفرنج، فأخبرت بنوها، فولد سروج وعاد إلى شبهستان.
فأخبر ما فيه الفرنج، وأبلى عماد الدين زنجكي في هذه المواقف كلها بلاء حسنًا، وعادت المساكين تتحدث بما فعله عماد الدين وماظهر له من الشجاعة، وعاد البرتسي إلى بغداد، وأقام عماد الدين بالوصول مع الملك مسعود والأمير جيوش بك إلى سنة أربع عشرة وخمسمئة، وقد علا قدره وظهر اسمه.

وفي سنة أربعة عشرة وخمسمئة (ولد الملك العادل نور الدين محمد بن زنجكي رحمه الله) (١٧).

قال: وفيها غرقت سنجار من سيل النهر، وهكذا منها خلق كثير، ومن أعجب ما واجهني أن السيل حمل مهده في طفلا، فنقل المهد في شجرة ونقض الماء، فسلم ذلك الطفل، وغرق غيره من الماهرين بالساحة.

وفيها أيضاً زلزلات أربيل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة.

ذكر وفاة السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه

وجلس ولده مغفور الدين محمود بن ملكشاه

في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة احتدى عشرة وخمسمئة، توفي السلطان غياث الدين محمود بن ملكشاه وكان مرضه في شعبان من هذه السنة. وكان مرضه السيل، فلما كان يوم النمر جلس الناس تجدلاً، وكانت الأراجيف قد كثرت وأكل الناس الطعام بحضرة ثم ضعف بعد ذلك، فلما كان في اليوم الثالث والعشرين من ذي الحجة أيس من نفسه، فأحضر ولده الملك محموداً - وكان عمره حينئذ أربع عشرة سنة - فلما رأه قبله وبيه، فبكى ولده فأمره أن يجلس على تخت السلطنة وينظر في أمر الناس، فقال: أنه يوم غير مبارك - يعني مفتي هنالك - النجوم، فقال: صدقت، ولكن على أليك، وأما عليك فمبارك ها.
بالساحة، فخرج مجلس على التخت، وليس الشيخ، وتوافد السلطان محمد من ليلته، وأظهرت وقته من الفضيل، وقررت وصيته على وله يأمره بالعدل والأحسان، وكان مولد السلطان محمود ثمان عشر شعبان سنة أربع وسبعين وأربعماثئة، وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام، وأول ملتحله بالساحة في بغداد، في الحجة سنة اثنتين وسبعين وأربعماثئة، وقطعت خططته عدة مرات، وفي من الصراع والانتحار مال يبلغه أحد، إلى أن توفى أخوه السلطان ركن الدين بركيارق، فحينئذ استقرت له السلطنة وصفته له، وزادت البلاد وأصحاب الأطراف لطاعته. وكان اجتماع الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة سنة وستة أشهر.

وكان عادلاً حسن السيرة، شجاعاً، وإطلاق الموسى والضياف.

في جميع البلاد، ومن عده اشتري عدة مماليك من بعض التجار وآخره يوفي الثمن من عمال خوزستان، فانورض البعض ومسط بالباقي، فحضر الجلالة مجلس الحكم، وأخذ غلام الحاكم ووقف الطريق السلطان واستضاف إليه، فأمر من يستعمل حالي، فلما سأله عن حاجته ذكرها له، وأعلم أنه قد حضر مجلس الحكم وأخذ غلام الحاكم ووقف طريق السلطان ليطالب بماله. فعاد الحاجب وأعلم السلطان حالي، فنظم عليه وضاقت صدره، وأمر بالحاكم، بحضر عامل خوزستان، ويلزم بالحاكم، والزمه مشروعة على ذلك لأنه يقضي وهو لا يقيم بمال يحال عليه، ثم أنه ندم على تأخيره عن مجلس الحكم وكان يقول كثيراً: لقد دامت على تركي الحضور في مجلس الحكم، ولو فعلت لانتهى بي غيرو، ولم يعمر أحد عن إداء الحق، وهذه الفضيلة أيضاً ما نطرق الله تعالى له، إذ البيت الشريف الابن، فان الملك العادل نور الدين محمود بس بن زنكي، فعل ماندم السلطان محمود على ترتك، وما عم الأمراء وغيرهم (أنهم) من خلق السلطان محبة العدل وإداء الحق وكراهية الظلم ومعاقبة من يفعله، اقتدوا به، وأمن الناس، وظهر العدل.
ثم إن السلطان محمودا اقام بالسلطة، وجرى بينه وبين عمه السلطان سنجر حرب، انهزم فيها محمودا وعاد إلى عمه بغير عهده، فأكرمته وأقطعه من البلاد من حد خراسان إلى الداروم باقصى الشام، وهي من الممالك: همدان، وأصفهان، وبلد الجبال جميعه، وبلاد كرمان، وفارس وخوزستان والعراق وأذربيجان، وأذربيجان ودورا بكر وبلاد الموصل والجزيرة ودورا مصر ودورا ربيعة والشام وبلد الرم الذي بيد أولاد قلخ، ارسلان ومحبين هذه الممالك من البلاد. ورايت منشوره بذلك.

ولم يكن لعماد الدين في هذه الحرب أثر، ولا شخصا ليستقصى ذكرها لعلنا أعرضنا عن شرحها وأشرنا إليها لتكيف.

ذكر وفاة أمير المؤمنين المستظهر بالله

وجملة المسترشد بالله

قال، وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر من سنة اثنتي عشرة، وخمسيناث، توفي الأمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله من تراقي ظهرت به ( 18 )

وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وأربعين يوما. وخلفه أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأربعين يوما. ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين خطب لهم ببغداد، وهما: تاج الدولة تنش ( 19 )، وركن الدين بركيارق بن ملكشاه، وأخذ غيات الدين محمد بن ملكشاه.

وكان رضي الله عنه كريم الأخلاق، لين الجانب، مصرك الدساني، يحب العلم والعلماء، وصنف له التصانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرها.
وكان يسارع إلى أعمال البر والمذونات، ولا يتردد مكرّمة تتطلب منه، كثیر الوثوق إلى من يوليه الأعمال، لا يصغى إلى سماحة ساع.

وكانت أيامه أيام سرور وأمان للرعية، وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره، وإذا تعرض سلطان أو غيره إلى أنى أحدهم بالغ في إنكار ذلك والزهر عنه.

وكان حسن الخط، جيد التوقيعات لا يقاربه فيها أحد، تدل على فضل غزير وعلم واسع، ولا يدوي صلائنا عليه ابته المستشرد بالله، ودفن في حجارة كانت له بالفها، ولا فقر من الصلاة عليه ودفنه جلس للبيعة، فبابه أولاد الخلفاء والأمراء والفقهاء والقضايا وشيوخ الصوفية، وكان انتظاري لأخذ البيعة قاضي القضاة علي بن محمد الدامغاني، ومن أتباع الشيخ أبو الحبيب السهروري، ووُظِّه موعظة بليغة تنتمي العدل والإحسان.

ذكر الحرب بين السلطان محمود وأخوه الملك مسعود

وأثر عن عماد الدين فيها

قال: لما ولي السلطان محمود السلطنة، اقرّر إخاه الملك مسعود على الموصل مع اتآبه جيوش بك، فقبي مطتعاً لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسينات، فحينئذ خرج عن طاعته، وكان سبب ذلك أن دبّيس بن صدقة الأسد، كان في عسكر السلطان محمود، وقد أخذ بيد الحلقة منه، فلما قل السلطان محمود أقطعه الحلّة وأعده إليها، قلما وصل إلى الحلّة كاتب الأمير جيشوك بك.
وحصن له العصيان على السلطان محمود، ووعد المساعدة على طلب السلطنة للملك مسعود، وكان غرضاً أن يختلفوا. فنال من التمكين والجاه، ما ناله أبو سعيد الدولة صدة خلاف الستة السلطانين بركاريق ومحمد، وقد ذكرناه في المستقصي. وكان الاستاذ أبو اسمايعيل الحسين بن علي الطغرائي الأصفهاني قد اتصل بالملك مسعود فأستوزره وأشار بذلك أيضاً، وكان لجيوش بيك مع الموصل، ولاية اذربيجان، فلا شرع في جمع الجيوش بلغ ذلك إلى السلطان محمود. فأرسل إليه والأخيه مسعود يرغبهما. ويدهما الامان أن يعودا الطاعة، ويدهما أن أصلا على المعصية، فلم يرجعوا، وقوي طمعهما لما بلغهما تفرق العساكر عن السلطان محمود. وأظهراء العصيان، وخفت للملك مسعود بالسلطنة، وكان عماد الدين زيني يشير ببطاعة السلطان وترك الخلاف عليه، وبحذرهم عاقبة العصيان، فلم يرجعوا إلى قوله، وبلغ قوله إلى السلطان فعرفه له.

ثم إن الملك مسعود، وجيوش بيك سارا في العساكر نحو السلطان، ينتهزان الفرصة بقلة عسكره وتفرقهم، فجمع من قربه إليه من عسكره فبلغت عنههم، خمسة عشر ألف فارس، والتقوا عند عقبة أسد آباد في ربيع الأول، فقدم اقتناهم بيتهم إلى الليل، ثم انتهز ملك مسعود وجيوش بيك ومضى معهما، وأسر جماعة من أمراء عسكره والآباء، منهم الاستاذ أبو اسمايعيل الطغرائي وزير مسعود، فقتله السلطان وقال قصص عندي فساد اعتقاده وينبه، وكان قد جاوز ستين سنة. وكان حسن الكتابة جيد الشعر، فمن شعره:

تمنية أن القاك في الدهر مرة
فلم أك في هذا التمني بمرزوق
سوى ساعة التوقيع دامت فكم متي
اذنل وما قام بها أمل سويق

- 136 -
فياليت ان النها كل زمانه
وداع ولكن لا يكون بتفريق

فأما الملك مسعود، فإنه سار منهزما إلى مكان بينه وبين الوقعة
اثناء عشر فرسخا فاختفي فيه، وارسل ركابا كان معه إلى أخيه
طلب الأمان، فارسل إليه البرسقي بأمانة وتطبيع قلبه، فاحتجز
معه عند السلطان، فأمر الناس كلهم بلقاءه واكرمه واحسن
اياه، ونا لقيه بك كل واحد منها إلى صاحبه، واعتذر مسعود
فقبل عذره وخلطه بنفسه في كل أموره.

وأما جيوش بك فانه سار وانتظر الملك مسعودا فلم يره، فسار
إلى الموصل وجمع الغلات والعساكر ليتمتع بها، لما بلغه الخبر
اتصال مسعود بأخيه السلطان محمود عام أنه لا مقام له، فسار
جديدة إلى السلطان فأنه واكرمه، وأخذ الموصل منه وأقره على
اذربيجان.

ذكر ولاية البرسقي الموصل

ثم أن السلطان اقتطع أقسنقر البرسقي بدالوصول
واعمالها، كالجزيرة، وسنجار، ونصيبين وغيرها في صفر سنة
خمس عشرة وخمسمئة وسبعين منها، وأمره بحفظ عماد الدين
زنكي وتقديمه والوقوف عن اشترائه، فسار إلى الموصل، وفعل مع
عماد الدين ما أمره به السلطان، وزاد على ذلك لكونه من العقاب
والشجاعة، وقدم والده في الأيام الركنية وكانت سورة ملكشاه
عندهم كالشريعة المتبعة، فأعظم الناس عليه أكثرهم اتباعا
إسرته.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية
ذكر اقطاع عماد الدين زنكي مدينة وأسطول

في سنة ست عشرة وخمس مائة، اقطع اتباع عماد الدين مدينه وأسطول وعلي شحنكية البصرة، وكان سبب ذلك ان الأمير ديسين بن صدقه الأسد صاحب الحلة، كان قد تقدم منه مع الملك مسعود والامير جيوش بك ما ذكرناه، فبلغ ذلك السلطان (محمد) واضاف إلى ذلك شكوك أمير المؤمنين المستعرض بالله منه إلى السلطان، فأرسل إلى البرسقي بأمره بالانحدار إلى بغداد بعساكر الموصل ومحاربة ديسين، فانحرر إليها في عساكره ومعه عماد الدين زنكي، وسار عن بغداد نحو الحلة فقاصه ديسين عند نهر بشير، فانهزم عسكر البرسقي من غير قتال، وسبب ذلك أنه رأى خلاة في مسيرته وبها الأضراء البتيبة، فأمر أن تلقى خيمته وتنصب عند الميترمة لتقوي ظلوبهم، فحين الالقي الخيمة رات الميتره ذلك فنفت الهزيمة فانهزموا وتبوعهم الناس والبرسقي، وقيل بل أعطي رقعة فيها أن جماعة مدعو العساكر يريدون القتيبة به، فخاف على نفسه وساء ظنه، وانصرف من مكانه وانهزم الناس، وعاد الى بغداد ثاني ربع الآخر، فلما انهزم البرسقي لم يرجع ديسين لنهر ملك ولا غيره، وأرسل الى الخليفة أنه على الطاعة، وطلب أن يخرج الدواب الى الأعمال.

ثم أن السلطان ولي البرسقي شحنكية العراق جميعه، وزوجه خاتون بنشت جهان ونائبة أخيه الملك مسعود، وقام البرسقي في بغداد إلى شعبان من هذه السنة، وترأست الرسل بينه وبين ديسين في الصلح فلم يقت ذلك، فأرسل ديسين عسكرا إلى واسط، وكان من بها من العساكر قد كانوا البرسقي فصاروا معه فلم سمع من بما بمصر عسكري ديسين الهم، أرسلوا يطلبون المدد من البرسقي، فأقامهم الأامير التوتاش أبوهري وعماد الدين زنكي واقطعه البلد، وأمرهم ببطعته، فصافوا عسكر ديسين فهزموه، واسروا أكثرهم، وعاد الباكون منهزمين إلى ديسين.
وأقام عماد الدين زنكي بواسط، وارسل البرسقي إليه أيضاً فولاه شحنكية البصرة وامره بحمايتها، فوليها وحماها، وانتقل إليها وأقام بها لحفظها لإثرأ العرب إليها والإغارة عليها مرة أخرى، فأما سكنها لم يتعرض إليها أحد، وسكن ما كان بها من القطن، وظهر من كفاحه في البلدين ما لم يظهيه أحد، فازداد شأنه عظماً.

وتحبب ديبس قصد ولايته لعله أنه لا يزال منها غزراً، وأفندص عسكرا نحو الدائن، فخاف أمير بغداد، وعبر البرسقي إلى الجانب الغربي عازماً على قصد ديبس، وناهيك هذا شرفاً لعماد الدين، حيث يترك ديبس ولايته مع بعدها عن بغداد ووقصد الدائن، وهي إلى جانب بغداد والبرسقي في المعارك قرب منها.

وبطل الحج هذه السنة من العراق لهذا السبب.

ذكر هزيمة ديبس وعسكر بغداد

وما ظهر لعماد الدين زنكي من الشجاعة

لم ورد ديبس وعسكره إلى الدائن وعبر البرسقي إلى الجانب الغربي ليسير إليه، ورسل الخليفة المسترشد بالله إلى ديبس بنهاه عن العصيان، ويهبده أن امر على الخليفة يقصد بلده، فغضب ديبس وحلف ليقصد بغداد وليخربها ويقتل أهلها، وجمع العرب وأطمعهم في نهب بغداد فكثر جمعه. فلما علم الخليفة بما كان منه سار عن بغداد ومعه العسكر، وعليه قباء أسود وعمامة سلباء وطرحة، وعلى كتبه براكة النبي صلى الله عليه وسلم، وبيده القضيب، وعبر في الزيزب ومعه وليه نظام الملك أحمد بن نظام الملك، ونقيب الدباب، وشيخ الشيوخ صدر الدين اسماعيل، وقاضي القضاء الزينبي وغيرهم، فلما سمع البرسقي
بمسير الخليفة ركب وعاد إلى لقائه، فحين رأى الشامبة ترجل
هو ومن معه وقبوا الأرض، فلما نزل الخليفة في الخيمة، أحمر
البرسقي والأمراء واستحفلهم، ثم سار نحو الحلة – وقد تأخر
ديبس عن المائتين – فالتقوا بالباركة من أعمال النيل، ورتب
البرسقي عسكره، ف主旨 في الميمنة عماد الدين زنكي في
عسكره، والأمير اباب بكر البككي، ووقف الخليفة في موكبه
خلف العسكر بحيث يرونهم والقراء بين يديه، ومصاحب
مذشوره وتقدم إلى اهل بغداد بقراءة القرآن والدعاء له، فختموا ذلك اليوم
الف ختمة ودعوا له بالنصر.
فلم توقف الرياح، حملت مشاة ديبس – وقدمها عنتر بن
ابي العسكر – على الأمير اباب بكر البككي ومن معه، فتراجعا
على اعقابهم، ثم حمل عليهم عنتر أيضا حملة ثانية، فكان حملها
كلاً أولى، واشترقا على الهزيمة، فلم ما رأى عماد الدين زنكي
ذلك، حمل في عسكر واسط على عنتر وأصحابه، واطبقوا
( عليه) من خلفه، وعاد الأمير اباب بكر، ففي عنتر ومن معه في
الوسط، فأخذه باليد، وقتل منهم الكثير، وكان البرسقي قد
جعل له كميتا، فما اشتدت الحرب، ظهر الكمين من وراء عسكر
ديبس، فانهزمت العرب ومن معهم وديبس، فتألقوا بافوسهم في
النيل، فغمر منهم خلق كثير سويا من قتل وأسر.
ولا رأى المسترشد بالله فعل عنتر بعيمينة البرسقي، وأن من بها
قد أشترف على الهزيمة، ظهر سيفه وتقدم وهو يكبر، وقد تسر على
أن يباشر الحرب بنفسه، فكافاه عماد الدين زنكي فلما تام
الظهر، قدمت الأسرى إلى المسترشد بالله، فأمر بقتلهم صبرا.
وكان عسكر ديبس عشرة آلاف فارس وأثني عشر ألف
راغل، وعسكر الخليفة والبرسقي ثمانية آلاف فارس وخمسة
ألف راغل، ولم يقتل من عسكريهما غير عشرين فارسا.
وقع نسمة دييس وسواريه في الأسر، غير زوجه ابن ايليغازي
أبن ارتق وابنة عمي الدولة ابن جبير، فإنهم كننا بمشهد الحسين
علي السلام.

وكانة الوقعة في أول المحرم سنة عشرة وخمس مائة وعاد
المسترشد الى بغداد فنخلها يوم عاشوراء.

واتار العامة ببغداد، فنهون مشهد باب التين وسماع
الضرعين، وقلهوا أبواب المشهد، فشك الخلايين ذلك إلى الخليفة
فانكره، وسرى نظير الخادم أمير الحاج إلى المشهد لتأديب من فعل
ذلك والتتكيل به، ففعل بهم مالام، واسترد من النهيم مالامته
ورده على أصحابه.

وأما دييس فإنه لما اتهم، التحق بالملك طغرل بن السلطان محمد
وصار معه من خواص أصحابه، وكان عاصبا على أخيه السلطان
محمود.

ذكر مفارقة الشهيد عماد الدين البرسقي
واتصاله بالسلطان محمود

قال: ونا فارق دييس العراق و نهاية بطغرل، امتن البلاد، فارس
السلطان محمود إلى البرسقي بأمره بالعود إلى الموصل واشغال
بجهاد الأفرينج، وولي شمجدية بغداد يردقش الزكوي، فعاد
البرسقي في سنة سبع عشرة وخمس مائة.

وكان أتاك عماد الدين زنكي حينئذ بالبصرة، فارسل البرسقي
إليه يوم الحلال، ويستدعوه ليسير معه إلى الموصل، فقدشي
والذي قال: حدثني جماعة ممن كان مع الشهيد، قالوا: جميع

- 141 -
الشهيد أصحابه وقال لهم: قد ضججنا مما نحن فيه. وتارة بالوصول، وتارة ببلاد الجزيرة، وتارة بالشام فلم تشيرون إönن؟ فقال له زين الدين علي بن بكتكين - وكان اوثق أصحابه عهده وأكثرهم صحبة له - فقال: يامولا، انت كلام تقول في أمالي؟ إذا اراد الإنسان (إن) يضع على رأسه حجرًا فليكن من جبل كبير، ولكن نحن إذا كنا لابد وأن نخدم الناس، فلن نخدم السلطان الأول، قبل رأيه، وسأرس من البصرة إلى السلطان محمود، وإقام عنه، فلم ير منه ما كان يرجوه، وإنفق ماكان معه من مال، وكان كلما ضاقت به الأمر، يقول لزين الدين: يا علي، قد وضعنا على رؤوسنا حجرًا عظيمًا كما أردت. إلا أنه كان يفقد إلى جانب تحت السلطان لا يتحدث أحد. فاما كان بعض الأيام، ركب السلطان ليلعب بالكرة، فدخل الميدان فأخذ الجُسيًا كان بينه واستدعى عماد الدين زنكي ونزاوله إياه، وقال له: إلعب معنا ثم قائل السلطان لأمراء معتبنا له ومصيا: أما نستطيعون، يجيء إليكم فلان - وهو من عرفهم وعرفتهم محل والده في الدولة - فلم يكن فيكم من يحمل له شيئا ولا يعمل له دعوة. والله لقد تركت له أرسل إليه نفقة ولا أعطيه إقطاعًا لأنظر ففعلكم. وبالغ في لومه، فقلل له: قد زوجتك إمرأة الأمير كند غدي، وأمر لم لمال. وكان هذا كند غدي من أكابر أمراء السلطان محمود والسلطان محمود، فجعله (السلطان محمود) مع أخيه الملك طغرل اتباكا له ومديرا لدولته فحسن له العصيان على أخيه السلطان محمود وجمع له الأساقفة، وكثرة وعظهم، فشدوا، فاتفق أن مات في تلك السنة، وخلف ولده صغيرًا زوجة، ومن الأموال والبرك (2) والسلاح ما لا يقدر عليه إلا سلطان. فلمما كان الآن، وقال نعم الله ليتزوجها، أرسل إليها يقول لها: إنني قد زوجتك بمداد الدين زنكي، فأستمعت ثم أعجبت. فقال: فركب زنكي من غد دخلته بها ومعه ولد كند غدي، وهو في مروكي غزية من أصحابه، وأصحاب كند غدي، واخرجت له زوجته من الخيام والبرك ماليساً لأحد في العسكر مثله.
ذكر إقطعه البصرة من السلطان

ثم إن السلطان أتاه في ذلك الوقت الخبر بأن العرب قد اجتمعت ونهبت البصرة، فأمر أتابك عماد الدين بالمسير إليها. وقبحه إياها لما كان يبلغ عنه من الحماية لها في العام الماضي. وقت اختلاف المساكن والحروب. وأمر بالحفاظ والاحتباط.

وكان قد قيل للسلطان إن الخليفة قد باشر الحرب واجب جمع المساكن، وخوف ناحيته، فتقدم إلى عماد الدين بسرعة أحوال واسط وتجنله إلى معرفة حالها. فإن قصدها عسكر من الخليفة يسير إليها ويخفها. فسار إلى العراق وأقام بالبصرة. وأحسن السياسة لأهلها وحماية لهم من العرب وغيرهم. فصار يرسل طوائف من عسكره في وقوعون بالأعراق، ففانت البلاد والطريق، وواصل السلطان بأخبار العراق حتى لم يخف عليه منها شيء.

فعظم ذلك عند السلطان وزاد محله عده.

ذكر ولايته شحنكية بغداد

كان قد جرى بين يرنيتش الزکوي شجاعة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله فدله، فتهده المسترشد، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة وخمسين سنة، شكاكيا من المسترشد بالله، وحذر السلطان جانبه، وأعلمه أنه قد جمع المساكن عازما عليهم منعه عن العراق.

وقال له: إن تأخرت عن العراق إزاد قوة ومنعك من البلاد. فتجهز السلطان إلى العراق، فأرسل إليه الخليفة يطلب منه أن لا يأتي بغداد هذه الدفعة لخرب البلاد والغبار الذي بها، وبذل له على تأخره مالا كثيرا. فلما سمع السلطان الرسالة لم يجب إلى التأخر.

عن العراق وصمم العزم على الحركة.
فلمَّا بلغ الخبر إلى الخليفة عبره وهله وحَرمه وأرباب المناصب إلى الجانب الغربي في نفي القمعة. مَهَأه للغرض، والانتزاح عن بغداد إن قسمها السلطان. فلمَّا خرج من داره بكى الناس بكاء غليظاً، اتصل الخبر بالسلطان فظلم عليه، وأرسل إليه يستطعه وسائه الحور إلى داره، فعاد الجواب: إنني أمرت بالتأخر لخرب البلاد وهلاك الناس وعدم الاقوات، وقَدْ رَوْيَ له: إن قصدت العراقة فنحن راحلون عنا بالأهل والممالك. فاغتاظ السلطان من ذلك ورحل إلى بغداد، فلما كان عبد الناصر، أمر المسترشد بالله بان تنصب السراقة والمَنْبِر، وأحضر خواصة وأرباب المناصب وأعيان الدولة، وصل هو الناس يوم العيد وخطبهم، ففي الناس لخطبته بكاء غليظاً.

ثم إنه أرسل عفيفة الخادم في عسكر إلى واسط، وبها عماد الدين زنكي، وكان قد خرج من البصرة لحفظها وبحضتها، فلمَّا وصل عفيفة، أرسل إليه عماد الدين يجذبه القتال ويأمره بالعود، فلم يلقبه إليه، وجاء حتى نزل بالجانب الغربي من واسط، فعبر إليه الشهيد وقاتله قتالاً شديداً، فانهزم عسكر عفيفة، وقتل منهم جماعة كبيرة وأسر مثلهم، وتجاوز عن عفيفة حتى نجا، ولو شاءُ لأحده.

ثم إن الخليفة جمع السفن جميعاً إليه، واسداً بواء الخلافة سوى باب الدين، وأمر حصب الباب، ابن الصاحب، بالقائم فيه يحفظ الدار، ولم يبق من حواشي الخليفة بالجانب الشرقي سواء. ووصل السلطان إلى بغداد في عشرين من ذي الحجة، ونزل بالمشاشية، ودخل بعض عسكره إلى بغداد ونزلوا في دور الناس، ولم يزل السلطان يرسل الخلافة بالعود ويطلب الصلح وهو يمنع، وكان يجري بين العسكرين مناوشة، والعامة من الجانب الغربي يسرون السلطان أفشى سب.

ثم إن جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة في الحرم.
سنة عشرين وخمسين، ونهبوا التاج وحجر الخليفة، وضم أهل بغداد. فلما رأهم الخليفة يهودون داره، خرج منهم السراقة والأشمنية على رأسه والوزير بين يديه، وامر بضرب الكوستات والبوقات، ونادي باعلي صوته: يال هاشم، وامر بتقليم السفن، ونصب الجسر وعبر العسكر دفعة واحدة. وكان في الدار ألف رجل مختقين في السرايد فظروا - وعسكر السلطان قد أشتفوا بالنهر - فاسروا جماعة من الأمراء، ونهبهم العامة دار وزير السلطان ودورة جماعة من الأمراء، ودار عزيز الدين المستوفي، ودار حكيم، احذ الزمان الطيب، وقتل منهم خلق كثير في الدروب، ثم عبر الخليفة إلى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون ألف مقاتل من أهل بغداد والأسود، وحفروا الخنازير في الليل، وحضوروا بغداد من عسكر السلطان، واشتد الفلاحة عند العسكر، وعظم القتال كل يوم على أبوب البلد وعلى شاطئ نجلة.
وعزم عسكر الخليفة على تبييت عسكر السلطان، فقهر بهم الأمير أبو الهيجاء الكردي الهذاني صاحب إربل، وخرج كأنه يريد القتال والتحجر هو وعسكره بالسلطان.
وكان السلطان قد ارسل إلى عماد الدين زنكي يأمره ان يحضر بنفسه، ومعه المقاتلة في البحر والماء، وان يكثر من السفن مما امكنه. فجمع السفن من البحر وواسط البحارة، ولم يترك ما بين بغداد والبحر سفينتين إلا استصحبا وصحبتهما بالمقاتلة، وأصبح في البحر والسفن سائرة في الماء، فلما قارب بغدادن نشر الأعلام، وظهر السلاح، وخرج بعض من السفن إلى البحر فاملات الأرض والماء بجمالا وسلاما، فرأى الناس منظرا مشجعا وعظم ذلك في أعينهم، وركب السلطان والمساكين فراوا ماما قلوبهم وعيونهم، وازداد عماد الدين عند السلطان منزلة، واستدل على كفاهته ونهضته وحسن سياسته، فأن البلاد التي كانت بينه لم يكن عسكرها يقدر بفارغها ليحفظوها، فالخروج منها هذا الخلق الكثير، ولم يتعرض إليها أحد بائنا.
وكان الخليفة لما هرب الأمير ابو الهيجاء وبلغه مجيء عمام الدين - قد ضعفت نفسه، وعلم أن عمام الدين يجيء ويقاتله في الماء. ونفّذ أمر المبحة عنهم، وقاتلهم السلطان في البحر، فعمّد عليه الخطر، فهيناث راسل السلطان طلبا في الصلح. وترنّدت الرسالة بينهما فاستلحا وغدا ما كتانا عليه، واعترض السلطان مما جرى. وكان حليماً يسمع سبه يانبه ولا يعاقب عليه، وقعا على أهل بغداد جميعهم. وكان بعض أصحابه يشيرون عليه أيام الحصار. بحراق بغداد فلم يفعل، وقال: لا تساوي العراق بعض هذا. ونا تم الصلح، اقام السلطان بغداد في عاهر ربيع الآخر. وحمل الخليفة اليه كل ما استقرت القاعدة عليه من المال، والسلاح، والخيل وغير ذلك.

فلما اراد السلطان الرحيل، نظر في من يصلح أن يلي شحذية بغداد والعراق. يأمن معه من الخليفة ويضقّب الأموات. فلم ير في أمراء أصحابه من يصلح لسد هذا الباب العظيم، ورفع هذا الخطر. وسرعان من الاستغاثة، وقوى نفسه على ركوب هذا الخطر. غير عمار الدين زنكي، فلؤاه شحذية العراق مضافًا الي ما بيده من الاقتضاء، وسار السلطان عن بغداد. وقد اطمن قلب منه جهة العراق، حيث استند إلى الكافية القيم بأمره.

ذكر قتل البرسقي، شيء من سيرته رحمه الله تعالى.

في سنة عشرين وخمسماة، قتل اقسندر البرسقي بالجامع العتيق. بالوصول بعد الصلوة يوم الجمعة، قتل بخطيئة. وكان رأى ذلك الليلة من متى أن عده من الكلاب كاروا به، فقتل ببعضها، ونال منه الباقوين أنى شنيدا، فقض رؤياه على أصحابه، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة ائام. فقال: لا تترك الجمعة لشيء ابدا. وكان يشهد في الجامع مع العامة، فحضر الجامع على عادته.
۶۹۲- فثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أذفوسة، فقتله، بيده منهم ثلاثه، وقتل رحمه الله.

وكان خيرا عادلا، لين الاخلاق، حسن العشرة مع أصحابه، حكي لي والدي، رحمه الله تعالى، قال: حكي بعض الغلامان الذين يخدمون البرسقي، قال: كان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة، وكان يتوضأ هو بدنسه ولا يستعين بأحد، قال: فرأيته بعض ليالي الاهتاء بالموصل، وقد قام من فراشه، وعلىه فرجبة وبر صغيرة وبيده ابريق نحاس وقد قصد ديمة لأخذ ماء يتوضأ به، فلما رآيته قمعه إليه لأخذ الإبريق من يده، فمنعني وقال: يا مسكون إرجع إلى مكانك فإنه برد، فأجتهدت به لأخذ الإبريق من يده فلم يفعل، ولم يزل حتى ردني إلى مكاني ثم ترضا ووقف يصلي، وذكر لي من أحواله الحسنة أشياء لم أطول بذكراها.

ذكر ولاية ابنه عز الدين مسعود ووفاته

لم قتل البرسقيا، قام بالموصل بعدة ابنه عز الدين مسعود، وارسل إلى السلطان يطلب أن يقرر البلاد عليه، فاجابه إلى ذلك واقتروه على ما كان لأبيه من الأعمال، فضايب البلاد وقام فيها القمام المرضي، وكان شاباً عاقلاً، فجمع عساكر أبيه وحسن إلهمه، وكان يدير الأمر بين بديه الأمير جاولي، وهو مملوك تركي من مماليكه، وكان أيضاً عاقلاً حسن السيرة، فجرت الأمور على حسن نظام، فلم تطل إياهم، وأدركه في عدوئان شابه حامه وتوفي سنة إحدى وعشرين وخمسين، فولى بعده أخوه الأصغر، وقام بتبدير دولته جاولي أيضاً، وارسل إلى السلطان يطلب أن يقرر البلاد عليهم، وبذل أموالا كثيرة.
ذكر ولاية المولى الشهيد عماد الدين زنكي الموصل وسائر بلاد الجزيرة

ذبتاءً قبل ذكر ملكه للبلاد، بذكر الحدث الذي كان عليها المسلمين من الهم والضعف، وانتماءهم من القوة، فقولنا لما ملك الله الشهيد البلاد، كان الفرنج قد أتسعت بلادهم، وكثرت اجنادهم وعظمت هيبتهم، وزارت مداراتهم، وتضاعفت سقوطهم، وعلا شرهم، واشتد بطشهم، وأمامت إلى بلاد الإسلام أيديهم، وضعف أهلها من كف عنايتهم، وتتابع غزواتهم، وسماو المسلمون سوء العباد، وركوبهم بالانتصار والتلبث، واستطار في البلاد شرهم، ومن أهلها شديد حيفهم، وعظمهم قهرهم، فنجوم سعد المسلمين متكررة، وسماء عزم منفظة، وشمس إقبالهم مكررة، ورانيات المشركين خلال بيار الإسلام مذشورة، وانصارهم على أهل الإيام منصور.

وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين، وشجعته إلى عريش مصر، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب، وحمص، وحماة، ودمشق، وكانت سراهم تبلغ من نيار بكر إلى أم، فلم يبقوا على موحد ولا ماجد، ومن بيار الجزيرة إلى نصيبين وراس العين، فاستلصموا ما لاهلها من أثاث وعين.

وأما الرقة وحران، فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار، واستضعاف وانكسار، كل يوم قد آتناهم البول، ومنعواهم القران، والصفاء بهم الصغار، فهم ينادون بالويل والثبور، ويودون لو أنهم من ساكني القبور.

وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر، فكان التجار والمسافرون يلقون من الخفاو، وركوب المفرزة تعبا ومشقة ونصبها، ويخاطرون بالقرب من العرب بأموالهم وانفسهم.
- ۶۳۹۴ -

ثم زاد الأمر، وعظم الشر، حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً واتازوا، باخذونا منهم ليكفوا أيديهم عنهم، ثم لم يقتعوا بذلك، حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق من أخذ من الروم والبربر وسائر بلاد النصرانية، وخيروهم بين المقام عند أربابهم أو العود إلى أوطانهم، والرجوع إلى أهلهم وأخوههم، فمن اختار المقام تركوه، ومن أثر العود إلى أهله اخذهوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة المسلمين وصغاراً، وكافرون قدرة واقتساراً.

وأما حلب فانهم اخذوا مناصفة أعمالها حتى في الرحا التي على باب الجنان، وبينها وبين المدينة نحو عشرين خطوة.

وأما باقي بلاد الشام، فكان حالها أشد من هنين البلدين.

فلمّا نظر الله تعالى إلى ملك البلاد الإسلامية وأمراء الملة الحنيفية، وما هم فيه من العجز عن نصرة الدين، والوهن في حماية الموحدين، ورآى قهر عدواهم لهم، شهد على صلاته، وما نصب عليه من دلل كله وويله، إخياً للإسلام وأهله، وانف لهم من خلال عدوهم لهم وأسره وقته، فحينئذ اراد الآخر يسلط على الفرنج من بسوء افعالها يجازيها، ويرسل على شبايين الصليبان رجوماً منه تهلكها وتفتنيها، فنظر في جريدة شجعان أولائه، وذوي الراي والنجدة والشهامة من صفياته، فلم ير فيها أقوى على هذا الأمر من الدولة الشهيد عماد الدين زمني ولا أثبت جناناً، ولا مضى عزماً، ولا انفع سناً، فولاه الثقور، ورعاية الجمهور، كما يقول القائل:

رماها بحب منه حتى كأنما
بدولة نوح في العصاة رماها
اخي الحرب يصلها بنفس كأنما
تزاهم في ضنك الوعي بسواها
كتاب لا تكون بالفتوح كأنما
تبكي النجوم الطالبات قناتها

- ۱۴۹ -
لفظاء الفريج في عقر بيارهم، وانشد للوعدين منهم بتأمرهم، فاصبحت أهل الإسلام مبدرة بعد شرارها، وسحور الإيمان منيرة بعد طمس انوازها، وماس المسالون في حلل مسن النصر فضاضة، وردوا مثال من الظفر فياضة، واستطروا من أهل التثليث حصننا ومعاقل، وفازهم بما اسلفوا من النخيل والطوابق، والشياب، بما التوحيد بالديار الجزيرة، والشام، جرجانه، وباها فيها أنصاره وأعوانه، وفرح نصر الله واستبشر، وقال، يا أهل الشرك لا عاصم اليوم من انصاره ولا وزر، فعبس الكفر وسر، ثم ادير خاضعاً ولم يستكبر، فبالها نعمه على التوحيد واهلها، ونقوطة زمن من الشرك شمله، واسترى ما اجمله، مفاصلاً، ومما اختصناه مطولاً، هذا سوى مكارم اخلاق أدرك جوابه، وحسن سياسة إعتقل بمحكم أسبابها، يرد ذكرها عند قتلها قدس الله روجها ونور ضريحة.

وأما ملك البلاد، ففي شهر رمضان من سنة إحدى والعشرين، وبخسات، قال: أولى عماد الدين زنكي بن اقتصدار الوصل، والديار الجزيرة، ونصيين وما كان بيد البسطي. وكان سبب ذلك: أن عز الدين مصعود بن البربري لما توفي وقام بالبلاد بعد نحو، وتولى أمره جاويش، أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرر البلاد عليه، كما ذكرنا. وكان واسطة ذلك الفاضي، الذي أتاهم ابن ابا الحسن على بن الشهر صبري، وصلاح الدين محمد الابغاسي، فحضرا ببغداد لخطأ السلطان في ذلك، وكان يذكَّر جاويش، ولا يدين بخطورته، ولم يفزع بخطورته. فاجتمع صالح الدين ونصير الدين جقر، الذي كان أعظم أصحاب أتابك، زنكي منزله، وكان بين نصير الدين وصلاح الدين مسيرة، فذكر له صلاح الدين ما قد له، فخوفه نصير الدين، من جاويش وتحطمه على صوابه، وقال له: إن رأيت أن تطلب البلاد لمصائد الدين فهو والراي، لأن السلطان صورة وفنا وانثى معنى، ففاجأه إلى ذلك وابحده إلى الفاضيا،ينابيف الدين، أو الشهور، وتحدث عنه، ومعه نصير الدين، ومناه، وضمن مهناه. — 150 —
له عن عماد الدين من الأمة والاقتض والإوقوف على اختباره ماجوز الأم، فأتجاب بهاء الدين أيضاً، وركبه يوم صالح الدين إلى دار الوزير وهو حينئذ ذهب شروان بن خالد - فقال له: قد علمت أن السلطان أن البلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج (عليهما) وتمكنو منهما وROYتكم، وقد كان البرسيقي يكف بعض عادتهم منذ ذلك، فأتزارد طوعهم، وهنا ولده طفل، ولا يد للبلاد من شهيب شجاع يذب عنها ويخوي حوزتها، وقد إنهنال الحلال إليه، إلّا يجري خالٍ وحسن على الإسلام والمسلمين، فتحملن جثمان السلطان، واللوم حسن البلطان، فانهى الوزير ذلك إلى السلطان، فقال: من تريان يصحبه هذه البلاد، فقد نصحت الله تعالى والمسلمين، فذكرنا جماعة فيهم عماد الدين زنكي، وعزمت محلة أكثر من غيره، فصالح السلطان في توليته، لما علم من شهامته وكفايته وعة ولده، وأمرها بالحضور عند، وفصل الحال في خدمة يحميه، واستقر الحال وولاة البلاد جميعها، وكتب منشوره إلى بغداد.

وسار زنكي إلى الدوازيج ليماكها ويتقوي بها، ويعلمها ظهوره من صده جوالي على البلاد، فلما استولى عليها سار عنها إلى الموصل، فحين أن اتصل خبر وصوله بجاولي، خرج إلى لقائه ومعه العسكر جميعه، فلم رأء الشهيد، نزل من فرسه وقبل الأرض، ثم قبل يده وعاد في خدمته، فقاتل زنكي بالرحبية، وأعماله، وسيرة إليها، واقام هو بالموصل إلى أن يصالح أمرها ويركت قواه، فلما نصير الدين دزديرة الموصل وفوض إليه أمر الولاية جميعها، وجعل الدزايرية في البلاد لنصير الدين أيضاً، وجعل صالح الدين الباهتسياني أمير حاجب، وجعل بهاء الدين قاضي قضاء بلاده جميعها، وابتزته من البلد، ووقى لهم بها، وعدهم، وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة واقتراهم انبساطه معه وقربا منه، وربما الأمور على حسن حال واحكم قاعدة.
ذكر ملكه جزيرة ابن عمر

ما فرغ الشهيد رضي الله عنه من أمر المصقل، وقررت قواعدها (حشد) الجنود وقطع الوعاكر (ثم) سار نحو جزيرة ابن عمر، فحصروا بها بعض مماليك البرسقي، فامتنع بها قضاء بحصانتها وظاناً منه أنه يتحمي، فراسله عداد الدين وفدل له ورغبه فلم يصغ إلى ذلك، فحينئذ جد الشهيد في قتالها، وببته وبين البلد الدجلة فأسمر الناس فادفوا أنفسهم في دجلة، بعضهم سباحة، وبعضهم في الصفن، وكثاروا على أهل الجزيرة، وكانوا قد خرجوا عن البلد إلى ارض بين البلد وبين دجلة تعمر بالزلاقة، ليمنعوا من يريد عبر دجلة، فاتتالوا هم وعساكرهم عبروا الماء، فانهزم عساكر الجزيرة، وملك عساكر عمار الدين، فلما رأى من البلد ذلك، ابتدأ أن البلد يؤخذ عذبة إن لم يأمنوه، فأرسلوا إلى عداد الدين - وكان قد عبر دجلة أيضاً مع عساكر - وطلبوا منه الأمان وقاعدة تقرر بينهم، فاعجبهم الى ذلك، وتسام البلد وبذله هو وعساكره، فانهزم أن دجلة زادت تلك اليلة زيادة عظيمة، حتى انسحبت الماء بسور البلد وضعف فيه أكثر من قامة، واستمرت الزلاقة بالماء، فلم تأخير دخول الشهيد إلى البلد يومهم ذلك، فغرقهم الماء عن أخرين ولم ينج منهم أحد، فلما رأى ذلك الناس، ابتدأ بسعادته وعلموا أنه أموراً هـذه

ذكر ملكه البلد الجزرية بقوة واقتدار

قال: فلما فرغ من أمر جزيرة ابن عمر، سار عنها إلى نصيبين - وكانت لحسام الدين تمترش ببن أيغالي صاحب مارين وغيرها - فلما نازلها الشهيد، سار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة داد بن سقمان صاحب حصن كيفاً يستتجه على
دفعت أتراك عن نصيبين، فوعده النجدة وجميع عساكره، وعاد حسام الدين إلى ماردين، وسهر رقاعا على اختواء الطيور على نصيبين، يعلم من بها من الأجانب، وأنه عمه ركن الدولة سائران في عساكر الكثيرة، ويارهم بحفظ البلد ثلاثة أيام، فبينما أتراك الشهيد في خيمته إذ رأى طائر قد سقط على خيمة تجاروها، فامر بصيده فاصطحب، فرأى فيه رقة ففتحها، وأها الرقة المذكورة، فامر فكتاب غيرها، يقول فيها: من حسام الدين، إثنى قد قصدت ابن عمسي، وقرد وعني بالنصرة والمسير في عساكر، وضعم وصوله إليها أكثر من عمرين يوما، ويارهم بحفظ البلد في هذا المدة، وشدا على جنات الطائر وارسله، فلما رأى من فيه الرقة، خافوا على نفوسهم، وعلموا أنهم يعجرون عن حفظ البلد هذه المدة، فأرسلوا إلى الشهيد وصانعه وسلموا إليه القبلة، فبطل على داود وتورشان مكتان عما على، وقد جرى مثلها للدولة السعيد دور الدين أرسلان شاه على نصيبين أيضاً سنة أربع وتسعة وخمسين، ونحن نذكرها إن شاء الله تعالى في موضعها.

قال: فلما تسلم الشهيد نصيبين، سار عنها إلى سنجار فامتنت عليه وقاتله من بها، ثم إنههم سلموها إليه واتسروا بخدمته، وسير منها الشحن إلى الخابور فصله جميعه، ثم سار إلى حران - وكانت الهرة وسرج وغيرهما من نواح الجزيرة للفنجر لعنهم الله - واهل حران معهم في ضيق عظيم. اذلوا الامراء من حام بين عنها أو سلطان يمنعها فلما سمعوا بإن كنهم الشهيد البلاد واستيلائه عليها، واذعان من بها إليه، قويت نفوسهم، وعليهم أنهم قد أتاههم نصر من الله وتفتح مقرب، فرأوا لهم بالطاعة، واستحذوه على الوصول إليه، فقد نفوسهم مجدداً حتى نزل بساحتهم، فاستبشروا بقدومه وخرجوا إلى إلقائه، فودعم ومناهم.

وأرسل إلى جوسرين صاحب الريها وغيرها من البلاد التي بيد
الفرنج بالجزيرة وهايته مدة يسيرة. يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء، على مابق لهم من البلاد الشامية والجزرية، وأصالح شانها، والفراغ من اقتصاد بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم.

وكان أهم الأشياء عند عبور الفرات ملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية، فاستقرت قاعدة الصلح بينه وبين جوسيلين على مختاره.

ذكر ملكه مدينة حلب وحماة.

كان الفرنج خذلهم الله تعالى قد استضعفوا بلاد الشام الإسلامية، فتابعوا الغزوات على أهله وقصدوا محاصرين لها لو خلاها من حام ومانع، وقد قوي طعمهم في ملك مابق في يد المسلمين من البلاد، لايعلمون مسانده الله سبحانه في سر الغيب، وماقبره من الانتقام منهم وإدالة المسلمين عليهم. بله، (غيب قلوهم) (ويشف صدور قوم مؤمنين) (الثواب 14-15)

وكان الفرنج يقاسون أهل حلب على رحا بباب الجنان. بينها وبين المدينة أذروه بسيرة، فلما سمع من بقية بعماد الدين وقربه منهم، رأسه إلى يوسف بن بسانتصوره، وأذعدو له بالطاعة، فسأر إياه فلما عاصر الفرسات، ملك مسحدة منج، وحصن بزاعة وسار إلى حلب، فالتقاه أهلها وأظهروا من الفرح والسرور به مالا يعلمه إلا الله سبحانه تعالى، وكان ملكه لها سنة اثنتين وعشرين وخمسين.

ولولا أن الله تعالى من عى المسلمين بولاية الشهد، لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعًا، فإنهم كانوا لهم من أتباع طفلكين شاغل ومانع عن بعض أراضهم، وكانوا متي حصروا.
حَلِب وَسُلَّمَ، زَيَّنَهَا جَمِيعُ طَفْقِكَ، يَسْرُكَ وَسُحُورُكَ فِي رَحْلٍ، فَقَدْ
اللَّهُ تَعَالَى أَنَا تَوَفَّيْتُمَا أَشْتَينَ وَعَشِيرَىٰ وَخَمْسَمَائَةٍ، فَخُلْقَتُ الْبَلَاد
بِالْمَرْعَة، وَصَحُّ قَوْلَ الْيَتِمِّيِّ صَلِّي الله عَلَيْهِ وَسُلْطَمُ، لَمْ تَخْلِقَ الْبَلَادُ مِن
قَائِمِهِ الْبَنِيَّة، وَلَعَفَّ الله بِالسَّلَمِ الْبَالِسِمِينَ بِعَدَدٍ، وَوَلَى الْشَهِيْدَ
قَدَسَ اللَّهُ رَحْمُهُ، وَلَمْ يَفْكَرْنَ بِصَاعَدَهَا، وَيَصْلِحُ
أَمْرُهَا، وَيَعْمُرُ مَاخِرَهَا مِنْ يَهْوَةٍ، بَتْوَالِيَ غَارَاتِ الْفُرَّانِ
عَلَيْهَا، فَفَرَغَ مِنْ جَمِيعِ مَالَارَاهَا.

فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَعَشِيرَىٰٰ، وَخَمْسَمَائَةٍ، سَارَ الْحَمَّة
فَمَلْكَهَا.

ذِكْرُ الْحَرَّبَ بِتَبَّعٌ الشَّهِيْدَاتِ أَتْتُمَاكِ وَبِنِي الْمَلْوَکَ
الْإِرْتَقَاقِة وَمَلْكُ مِدِينَةٍ سَرَجَة وَداراً وَمَا إِلَيْهِمَا.

فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعَشِيرَىٰ وَخَمْسَمَائَةٍ، اجْتَمَعْ رَكَنُ الْدِّوَانِ بِن
سُقُمَانِ صَاحِبُ الْحَصُّنِ وَحَرَّمُهُ، وَحُسَامُ الْحَنِينِ تَمُرْتِشَا بِبَن
اِلْغَازِيٍّ، وَهُوَ اِبْنُ عُمْدَاءٍ، وَأَنْضَمَّ لِيِهَامُ يَمْعَامُ إِمَّ وَإِبْرَاهِيمُ
ذِكَرَنَا. وَجَمَعَنَّهَا أَلِمَاءُ مِنْ آدِمَ، وَأَنْزَلَنَا قَدْرَتَهَا إِلَى جَمِيعِهَا، وَمِن
الْمُسَاكْرِ، وَالْمُطْعَعَا، وَكَانَ دَاوُدُ مَطْعَعًا فِي الْمُسَاكْرِ، حَتَّىَ أَن
نَشَأَتْ كَانَتْ أَذَا وَقَتَلَوْهَا مَنْ، تَبَرَّكَ بِهَا رَجُالُهَا وَبِنَاسَهُمُ
فَأَسْتَجِدُوا، فَأَجَارَنَاهَا عَلَى الْصَّعُبَ وَالْإِلَّا، فَأَجَارَنَاهَا
فِي نَحْوٍ إِلَفِ مَقَاتِلٍ، وَسَارَ إِلَيْهِمُ الشَّهِيْدَ، وَأَنْجَيْنَهَا بِالْمَرْحَبِ مِن
دَارَا، وَهِيَ لَهُمْ أَيْضًا، فُيَتَّلَأنا شَرَعَهَا، صَبْرُ (فِهِ)
عَسْرُ الشَّهِيْدِ، وَهُوَ نَحْوٌ أَرْبَعَةٍ الْفَارَسُ، الْجُهَرُ، وَقَتَلْنَهُ
وِصْبَرُ عَسْرُ الْإِرْتَقَاقِة لِكُلْدُهُ، ثُمَّ أَنْجَتْ الْوَقَعَةَ عَنْ هُمْ-
زَيْمَةٍ الْإِرْتَقَاقِة، فَلَمْ يَهُزَّمْنَا حَصَرَ سَرَجَة فَمَلْكَهَا وَاتَّبَغَنَا إِلَى دَارَا فَمَلْكَهَا
أيُّضًا، فَهُمْ لَيْ كَيْ لَوْ أَنْزَلْتُ أَلْفَ فَارَسًا عَلَيْهِمُ، فَقَلَّ فَلَمْ يَهُزَّمْنَا سَارَ رَكَنُ الْدِّوَانِ
مِنَ الْمَعَامَة، وَمِنْ سَلَم، فَسَلَمُ مِنْ عَسْرِهَا، فَقَصَدَ بَلدَةَ جَزِيرَةٍ إِبْنَ عَمَر
فَنِهِيَهُ، وَأَخْرِبَهُ، وَبِلَغَ الْخَبَرَ إِلَى أَتَابُوُّ فَسَارَ نَحْوَ الْجَزِيرَةٍ، وَأَرَادَ
- ١٥٥ -
ان يتبعه إلى ديار بكر، قُلَّ يُمكنه لضيق المسالك وخشونة الطريق بها، ومع هذا فجميعها لذاود، فخاف أن يمسك عليه المضاءق ويناله ادِى، ثم إنه صالح الأقوم وعاد عنهم.

ذكر فتح حصن الآثارب من الفرنج

لما فرغ الشهيد قدس الله روحه من أمر الملاك الارتقية وصالحهم وأمن ناحيتهم وسار إلى الشام وقد جمع واختصد وأعد واستعد وصمم الخزام على الجهاد، وإجلاء أهل الزين والعلان، وإعلاء كلمة الله تعالى، وإيضاح كلمة الشيطان، وتسليط أهل الحق على عباب الطاغوت وأتباع الصليان، وقصد إلى حصن الآثارب وناله، وانزل بأهله للإحبار، وعم بلادهم بالتهب والإحراق والتخريب، وكان هذا الحصن أضر شه على أهل حلب، وكانوا مع من فيه من الفرنج مابين حزب وحرب، وقد اجتمع فيه من فرسان الفرنج وذوي الباس، كل معرروف بشدة المراس، إذ هو من أخطر نقودهم، وهو من المسلمين في نحوهم، فتتابع الشهيد، وأدمن نزالهم، وصبر عليهم العذاب من كل مكان، ولاذ من به من سلطته وبأسه بالجدران، وعمهم الرعب فضاروا يحسون كل صبيحة أنى يسلكون، وضغط في اينهم وضلل عنهم ملأ كنونا يفتتحرون، ومع هذا فقد حفظوا خصصهم واحسنا الذين عنهم وعنهم. فلما علم مال الفرنج الحال، جمع الفرسان الفرنجية واستشارهم في الذي يصنعون، وألبم جيلها في دفع عن بلادهم يدفعون فأما أهل المغرة والجهل فهو نوا حاله، وبدأنا من انفسهم قتاله، ظنا منهم أنه كمن تقدم من الملوك، لا يستطيعون غير القرر من الزحف، والاحتقاء بعرض الأسوار لابداد الأنسة ورفاق السيفون، فعارضهم بعض من حضر من شباطينهم وذوي الريف بالتجربة من طواوته، وقال: إن أرى شرار سيكون له ضرر، ودخانا تحته شواذ، اليهس هذا الغضنفر الذي أثر في طبيعة بمفرده مائر، فكيف به اليوم، وهده في عدة وعديد، ومتطوعة وجدود، فطالوا قتاله ليلاني.
ولا تسردوا إلا دفعه سير السواني (33)، فلابد لهذا العرض أن يملأ سياكه الوادي، ولهذه النتائج أن تتم بشريها النادي، ولهذا القدام أن يصل ضرره إلى الحاضر والبابي. ولن يمنع قبضه بجميع ننتصف منه بها، ونلحقة بين تقدمه من مقدمي الجيوب، ليكون لنا منه يوم صعب، ولأخن للمسلمين منا باوفر نصيب، فحينئذ إهتموا بجمع الأفرسان والأجاند، وأحضروا من في أطراف البلاد، وجمعوا الدائن والقاضي، والمطع والناصري، وأقبلوا في جموعهم المحشورة، وعساكرهم المجرورة، وأعلامهم المشحورة، وصلابتهم وبدونهم، وماوكهم وفرسانهم وقوتهم، واجروا إليه وقد غص بهم من الأرض جذوبها، وامتد منهم شمالاً جنوبها. هذا والرعب قد اطلق الله في قلوبهم فهم منه جلاؤون، والخوف قد عرم رئيسهم ومرؤوسهم، فهم منه خائفون، يقمون في مسيرهم جالاء ويوصرون أخرين، ويعتقدون أن المقام بهم أولى وأخرى، لكل وأجاههم تسوهم إلى مصارعهم، فهم نحوها يبرزون، وكأنما يستقوان إلى الموت وهم ينظران.

فأشار وقائعه استثمار الدولة الشهيد وزراء وأمراء، فانحرافهم بالعود إلى حلب، ومحاولة الفرنج إلى أن يتفرقوا، فقال: هذة خطأ خسر تجرهم عليتنا، وطمعهم فيما لنا، لان الراي أن نستعين بالله عليه ونلاقاه، فإننا لنا وما عليتنا وناهبا للقادة، وسارة إلى القادة، فلم يعدهما وقفاهم، ولم يغب الحصن عنه حتى آتاههم، ونشبت الحرب بين الفرنسيين، واشتد المطر والضرب بين الطاقفين، وحمي الشهيد للإسلام، وانتصر، وليس لأعداء جهل التمر، وصال عليهم زار، وقال لهم ذووقهم من سكر، وظل يسعهم بحملاته حضا، ويستاهل رأسهم هدا، ويخفض أصحابه ويذمهم ويتتابع الحملات عليهن، بأمرهم.

ففيه رأى الفرنج ما قد احاط بهم من البلاد، وعمهم من الشدة والأزواد، علموا أن الهزيمة أصلح لهم من العطب، وأين لهم ذلك.
وقد علقت معاليها وصر الجنبد (۲۴) وحيل بينهم وبين مايشتهون، كما فعل بأشياءهم من قبل، وكثر فيها الأسر والقتل.

فلم تعذر عليهم الهزيمة، حمروا انفسهم اللثيمة، وأمرهم ملوكهم بالصبر والثبات، والجلاد عن البنين والبنات، والأباء والأمهات، والأخوة والأخوات، فحينئذ صدروا القراع، وأحسروا المأساة، وصال ملوكهم وقاصصتهم وفرسانهم ودايتهم وقاتلوها قتال من آيس من النجاة بالانهزام، فطلبهم بصدق القتال والأقدام، وليهم الشهيد لقاء محتسب للأخرى.

فثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أخماسه الحشر:

فقلقُ هو وأصحابه الهام، وبروا العظام، واجل الروعة عن رؤوس بلا غلامم، وآيد بغفر معاصم، وانحشت سيف الله من أعناق أعدائه أعماداً، وأدرك خيله منههم ثاراً وأحسنت جلاداً، وأمر الشهيد فيهم بالاتخاذ، ومنع من الأمر وإعطاء الأمان، فعلات جنشت القتلى تلك الصحراء في الصوح وائر، وتأول قوله تعالى ( ما كان لبني آدم يكون له اسرى حتى ينخن في الأرض (۲۵) وأقصد أن ينال قلوبهم رعباً، ويدعوه عن البلاد سربا سرباً، فلم ينج من المعركة إلا من انخدت الليل جملاً أو ابتعث بالاختفاء بين القتلى موتاً، فلم استمر له النصر، وأل به الى الظفر الصبر، رجع الى الحصن فملكه عذوة وقبرها، وجم كل من فيه قتلاً وسبياً واسراً، ولقد سمعت من يحكي أن عظام القتلى لم تزل بتلك الأرض نحيلة، ولكن الحصن أخر به ومحساً أطره، وأزال من تلك الأرض ضره، كما قال فيه الشاعر حيث يقول:

- ۱۵۸ -
ماربيع مية معمرا يطيف به غيلان ابيه ربي من ربعها الخرب
ولاالحدود وان ادمين من خجل اشيء الى ناظري من خدها الترب ( 26 )
قال: ثم رحل الى حصن حارم فحصره، فانقذ من لم يحضر المعركتين من الفرينج ومن نجا منها يسالون الصلح، وبيبذلون له المناصفة على ولاية حارم، فاجابهم الى ذلك، لأن عسكره كان قد كثر فيهم الجراحات والقتـال، فـفازا أن يـسـتـرـحوا ويرحوا، فهانهم وعاد عليهم وقد أبقى المسلمون بالشام بالامن وحلول النصر، وسرت البشائر الى البلاد، وأعلنت في الحاضر والبادي.
ذكر وفاة السلطان الملك مغيث الدين محمد بن محمد بن ملكشاه
في سنة خمس وعشرين وخمسـمائة توفي السلطان محمد بهذان، وكان عمره نحو ثمانية وعشرين سنة، وكانت ولايته ماتقارب اربع عشرة سنة، وكان حليما كريما، عادلا كثير الاحتمال، وزير له أبو القاسم الانسابي، وهو الذي سعى بالعزيز المستوفي حتى قبض وسلم الى بهروش شحنة العراق فسجنه بتكرير ثم قتل سنة ست وعشرين.
ولا توفي السلطان محمود، طلب السلطان مصعود بن محمد السلطنة، وطلبها أخو سجووق شاه بن محمد، وذلك دعود بن السلطان محمود، وكان بينهم حروب كثيرة، ذكر منها ما كان للشهيد عمار الدين قدس الله روحه - فيها اثر وفعل، ونتدرك الباقى اذ هو خارج عن غرضنا.
ذكر ملك السلطان الملك العادل مسعود والحروب الحادثة إلى أن ملك

 لما مات السلطان محمود، اتفق الوزير الإسباني واتباع سنقر
الأحمدي على (نويلة) وله الملك فيودر بن محمود، وخطبوا له في
جميع بلاد الجبل واللويستان، وساروا إلى زنجان.

وكان السلطان مسعود بكجنة - وهي له - فلما بلغه موت أخيه
سار إلى تبليز فمالكها، فسار إليه الملك داد فلخذه بها، ثم اخرج
عليها سنة ست وعشرين وخمسين سنة، وسار إلى بغداد وهو في
 عشرة آلاف فارس، وسار قراعة الساق صاحب خز发行stan
وفي بغداد، ومعه الملك سلجوق شاه ابن السلطان
محمود، وقراعة يريد أن يأخذ السلطنة لسلجوق شاه، وقاد اجتماع
معه عسكر عظيم، وأتاه جمعة من الأمراء الكبار، منهم يوسف
جاووش وغيره. فسقق سلوجق شاه أخاه السلطان مسعودا إلى
بغداد ونزل بدار السلطنة، وارسل السلطان مسعودا إلى الشهيد
عماد الدين - تقدس الله روحه - يستميله ويوستنجه، فأجابه إلى
ما طلب منه، وسار عن الوصول إلى بغداد، فبلغ تكرير ليجتمع
بالسلطان مسعود، وكان السلطان مسعود قد وصل عباسية
الخالص قريب بغداد.

فملأ سمع قراعة وسلجوق شاه بوصول الشهيد إلى
تكرير، عبر قراعة إلى الجانب الغربي، وأسرى إلى تكرير في
عسكره جميعه، ولم يخفف ببغداد مع سلوجق شاه غير عدد
يسير، ولم يزل يسير حتى وصل تكرير في يوم وليلة، فوقع عليه
الشهيد فهزمه قراعة وأسر أكثر أصحابه، وعاد إلى بغداد.
أما الأموال فعادوا كأنهم لم يصبوا.

وأما السلطان مسعود فإنه تقدم بكلباسية، وجرى بيئة بينه وبين أخيه سلجوق شاه مناوشة، فلم يبلغه خبر الهزيمة الكائنة على الشهيد، فلذاك في عضده، وضعف نفسه فعاد إلى ورائه.

وكان قد وصل الخبر بوصول السلطان سنجر إلى نواحي همدان، وكان قد خرج في عساكر لا تحصى من خراسان، ومعه الملك طغرل بن السلطان محمد بن زرقة في السلطنة، فلما اتصل كبر وصوله ارسل الخليفة المسترشد بالله إلى السلطان سنجر، فأقام وترتب الرسول واستقر الصلاح على أن تكون السلطنة لمسعود، ويوكون سلجوق شاه ولي عهد وعاد السلطان مسعود إلى بغداد، وتنزل بدار السلطنة، وحضر اخوه سلجوق شاه في خدمته.

وسارا جميعا إلى قتال عمهم السلطان سنجر، والزمان المسترشد بالله بالسير معهما فامتته قرارة الساقى، فخرج مكرها منها وسار بعدهما.

وأرسل السلطان سنجر إلى الشهيد بأمره أن يقصد بغداد وهو ديجس بن سدقة ملك العرب. وكان ديجس عند الشهيد على ما ذكره أن شاء الله تعالى، ويستوليا عليها، ويخطبا له بغداد، وبعده الملك طغرل.

ذكر الحرب بين السلطان سنجر والسلطان مسعود

لم سار السلطان مسعود واخوه سلجوق شاه ابنا محمد إلى حرب عمهم السلطان سنجر، جعلا على المقدمة يرقص بإزار، ويوفس جاووش، وحسين أوزيك، وهما من أكابر الموسوعة الثانية ١٢١٤ - ١٢١٥
الأمراء، فاقتتهن طلائع السلطان سنجر بدأ محمد، فرجعوا إلى
كرمان شاه، وكان على مقدمة السلطان سنجر، والملك طغرل بن
محمد، وخوارزمشاه، والأمير قماح، ورحل السلطان سنجر من
همدان بريد السلطان مسعود، فعلم مسعود عن طريقة قتله، فتبعه
السلطان سنجر فاتقفا قرب النيدور، وكان العساكر كالبحرين
كثره وكان على ميمنة السلطان سنجر طغرل وقماح، وعلى ميسرته
خوارزم مشاه، وعلى ميمنة السلطان مسعود، قرارنة
الساقية، والأمير قزل، وكان قد وطأ خوارزم مشاه على الهزيمة
بين بلده، ليقع الروم في عسكر السلطان مسعود، فلما التقى
العسكري، حمل خوارزم مشاه على قزل فانهمز، واختلطت
العساكر، وارتفع العجاج، وكان يوما مشهد، ومثل قرارنة
الساقية على القلب - وفيه السلطان سنجر في عشرين ألف
فارس، هم أعيان العساكر وشجعانهم وبين يدي الآفية - فلما
تقدم إلى القلب، حمل طغرل وخوارزمشاه فصيملهم، وأتجاوزه
ورة ظهره فصار في الوسط، فقتله إلى أن جرح، وقتل كثير من
اصحابه وأخذ أسلحتها، وأنهزم السلطان مسعود، وقتل يوسف
جاووش، وحسين أوزبك في المصف، وكان ذلك ثامن رجب.

نزل السلطان سنجر، وأرسل بعض خواصه إلى السلطان
مسعود، وقد بلغ خونج، وأمه واستدعاه الله، فحضر عنه
عاته على اقدامه عليه، فاعتذر ونستبه ذلك إلى أيتـکين
الخادم، فأمر به فضربت عنقه.

وأمر السلطان بالسير إلى كتجة. فحكم لي والدي عن جماعة
حضرها ذلك المصاف، قال: حضر السلطان سنجر قرارنة الساقية
عاته على فعله ويخبر، وقال له: أنا حاربي الأمجسي فليس
يبدان يطلبوا السلطنة، وأما النم، فما كنت تسير حتى تجمع
العساكر وتوكب الناس على قتاله، أكان يصير لک من الملك أكثر
من بلاد فارس وخوزستان. قال: كنت أرجو أن أظفر بك وأقتك
وهيكون أولاد أخيك بحکمي، أقيم من أريد وأعزل من أريد. فغصب
السلطان سنجر منه وأمر بقتله، فقتله، وامرأة يشق صدره عن قواؤها فما رأي أكبر منه، فقال عليه حجرًا كبيرًا قدم
يبيعه، فقال: من يكون هذا قواؤه يحدث نفسه بما قال.

وخطب لطفلك ابنا أخيه بالسّلطنة في همّان، وأصفهان، والري، وسائر بلاد الجبل.

وجعل في وزارته ابا القاسم الأنداسباني وزير السلطان محمود.

ذكر وصول الشهيد الى بغداد وهزيمته

ولا سار المسترشد بالله عن بغداد مع السلطان مسعود، اقام
بخانقين بنظر ما يكون من مسعود، فلما سمع بهزيمته وقتل
قراجة، رجع إلى الدسّرة، فأتاه الخبر بوصول أتاك الشهيد
عماد الدين زنكي وديبس بن صدقة إلى بغداد، فأسرع العود
اليها، وعبر إلى الجانب الغربي فيم معه من العساكر، وكان
فيهم كثرة، فاتقوا ثلاث بقيت من رجب سنة سبع وعشرين
وخمساثة، فحكم لي والدي على جمعية من أصحاب الشهيد ممن
حضر المصادف، قالوا: اشترى القتال وظهّرنا على عسكر
الخليفة، ولم يبق غير أن ينهزمو، فرأينا خيبة سوءة قد نصببت
عند المعركة، وخرج المسترشد بالله منها راكبا بسواه وبيده سيف
مسلط، فكلهم قالوا ما رأيناه: احتقا دهشة ورعدة حتى كاد
السلاح يسقط من أبينا، فكانت الهزيمة علينا، ولم تملأ الأثاب
فانهزمنا ونحن لا نعقل، وكان ابتداء الهزيمة من ديبس فاته قضى
 نحو الحلة، وجمع جمعا وسار إليها، وبيها جمال الدولة أقبال
المسترشدي، فاتقوا واقتنوا فانهزم ديبس أيضا.
ذكر السبب في مصير ديبس عند الشهيد رضي الله عنه

كان ديبس بن صدقة بن منصور بن ديبس بن علي بن مزيد (مِغْرِب) ملك العرب صاحب الحالة، قد جرى بينه وبين المسترشد بالله ذكره ووجبة غير مرة، وأوجبت شكوى المسترشد بالله منه إلى السلطان محمود والسلطان سنجر، وجرى له أقاصيص طويلة اقتضت الحال أخيراً إبعاده عن العراق.

وكان شريراً خبيث الطبيعة، وكان من أشد الناس عداوة للشهيد عماد الدين وأكثرهم وقية فيه. فسار عن العراق سنة خمس وعشرين وخمسين سنة، عازماً على قصد الشام، إلى حصن صرخد ليملكه. وبسبب ذلك أن صرخد كانت بيد مير سمح مكتوم، فتوجه وخلف زوجته حديث نفسها انتهاك الحصن، فقال لها بعض أصحابها: إن هذا لا يتم إلا إذا برج مؤمن، فوضع الأكابر، وحسن لها الاتصال بديبس، فأرسل إلى ت미ّسعه، فسار إلى الشام فلقه سوء نيته. فضل في البر فأصره قوم من بنو كلب، وسالموه إلى تاج الملك (بوري) بن طوفكية أتباك، ساحب دمشق، فلما حصل عنه، أرسل إليه الشهيد يطلب منه وبذل فيه عما، فامتنع من تسليمه، ففهدته أتباك بقصد بلاده وماصوريها، فسلمه إليها، فلما صار عليه، جاز إلى أسانه وحلوه، وإنقى عليه والأخلاص والمال والخيل وكل ما يحتاجه إليه الملوك، ويسأل في اكراهه إلى غاية لا مزيد عليها.

ولا اتصل خبر مصير ديبس إلى دمشق بالمسترشد بالله، أرسل إلى تاج الملوك مع سيد الدولة بن الانباري صاحب ديوان الابتدائية ببغداد، يطلب منه أن يسلم ديبسا إليه، فلما وصل دمشق وعلم بمصير ديبس عند الشهيد، تسمى وذكره بما يكرهه، فاتصل ذلك
الشاهد - وكان له في كل بلد من طالبائه بالأخبار - فامتنع لذلك، وأرسل إلى البرية وشحنه بالرجال، وأمرهم بإخبار الأبدي وحمه، فلما عاد أخذ بنواحي الرحمة وحمل إلى الشهيد فحبسه بالموصل، فأرسل الخليفة المسترشد بالله يشغّع فيه، فأطلقه وأحسن إليه.

وهذه كانت عادة الشهيد في حزمه واحتياطه، لا يمكن رسول الله يعبر في بلاده بغير أمره، وإذا أضاقتاه رسوله في العبود في بلاده، أرسل إليه من يسيره ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم، فكان الرسول إليه يدخل بلاده ويخرج منها، ولم يعلم من أحواله شيئاً البته.

وفي هذه السنة - أي سنة ست وعشرين وخمس مئة - ملك الشهيد قلعة بهمرد من ديار بكر. فنظر إلى هذه الهمة، فقد كان في هذه السنة من الأمور العظيمة وإختلاف السلاطين وأنه زاره دفعتين. ولم يشغله ذلك عن زيادة في ملكه، فشمل هذَا الحصن العسير.

ذكر حصر المسترشد بالله أمير المؤمنين الموصل

في ربيع الأول من سنة سبع وعشرين وخمس مئة، برز المسترشد بالله من بادية الريحانية، فنزلها وجمع المساقر، وكان قد قصدته عدة أمراء من المساقر السلطانية للخلف الواقع بينهم، فقوي بهم المسترشد واستبدين العراق وجببى الأموال، وأرسل الإمام إبن الفتح الأسفرياني الوعاظ إلى الشهيد، فاغتاظ له في القول، فهامره الشهيدغاية الهانئة وعاد إلى المسترشد بالله، فعند ذلك سار إلى الموصل في ثلاثين ألفاً، فلما بلغ الخبر إلى الشهيد، رحل عن الموصل في بعض عسكره، وترك الباقى بالموصل مع نائبه بنصب الدين جقر، ونزل اتباعه الشهيد
ذكر ملك الشهيد قلعة الحميدية

وفي هذه السنة وهي سنة ثمان وعشرين وخمسين سنة، استولى الشهيد رضي الله عنه على قلعة القلاع الأكراد الحميدة وولاياتها، منها قلعة المعرق، وقلعة شوش وغير ذلك، وسبب قصدها أنه ما ملك الموصل وأعمالها، ألقى الأمير عيسى الحميدي على ولايته، ولم يعترضه في شيء، فما حضر المسترشد بالله الموصل، حضر الأمير عيسى عليه من جده وجماعه، وأودى بالقوات وغيرها مما يحتاج إليه، فما عاد المسترشد بالله عن الموصل، أمر الشهيد بحصر قلعة الحميدية، فحصى صرمت سنة طويلة، وقوت قتال شديدًا إلى أن فتحت في هذه السنة، وأطمأن أهل سواد الموصل المجاورون لهؤلاء القوم، فكانون كانوا معهم في خطة خفية.

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسين سنة، سار الشهيد إلى مدينة أمد فحصها ومضيق عليها واستوزر ضياء الدين بن الكفرتواني، ثم رحل.
في ذكرى قتل أمير المؤمنين الخليفة المسترشد بالله
وخلافة الراشد.

كان السلطان مسعود سنة ثمان وعشرين وخمسنائية بغداد، وقد
ضفع أمره وقوي أمر أخيه الملك طغرل وملك سائر بلاد الجبل.
فأرسل السلطان مسعود بالله يستعينه ويطلب منه المساعدة على أخيه
طغرل، فاجيب إلى ذلك، وأمره بالأموال والرجال فغافت دفء
السلطان مسعود عن المسير، لان عم السلطان سنجور، كان يقوي
أمر الملك طغرل ويشد منه. فلما رأى الخليفة تأخر السلطان مسعود
عن المسير، أرسل إليه بأمره بتعجيل الحركة ودفع أخيه عن
البلاد، فلم يفعل. فأعاد الأمر ثانيا وكر ذلك، فلم يتحرك،
فأرسل إليه أخيارا جاوي القسمي، شحنة بغداد، مضايقة له على
المسير إلى بلد الجبل وإزاحة أخيه عن البلاد، وأمره إن رأى من
السلطان مدافعة أن ياقت خيمته. فلما علم السلطان حقيقة الأمر,
عزم عليه ونادي في العسكر ليتجهزوا للرحيل، فبينما هم في التجهيز
ليرحلاو، وأخذ ورد الخبر بوفاة السلطان طغرل. وكانت وفاته في
الحرم سنة تسعة وعشرين وخمسنائية، فأسرع السرايا همذان
واجتمعت عليه المساكرون، واستورز شرفة الذين أتى شروان بن خالد.
ثم وقع الخلاف في عسكره واستوحش منه جماعة من الأفراد منهم
الأمير قزل آخر، ويرنقش باذمار، وسندقر الخمار كثيني والي
همذان، وعبد الرحمن بن طفايرك وغيرهم، وانفسروا عنه في عدد
كثير وساروا نحو الدشير لموافقة كانت بينهم وبين برقوة برسرق
صاحب خوزستان، وأقاموا ينتظرون و كانوا في سبعة آلاف
فارس، فسار اليهم السلطان مسعود جريدة فثلاث آلاف وكسبهم
وهمهم وفرق شملهم، وواوا مدرين نحو بغداد، فوصلوا منهم
يرتدق بازدار، ونزل أخ، وسندر الخمار تشكيج، وأخبروا المسترشد بالله عن سوء ضمير السلطان، وعده النصر والمساعدة عن انفسهم وعن جماعة من أكابر الأمراء، وحسنهما له قتال السلطان، فأجابهم إلى ذلك، وقطع خطيه السلطان ببغداد، وسار عنها في شعبان من هذه السنة، وأتاه في الطريق برسول بن برستق، فاقتحموا في سبعة آلاف فارس، واستلتف في بغداد جمال الدولة أقبال في ثلاثة آلاف فارس، ورسول أصحاب الاطراف، المسترشد بالله يبذلون له الطاعة، فقتله في الطريق، فاستلتف السلطان مسعود أكثرهم فمالوا إليه وساروا نحوه، وكان قبل اصلاحهم فتى الثالثة آلاف فارس، فثار في خمسة عشر ألفا، وأرسل إليه أتاشي الشهد تجنة فوصلت بعد المصاب.

وسار الخليفة إلى داي مرج، فلم علم السلطان وصوله، استعد اقتاله وسار إليه فعباً الخليفة عسكره، وكان في المدينة يردق بازدار، وسندر الخمار تشكيج، وبرستق بين برستق وغلمان الدارية، وكان في مسيرة جاولي وغيره، ووفق الخليفة في القلب، والتقى عاشر رمضان، والتحم القتال، فغادرت مسيرة الخليفة، ومات إلى السلطان، وأباحت عساكر السلطان بالخليفة ومساكه، وكثر القتل والأسر في عسكر الخليفة، وأرسل الأمير إلى أن أخذ بنان فرسه وأنزل وقبض عليه، وقبض أيضا الوزير شرف الدين الزينبي، وقضي القضاة، وكمال الدين بن طهيبة صاحب المخزن، وأين البناي كاتب الأنشاء، وخلق كثير ورفعوا إلى قلعة سرجان بقرب زنجان، وغادروا كل ما في العسكر.

فانذل السلطان، (بكاه المحمودي) (۲۸) شحن اله إلى بغداد، فوصحلها سلح رمضان ومعه عبيد، وقبض جميع أمراء الخليفة، وثارت الألفية في بغداد ووثب العامة على الشيعة، فقتل الشحنة منهم جماعة، وجرى يوم العيد فيها فتنة، وقتل جماعة ونهبت الأموال، وتحديد الخليفة المسترشد بالله في اليقين إلى سادس عشر ذي القعدة، فاتفق أن رسول السلطان سنجر وصل إلى السلطان.
مسعود، فخرج إلى لقائه وأشغال الناس بذلك، فهجم على الخليفة
اربعية عشرة فروا من الباطنية، وقي خارج الخيامة عشة رجال،
فضربوا بالسلاكين فجرحوها خمساً وعشرين جراحه، وقطعوا
رأسهم، وشقوا جوفه، وجمعه، وأخذوا ثوابه وتركوا عرياناً.
وكانت خيامه خارج العسكر، وقتل إمامه ابن سكينة، وإنسان
هاشمي. ووقع الخبر في العسكر، فركبوا في السلاح وقضوا عشرة
من الباطنية وهرب أربعة عشر. وقى المسترشد بالله مطروحًا يومًا
وليلة، فأطه أهل مراغة فحملوه إلى البلد وكفوه ودقنوهم بمقبرة
سدر MOTONI.

وكتب السلطان مسعود إلى شجنة بغداد - وهو الأمير بـ
به - بأمره بالبيعة للإمام بي جعفر المنصور بن المسترشد
بالله، فبايعه يوم الاثنين السادس والعشرين من ذي القعدة.

وحضر بيته عشرون رجلاً من أولاد الخلافة: أولاد المقتدي بأمر
الله عم والده، وأولاد المستشرد بالله عم ومحبته، وأولاد المسترشد
بالله أخوه. ثم بابه الهاشميون، ثم الفصايلة، والعلماء والأمراء,
وغيرهم. وتلقب الراشد بالله، واستقرت الخلافة له.

ذكر عمر المسترشد بالله،شيء من سيرته رحمه الله
تعالي

قال: كان وفاته في شعبان سنة ست وثمانين وأربعماثة. وكان
عمه ثلاثاً وأربعين سنة ولائة أشهراً وثمانية أيام. وكانت خلافته
سبع عشرة سنة وسبعة وأشهر، وأمه أمواً ولد. وكان شهباً,
شجاعاً، مقدماً، فصياً.

وتمكن في خلافته تمكناً عظيمًا، لم يره أحد من تقدم من الخلفاء من
عهد المنتصر بالله إلى خلافته، إلا أن يكون المعتضد بالله والمكفي
بالله، لأن المماليك كانوا قديماً يخلعون الخلافاء ويحكمون عليهم،
 ولم يزالوا كذلك الى ماك الديلما واستثنائهم على العراق، فرّزات هيئة الخلافة بالمرة إلى انقراض دولة الديلما، فلما ماك السلطوية، بعيدة عن هيئة الخلافة ماكان درس لاسيما في وزارة نظام الملك، فانه اعاد التاموس والهيئة إلى احسن حالاتها، إلا ان الحكم والمشق كان للسلطان وكان الامراء وضحان البلاد، ولم يكن للخليفة إلا اقطاع يخزن نخله، واما المستردة بالله فأنه استيد بالعراق بعد السلطان محمود، ولم يكن للسلطان معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة، واجتمعت عليه المسافر، وقد أتى إلى ذكر ذلك في المستقص في التاريخ.

ذكر مسير الراشد بالله أمير المؤمنين إلى الموصل مع أتابك

في سنة ثلاثين وخمسين، سار الراشد بالله الى الموصل صحية أتابك عبد الدين زنكي متجنباً إليه. وكان سبب ذلك أن المسافر السلطانية اختفت على السلطان مسعود، وكذلك أصحاب الأطراف، وترسلوا في الاجتماع على قتاله وإقامة سلطان برضوعته، واستقر بينهم الاجتماع في بغداد، فسار أتابك الشهيد من الموصل الى بغداد، وقدمها الملك داوود بن الرستاق في مسيرة قزوين. وكان مع الملك داوود الأمير عنتر بن أبي السعد الجاهلي بدراء وعرف، فلما اجتمعت المسافر بغداد حسنون للراشد الخروج معهم عن بغداد إلى السلطان مسعود محاربة، فأجابهم إلى ذلك، وكان وزيره حينما جلال الدين أبا الرضي محمد بن احمد بن صدقة الذي صحار وزيراً لأتابك الشهيد فيما بعد، واجتمعا على الغزوم في صفرة سنة ثلاثين وخمسين. ظهر من الراشد بالله تناقله في الاحوال، وتولى في الأراء، وقبض على جامعة من أعيان أصحابه، منهم: استاذ الدار.
أبو عبد الله الحسين بن جهير، وجمال الدولة إقبال الماسترشدي،
والحارب القبيض على وزير جلال الدين بن صدقة، فركب في موكب إليه
اثرباك الشهيد، فنزل في خيمه، فاجарьه وأمنه، فركب الشهيد ووقف
مقابل التاج، وأرسل يشعف في الدين قبض عليهم الراشد شفاعة
تحتها إيزام وحكم، فأطلقوا إقبال، وسلم إقبال الماسترشدي إلى
الشهيد، لأنه أظهر من العناية بأمره أكثر من غيره. فلما وصل إلى
خيمه أكرمه واحترمه وأحسن إليه، ولم يجازه على ما كان منه قديما
من عداوته. ثم إن قاضي القضاة الأرنيني خلف من الخليفة أيضا
فالتنا إلى الشهيد قامته وأحسن إليه، وقرر مع الملك داود أن
يستمر جلال الدين بن صدقة، فاستوردها في ربيع الآخر.

ثم ورد الخبر، أن الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد وصل إلى
واست في جمادى الأولى في عسكر كثير، فانحرر أثرباك الشهيد إليه
لبحره، فوقع الخلاف بين سلجوق شاه وبين أثرباك البقش،
وراسل البقش فاستماله وحذره من سلجوق شاه فمال إليه، وسار
هو وجماعة من الأمراء إلى عسكره وفارقوا سلجوق شاه.

وعاد الشهيد وافصل أمر الوزير ومعه البقش وجماعة الأمراء،
فازداد اثرباك الشهيد عظمة وعفو مخل وكأنوا لا يصرون إلا عن أمره
ورأوه.

ثم عاد الشهيد وافصل أمر الوزير جلال الدين بن صدقة مع
الراشد، وإعادته إلى وزارته. وكثر الفساك في العراق، وطرق
المفسدون والمساكر إلى نهبه، فنهى الخبرة الطاهري، وشرح
دار الرقيق، وكثيراً من بلد دجيل، وبعض طريق خراسان ونهب
الاموال أيضاً ببغداد عمانية لامعان لهم من ذلك.

ثم أن السلطان مصعودا سار نحو العراق، فبلغ الشماسة في
عسكر كثير، فثار từ ببغداد من الملوك والأمراء قتاله، ثم خافوا لما
ورأوا ما عهدهم من الخلاف وتانّ الخليفة الذي معولهم عليه، وتقدم
السلطان مصطفى إليهم همزة نيفا وخمسين يوما، فتستُسلل عسكره وطوارئ، فعاد إلى النهروان عاز ماعلى العدو إلى يد الجبل، فوصله بالنهروان طرخاطي صاحب واسط، واخبره بما معه من السفن والمقاتلة في الماء، فسار السلطان مصطفى إليها وعبر فيها تحت بغداد، وعبرت المسار في النهر، كاشف داها إلى الجانب الغربي لنفعه فسبقه، فلما رأوا ذلك عادوا قواته فعاد كل منهم إلى بلده وولايته.

وخرج الراشد بالله من دار الخلافة، ونزل على اتباع الشهيد ملتزا إليه، ومعه وزيره ابن صدقة وجماعة من الخدم والآتراك وساره إلى الموصى، واستقر السلطان مصطفى ببغداد في ذي القعدة.

وأقم أتباع الشهيد للخليفة كل ما يريدوه، وبالغ في ذلك، وأرسل إليه من الأموال والعروض والآتات مالا حد عليه. وأقام بالموصى إلى أن سار على مانذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر خلع الراشد بالله أمير المؤمنين وخلافة المشتق في أمر الله أمير المؤمنين رضي الله عنهم اجمعين.

 لما سار الراشد بالله عن بغداد إلى الموصى صحبة أتباع الشهيد ودخلها السلطان مصطفى عزم على خلع الراشد والبعثة لغره بالخلافة، ووافقه على ذلك الأمراء وأرباب المناصب فاحضر القضاة والشهداء والفقهاء، واتبعتها محضا شهدوا فيها بما وجب خلعه، فافتقي الفقهاء أن من هذه صفته لأصلح للخلافة وحكم القاضي ابن الكرخ في قضية الحريم بخلعه فخضعوه جميعًا.

وتأسلم السلطان مصطفى عمن يصح للخلافة، فأشار عليه شرف الدين الزينبي، باي عبد الله بن المستظهر بالله، وأشار غيره.

- 172 -
بالعقول عنه، وقال: إنه رجل كبير قد جرب الأمور وعرفها، وإن من الرأي للسلطان أن يبايع فتى صغيرا ليست له تجربة ولاسن عليه، (وبأبي الله إلا أن يتم ذره وعليه الكافرون)، فوقع الاتفاق على أبي عبد الله، فباعبه السلطان والأمراء، والقضاة، والقُبَّاء، وسائر الناس، وبايعه فيه الشيخ أبو النجيب الفقيه الصوفي، ووعظه معظمة بلغة. ولقب المقتفي لأمرين، فلم يستقر في الخلافة، أرسل إليه السلطان مع وزيره كمال الدين الدرزي، يسأله ما يتحاج إليه ليقام به، فقال للوزير: مالري قد مانعت إليه، ولكن لنا ثمانين بغلا ننقل الماء من دجلة - مع قربها من من بكره إلى آخر النهار للشرب لا يستعمل منه في غيره شيء، فانظروا جيداً ما أوراء هذا فقوموا لنا به، فعاد الوزير وقال للسلطان: قد كان الراي في المجد عن هذا الرجل، ولكن الامور مقدرة، وقد رأيت من هذا الرجل مادل على وقوف الغزاة وحسن التوصل إلى أغراضه وعلى غاية المعرفة، وذكر قوله. فلم يبق من الحاضرين إلا من استحسن ذلك.

ولنا اتصل خبر بيعتته إلى الراشد بالله وأتابك أباك، أرسل رسولين إلى السلطان، وأرسل الشهيد رسالة إلى الدوائر العزيز، فإنما رسول الراشد قتل تسمع رسالته، وأما رسول الشهيد فإنه أكرم كثيراً، وكان الرسول عنه، كمال الدين، يا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم المبزور، فشكى لي والدي عنه قال: لما حضرت الدوائر، قبل لي تباع أمير المؤمنين. قال، فقلت: أمير المؤمنين عندها بالوصول، وقد بايعتنا نحن ونامت ولن الناس قاطعية في شرق الأرض وغربها، وقد عمتم ما قبل في من بابلا آخر، وطال الكلام وعدت إلى منزلتي، فلما كان الليل، جاءتي إمرأة عجوز سراً، وبلغتني عن المقتفي لأمرين، رسلت، مضمونها العتاب على ماكان من الامتلاك عن البيعة، ومعها جملة صالحة من التحف والمال، قال، فقلت: هذا يظهر أمراء خريدي. فلما كان الفرد حضرت، وقيل لي في أمر البيعة، فقلت: إن الراشد له في اعتناحا بيعة، ولا يجوز الذكاء إلا بما يوجب خلعه، وانا فقهي لايجوز لي.
فعل ماينافي الشرع، فتثبوت ما يوجب خلعه حتى اخلعه، وأيايع،
عني وعن صاحب، فما سمعوا هذى أشعارنا الحضر المذكور،
قالا رأى وشهد به الشهود، خلع الراشد ويايع المقتفي لأمر الله،
وقال: هذا أمير المؤمنين قد صار اليه خلافة الله في ارضه،
والسلطان قد استراح من كان يقصده ويجمع عليه الجميع،
ونحن فلا بد لنا من هذا الدعوى نصيب، فرفع قوله إلى الخليفة
(30) فامرأ الخلفة إن يجري في اقطاع الشهيد من خاصه صرفين،
و، درب هارون، ويزاد في القاب، وقال: هذه قاعدة لم يسمع بها
لأحد من زعماء الأطراف، إن يكون له في العراق اقطاع، واستحلف
القاضي كمال الدين السلطان للشهيد، واستنزل عمل في نفسه منه.

وأما الراشد، فإن السلطان سنجر رسال إلى آتراك الشهيد
ياعمر بإخراجه عن بلده، فسار إلى أذربيجان ثم إلى همدان،
وأجميع هو والملك داود، ومذكررس صاحب فارس، ويوزابه
صاحب خوزستان ومعهم عساكر كثيرة، وسار السلطان اليهيم
فتصاروا واختلوا، فقتل مذكررس وأنهزم الراشد وقعد اسفله،
فقتلل الباطنية سبع وعشرين رمضاان سنتين أثنتين وثلاثين
وخمسمائة، ودفن بأصفهان.

ذكر خروج ملك الروم الى الشام ومقابلة الشهيد

في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، خرج ملك الروم مـن
القسطنطينية ومعه خلق عظيم لايحسبون كثرة من الروم والأفرنج
ويرغبهما من أنواع النصارى، فقصد الشام، فخفاه الناس خوفا
عظاماً، وكان الشهيد مشغولا بما تقدم ذكره لايـمكته مفارقة
الموصل، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحزبا وها على
مرحلة من حلب، ففتحها عدوى، فقاتل المقاتلة وسبين الذربة في
شعبان.

- ١٧٤ -
ثم سار عنها إلى شيزر - وهي حصن منيع على مرحلة من مدينة حماة، فحصرها منتصف شعبان، ومعه من الشام من الفرنج، وهم الذين أشاروا عليه بقصد شيزر، وقامت له: إنها ليست لاتاك فلا يهم بحفظها والنذعب عنها، وكانت حينئذ الأمير الباي العساكر سلطان بن علي بن مقلاذ بن نصر بن منقذ الأكاني المنقدي، فقصدها الروم وحرصوها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقا، وأرسل سلطان بن مقلاذ إلى الشهيد بستنجه - وكان على عزم المسير إلى الشام لم بلغه خبر خروجهم إليه - فجد السير في عساكره فنزل على حماة، وكان يركب كل يوم في عساكره ويسير إلى شيزر بحيث يراها ملك الروم، ويرسل السرايا تتخطف من يخرج من عساكرهم للمرة والنذهب، ثم يعود آخر النهار، وكان الروم والفرنج قد نزلوا على جبل شرقي شيزر، فأرسل إليه الشهيد يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال، فأخروجوا عنها إلى الصحراء حتى تلتقى، فإن ظفرتم أخذتم لشيزر وغيرها، وإن ظفرت بكم ارتح المسلمون من شركم - ولم يكن له بهم قوة كثيرة، وإنما كان يفعل هذا ترهيبا لهم - فأشار الفرنج على ملك الروم بإلقاءه وقتله وهو أمره، فقال له ملك الروم: أظفون أن معه من العساكر من ترون، ولله البلد الكثيرة، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا فيه وتصرووا له، فحينذئن ترون من كثرة عساكره ماعجزكم.

وكان أتاكب مع هذا يراسل الفرنج اشام ويحذرهما ملك الروم، ويعلهم أنه إن ملك بالشام حصنا واحدا أخذ البلاد التي بايديهم، فإنهم كان يراسل ملك الروم يتهده ويوحى إليه الفرنج معه، فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صحبته، فرحبت ملك الروم عنها في رمضان. وكان مقامه عليها أربعية وعشرين يوما، وترك المداعية والآلات الحصار بحالها، فلما سمع الشهيد برجيحهم سار خافهم، فظفر بطاقة منهم في ساحه العسكر فغض منهم وقت وسار، واخذ جميع مماخفوه ورفعه إلى قلعة حلب (وكفتي الله المؤمنين الأتاكب) (31)
كان المسلمون بالشام قد اشتد خوفهم، وعلموا أن الروم أدركوا حصن شيراز، لا يبقى لمسلم معهم مقام، لاسيما بمدينة حماة لقربها.

ولا يسر الله تعالى هذا الفتح، مدح الشعراء الشهيد فاصفروا، ومن مدحه المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي فقال بقصيدة أولها:

بعزشك أيها الملك العظيم
تذلك الصعب وتستقيم
ويقول فيها
الم تران كلب الروم لا
تبين أنك الملك الرحيم

فجاء يطوي الفوات خيلا
كان الجمال الليل البهيم
وقدنزل الزمان على رضاه
ودان لخطبه الخطيب الجسيم
فحين رميته بك في خمس
تبقى أن ذلك لا يدوم
وابصر في المفاضلة دمشق
فاحرون لا يسير ولا يقيم
كانك في العجاج شراب دور
توقد وهو شيطان رجيم

- 176 -
اراد بقاء مهجته فوالى وليس سوى الحمام له حميم (32)
وهي طويلة.

ومن عجيب ما يحكى في هذه الحادثة، ان الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر، قال الأمير مرشد بن علي - اخو صاحبها - وهو يدنسح مصحفًا رفعه بيده، وقال: اللهم بحق من انزلته عليه، إن قضيتها بمجيء الروم فافضني إليه فتوجه بعد أيام، ونزل الروم بعد وفاته.

ولا عاد الروم الى بلادهم، سار اتابك الى حصن عرقه - وهو من اعمال طرابلس - فحصره وفتحه عنوة ونهب ما فيه، وأسر من به من الفرنج واخره وعاز ساما غانما.

وفيها توفي القاضي بهاء الدين علي بن القاسم الشهير زوري، قاضي الممالك الأتابكية. وكان أعظم الناس منزلة عنده.

ذكر ملك الشهيد قلعة شهر زور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال من يد قفجاق بن أرسلان تاش التركماني.

وكان مالكا لها، نافذ الحكم على قاسي التركمان ودانيهم، برون طاعته فرضا حتما، فتحامى الملك قصد ولايته ولم يتعرض لها لحصانتها، فعزم شانه وارزاق جمعه، وقصده التركمان من كل فج عميق.

فلمما كان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، ابلغ اتابك الشهيد عنه.
ما اقتضى أن يقصد بلاده، فهؤلاء أصحابه من ذلك وأشاروا بتركه.
وعلماً من أن الحمام والذينب عن بلاده كثيراً، وأنه إن ضيق عليه سلم الولاية إلى السلطان ممسود، فيعتبر مجارو ولاية الشهيد.
فلم يرجع عن عزمه، وسرى إليه عسكرها كثيفاً، فجمع فرقةً من التركمان من يقدر على حمل السلاح، فاجتمع عنده من الكثرة ما سد بهم القضاء، ونُقاهم عسكر الشهيد وقاتلهم، وصربر عسكره.
وتابعوا الحملات على التركمان حتى هزمهم واستباحوا عسكرواهم، فمضوا منهزمين لا يدؤي أخع على اخيف ولا يدؤي ولده، وسار العسكر عقب الهزيمة ونخروا بالآخرين، فلمروا شهراً زوراً، وغريباً من البلاد، وأضافواها إلى مملكته، وأصالح الشهيد، أحوال أهلها، وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان.

ثم إن الشهيد عزم على السير إلى الشام، فإنه كان لا يرى القمام.
بل لأن ظاننا إما لد عدو يقصده، وإما لقصد بلاد عدو، وإما لغزو الفنجه وسد النغور، فكانت مياثر (32) الأسرج أثر عنه من وثر المهاد، واستهر في حراسة الملكة حب إليه من عرفة الوساط، وأرسى، وأصوات السلاح الذي في سمعه من غناء القيئان، وإلقاء القرن أشيئ إلى من إضجاعة الغنائات، وفيما ذكره وأذكره دليل على صحة ذلك.

ذكر حصار دمشق وعليك.

وفي هذه السنة أيضاً، وهي سنة أربع وتلاشين وخمسان سنة، سار الشهيد في جذبه، بعد ما كله زور إلى مدينة دمشق فحصرها.
وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بوري بن طلقدين.

وكان محمد محكوماً عليه، والغالب على أمره معين الدين ابن مملوك، جده طلقدين، وكان اتراك قد أمر كمال الدين أبا الفضل بن الشهر زوري بمباينة جماعة من مقدمي أحداثها وزنايتها.
واستماليتهم وإطعامهم في الرغائب والصلات، ففعل ذلك، فأجابه
منهم خلق كثير إلى تسليم البلد، وخرجوا متفرقين إلى كمال الدين
وجده عليهم العهد، وتوعدوا يوما يراح في الشهيد إلى البلد
ليفتحوا له الباب وسموا البلد إليه، فاعلم كمال الدين، اثبب
بذلك، فقال: لا أرى هذا زياً، فإن البلد ضيق الطريق والشارع،
ومتي دخل العسكر إليه لا يمكنون من القتال فيه لضيقه، وبسما
كثر المقاتلون لنا والمحاربون، فتعجز عن مقاومة لأنهم يقابلونا
على الأرض والسلاطنات، وإذا دخلنا البلد اضطرنا إلى التفرقة
لضيق المسالك فيطمع فيها أهله، فعاد عن ذلك العدم بحسنه
وحذره، ومن الحجج أن محمد بن بوري صاحب دمشق توفي واتباعه
في أمر الأموي وساس البلد، فلم يتغير بالناس حال، وأرسل
إلى بعلبك واحضر مصير الدين أبى محمد بن محمد بن بوري ورتبه بالملك
مكان أبى، وكان صغيرًا، فبمش الحال يشكن معين الدين أم
وقوه، فدعا وصل مصير الدين إلى دمشق، أقطع بعلبك أن
أنه، فأرسل إليه وتسلمها، فلما علم الشهيد ذلك، سار إلى بعلبك
وحشرها عدة أشهر فملكها عودة وقهرها، وتزك بها نجم الدين أبو
دزداراً، وعزم على العود عنها إلى دمشق، فقاده رسل صاحبها
ببذل الطاعة والخطبة له فاجابه إلى ما قال، وعذ عن قصد دمشق
وفقد خطب له فيه وصار أصحابه (24) في طاعته وحكمه.

ذكر فتح حصن بارين وهزيمة الفرنج

في هذه السنة، وهي سنة أربع وثلاثين وخمسون، سار أتراك
الشهيد رضي الله عنه، إلى بلاد الفرنج وغار عليها، واجتمع ملوك
الفرنج وقامتهم، وكذواهم، وفرسانهم ورجاليهم وساروا
إليه، فلمهم بالقرب من حصن بارين (25) - وهو المسمى حينئذ
ببرين - وهو للفرنج، فاتقوا عليه، فجمع الشهيد عساكره
وحشى على الجهاد، واشلاهم على الكفء الأوغاد، ورتب الطلبه،
وحرص أصحابه، وحزب أحزمة، وناوهم القتال، وأعمالا
الرماح والنبال، ولم يزل هذا دابهم حتى حمى الوطيس، فحينئذ
حملت الفرنج جملة اختلط فيها الدروئوس والرئيس، وأرفقت
القتام، واشتد اللزام، وعظام الزجاج، وان perpetrت موترعة كؤوس
الحمم، وبطل العامل (36) وعمل الحسام، فمن ضربة تقطت،
واخرى تقد، وثارت عجاجة كانت تحجب الأدبية، وخففت
الآيات فلا تسمع إلا الهمس، وصير الفريقيان صبيا لم يسمع
بمثله في سالف الدهور إلا مازحا عني ليلة الهلير (37)، ونصر الله
المسلمين نصرا عزيزا، وأحله بر وعارة محلا حزرا، وأجت
الواقعة عن هزيمة الفرنج، واخذتهم سيفو المسلمين عن كل ناحية
وهرب ملوكم وفرسانكم فدخلوا حصن بارين واحتموا به، لأنه
كان من أقرب حصونهم، وسلموا عليهم وعامتهم، وكرعهم
وأزدواهم، وكثير فيهم القتل فيهم الجريح بعد الصفا، ونصل
السهام والرماح، ( سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة
الله تبديل (38) )

ثم سار الشهيد بعد الهزيمة إلى بارين ويه الفرنج ليحضره
فأحذى طافق به وقابله، فرأى حصنًا محلاً في الهواء، مقترنا
هامة الجوزاء، قد فاق الجبال الرأسية وجازها سلمًا، وقد
تمدخ بشدهه عن أن يرام، وتأي بجانبه عن أن يضام، فلا تردقه
البصائر إلا عاتى حسرة، ولاومة الطيور إلا اضحت أجنحتها
مهضرة كسيرة، ومن بُه من ملوك الفرنج وفرسانهم، وكهولهم
وشبانهم، واثني بحصانه، معتزين بعلم مكانه ومكانته، متيمتين
ان الحوادث لتنالهم وهم بمعتصمون، وإن الأيام لنتفذ سهامها
فيهم وهم مقيمون، وقد وعدهم الشيطان النجاسة ( لات حين
مناص (39) )، وحقق عندهم السلاحة وحيل بينهم—وبين
الخلاص، ( ببعده وعنهم ومسايعهم الشيطان إلا
مستر ) (40) ، وأتى يكون ذلك وقد أحدثته بهم الأسد في عينها،
الذبة عن بني الله تعالى وبنينها، فحين رأي الشهيد هذا الحصن
وأرفقه، ومن اجتمع به من شجعان الفرنج وفرسانهم، الحاميين
عن أنفسهم وأهليهم وأمواتهم وصلابتهم، علم أنه لينال بالتواني،
لا يبلغ قتله بسير السواني، فاعدا واستعد، وشمر في قتاله عن ساق الجدي، ونازله بعزم أعظم منه، وق-depths of the sea. وتحط به كرحاطة الهالة بالقمر، وبياض العين بسواجد البحر. وراءه بسهام شهامته وضياء على من به الخناق، وتابع الزحف إليهم وواى القتال عليهم، وأكثر من إرسل السهام وحجارته المجاذوق حتى كانت تحجب الهواء، وتحول بينهم في السماء، وكانت فوهة من به كسامح لمعان نصولها برقة المناطق، ووقع الأحجار رعدة المتبقية، إلا أنه سحاب يعثر منياً، وينبطن الحدود والرماية، فحينذا استختدى الحصن وانحذى، واستسلم لسورة هذا الهمام البطل، ولقى إلى الاستسلم بيده، ولم يتنفخ حصانته وكثرت عده وعده، كما قال فيه بعضهم:

بادي العالم اطراقة شرفاته
إطلاق منجب القرينة عان
اغضى كمستعم الهوان تفتيت
انصاره وخلا عن الخلان

ولا عار على من اقتصره الفضفاض، ولا من قيصة على من أذعن إلى صولة الدوت الأحمر، فما كان غانه هند، ولا كل ذات سوار دعاء
ولا عاين من به الهلال راسلوا يطلب الأمان ليسلموا، وسألكوا في حقن دمائهم ليسلموا، وهو لا يلغي إلى مقاليتهم، ولا يسمح Rentaliهم، وقد قوي عزمه على أنمه قهراً ليمك بهم سائر بلادهم ويريج المسلمين بعد هذه الوقعة من قراهم ببلادهم. فبينما هم كذلك، بلغه أن من باحبل ماد فرتنج الدهج من المعركة، السالمين من الهالة، قد ساروا إلى بلاد الفرنج والروم في البحر يستجرونهم ويستصرعونهم، وينهون إليهم ما همهم ببلادهم، وما فيه ملوكم وقمامهم من الحرس وكتادهم، وأن أولئك قد جمعوا وحشدوا، وإلى المسير نحوه فقصدوا، فحينذا جاءت الحصار وذكى العيون، وعمل على التضيق، على من بالقلعة ومنى كل شيء عنهم حتى الأخبار، وأقبلت الامداد من سائر انواع النصرانية إلى
الساحل من كل حدب ينسلون، وإلى تلبة من يه من إخوانهم يهرون.

هنا ومن بالحصن لا يعلمون شيئا من ذلك، وقد تيقنوا أنهم عن قريب ما بين مسور وهالك، فاعادوا لما رسلته في طلب الأمان، فأجابتهم إليه بعد أن علم وصول الامداد إلى الساحل واجتماعهم على من بمن أهله فلا أجابهم إلى الأمان وتسلم الحصن منهم سلمهم وهم لا يصدقون بالنجاة، وساروا عن الحصن يوما، فلقيتهم أماد النصارى، فاستوهم عن حالهم فأخبقوهم تبسلهم الحصن، فلم يموهم ووعدوهم وعذروهم، وقالوا: عجزتم عن تحفظه يوما أو يومين.

فقالوا لهم: أذننا لم نعلم بوصولكم، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصننا إلى الآن، فلما عمت الاحبار عننا أذننا أنكم قد أهلتموا أمينا، وقدتم عن نصرنا ف حدنا دماءنا بتسليم الحصن وافتتنا به ماوراءه. وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين، فإن اهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من البلدان ونهبها وتقطعت السبل، فاؤزال الله بالشهيد - رضي الله عنه - هذا الضرر العظيم.

وفي مرة مقاتلة على حصار بارين، سير جنذا إلى المعركة وكثر طاب تلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها، وهي بلاد كثيرة وقويا عظيمة.

ذكر حصار الروم والفرنج مدينة حلب

لما وصل الروم والفرنج الى الشام لازالة الشهيد عن حصار بارين ومن بئها من ملوك الفرنج وراوا الأمر قد فات، لم يروا أن يخلو سفرتهم من اثر يؤثرته في حماية بينهم ويرجعوا بخفي
حينين، فاتفقوا على قصد بعض بلاد المسلمين ومحاصرته، لعلهم ينظرون بما يذهب عنهم غم صببهم ويجبر كسرهم، فساروا ونازلوا مدينة حلب وحصاروها، وهم في جمع لم يشاهده الناس مثله كثرة، وهم مع ذلك موتورون. قلمير الجهيد أن يخطر بالسلاطين ويليامهم، فانحاز عنهم ونزل قريبا منهم يمنعهم الميئة، وحفاظ أطراف البلاد من انتشار العدو فيها والاغارة عليها، وأرسل القاضي كمال الدين بن الشهر زوري إلى السلاطين مسعود ينعي إليه حال البلاد وكتبه العدو، ويطلب منه النجدة وإرسال العسكر. فحكى لي والدي عن كمال الدين، قال: قلت للشهيد لما أرسلني: أخفف أن تخرج البلاد من أبيتنا، وجعل السلاطين هنا حجة وينذف العسكر، فإننا توسطوا البلاد ملكوها. فقال الشهيد: إن هذا العدو قد طمع في البلاد، وإن اخذ حلب لم يبق بالشام إسلام، وعلى كل حال فالسلاطين أولى بها من الكفار. قال: فلم وصلت إلى بغداد وأدرت الرسالة، وعني السلاطين بنفاذ العسكر، ثم أهمل ذلك ولم يتحرك فيه شيء، وكتب الشهيد متصلى إلى يحيى على المبادرة بنفاذ العسكر، وأنا أخطف ولا أزال على الوعد، فلمما رأيت قلة اهتمام السلاطين بهذا الأمر العظيم، أحضرت فلانا - وهو فقه، وكان يدوم عنده في القضاء، وكان حاضرا عند حكايته كمال الدين هندا لوالدي - قال: قلت له: خذ هذه النتيج وفرها في جمعة من أواسح بغداد والإعامج، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المثير بجامع القصر قاموا، وانت مهجومهم واستنفروا بصوت واحد، وإسلاما، وأنا ماهما، وخرجون من الجامع ويصدون دار السلطان مستفيدين، ثم وضع إنفاذًا آخر مثل ذلك في جامع السلطان. فلما كانت الجمعة، وصعد الخطيب المثير، قام ذلك الفقه، وشد ثوبه وألقى عمامةه عن رأسه صاح، وتبعه أؤلك الذين بجامع السلطان، واجتمع على بغداد وكل من السلاطين قاطبة عند دار السلطان بيدك، وصرخون ودستيفون، وخرج الأمر عن الضبط، وخف السلاطين في داره، وقال: ما الخبر. فقيل:
إن الناس قد نادوا حيث لم ترسل المساعدو إلى الغزاة. فقال:

أحضروا ابن الشهر زوري. قال: فحضرة عندنا وأنا خائف منه. إلا أنني قد قبعت على صفده وقُوْلُ الحَجَّة، فلما دخلت عليه قال: يا قاضي ما هذه الفتنة، فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من القتل والشرك، ولا شك أن السلطان ما يعمل بينه وبين العدو، إنما بيدكم نحو أسبوع، وإن أخذوا حلب انحدروا إلى الفرات وفي البر، وليس بيدكم بل يمنعهم عن بغداد، وعظام الخُمّار عليه حتى جعلته كان ينظر إليهم. فقال: أريد هؤلاء العامة عن وخذ من العساكر ماشئ وسرهم والإمداد تحقك. قال: فخرجت إلى العامة ومن نضم إليهم وعرفتهم الحال، وأمرتهم بالعود فعادوا وتفرقوا، وانتخبت من عسکري عشرين ألف فارس. وكتب إلى الشهداء أذيع الخبر، وأنه لم يبق غير المسير، وأجده استثناء في ذلك. فقام بتبسيطهم والحث على ذلك، فغمرت العساكر إلى الجانب الغربي، فينما نحن نتجه للحركة، وإذا وصل نجاح من الشهداء، يخبر أن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خشيتين لم ينالوا منها قرباً، وبأمرني بترك استخان عسکروا ومخاطبة السلطان في إقامتهم، فلما خوطب السلطان في ذلك، أصر على إنقاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وآخرها منهم وإزاحتهم عنها، وكان قصده بذلك أن تثأر عسکروه البلاد بهذه الحجة فيملكها. قال: فقل أزل اعتوصل مع الوزير وكأكبر الدولة حتى أهد العساكر إلى الجانب الشرقي وسرت إلى الشهداء. فانتظر على هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس، شرح لهم الشهداء، فانطلق كان داهمة عالية، ورعبة في الرجال ذوي الزي والعقد، يرغبهم ويخطبهم من البلاد، ويوفر لهم الغطاء. حسَّني لي والدي، قال: قبل الشهداء، إن هذا كمال الدين يعرف له كل سنة مكما يزيد على عشرة آلاف دينار أميريه، وغيره يقطع منه خمسمائة دينار. فقال لهم: بهذا العقل والرأي تديردرون دولة، إن كمال الدين يقول له هذا القدر، وغيره يكثره خمسمائة دينار. فإن شغلا واحداً يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار، وكان كما قال رضي الله عنه.
ذكر ملك الشعبيات وبناء العمادية بيد الهكارية

في سنة سبع وتلاتين وخمسين سنة سار أتباع الشهيد إلى بلد الهكارية. وكان ملك الأكراد قد انتشر في البلاد فساداً، إلا أن نصير الدين جقر كان قد ملك كثيراً من بلادهم واستولى عليها. فلما بلغها أتباع الشهيد حاص قلعة الشعبيات وهي من أعظم قلاعهم وأحصوها فملكنها واعرضها وأمر ببناء قلعة العمانية (41).

وفيها عوض عنها. وكانت هذه العمادية حصنًا كبيراً عظيمة. يقال في حصون الجبال ما يقاربها. فأخبره الأكراد لعجزهم عن حفظه كبيره. فلما ملك الهكارية البلاد التي لهم، قال: أنا عجر الأكراد عن هذا الحصن فاننا لا يعجز عنه. فأمر ببنائه. وكان رحمه الله تعالى ذا عزم وذكاء، فبنى وسماء العمادية، نسبة إلى لقبه عماد الدين.

وفيها أيضاً خطاب لأتباع الشهيد بأمّه، وكان قد أرسل إلى صاحبه يطلب منه الانفصال عن موافقة ركز الدولة داود صاحب الحصن والانتماء إلى خدمته والخطبة له، فإن اجاب فلا قدسه.

وفيها أيضاً ملك الشهيد مدينة حديثة وعانية (42).

ذكر الوحشة بين السلطان مسعود وأتباع الشهيد رضى الله عنهما

قال كان السلطان مسعود لما أفسست السلطنة إليه، لا يزال الأمراء الأكابر وأصحاب الأطراف يخرجون عن طاعته، تارة مجتمعين ونارة متفرقين، وقد تقدم ذكر بعض ذلك، وكان كلما
اذفتح عليه فتى نسبه إلى الشهيد، وظن أنه هو أشار عليه وسعى فيه، علم أنه جماعة الأمراء يعرفون محلي الشهيد من العقل والتدبير والسياسة وكثرة البلاد والأموال والمساكن، وكان طبن السلطان فيه صادقاً، فلProvince

ذا كان يفعله إلا يخول وجه السلطان من شاغل ليتمكن هو من فتح البلاد والتمكن في الملك، فلما كان هنـه السنة وهي سنة ثمان وثلاثين وخمسماة زات الشواغل عن السلطان وفراغ بائه، فجمع المساكر فاكثر وأظهر الموت على قصد الموصل وبلاد الشهيد، فتركت الرسل بعدها حتى استقرت الحال على مائة ألف مثناء إمامية يحملها إلى السلطان، وطلب السلطان أن يحضر الشهيد في خدمته، فامتعب وأعتذر باشغالة بالفرح وتمكين العدو وقرية من البلدية التي بيه، فغادر السلطان وشرط عليه فتح الراه، وكان من أعظم الأسباب التي تأخر السلطان عن قصد الموصل، فإنه قال له أن تلك البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير امتهان عمار الدين، فإنها قد وليها قبله مثل جاولي سقاوا، ومودة، وجهوش يصنعه، والبرساني وغيرهم من الأمراء، وكان السلاطين يعدونهم بالمساكر الكثيرة وليقيدون على حفظها، ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى أن وليها إبكة، فلم يعد أحد من السلاطين بفـارس واحـد ولا بمان، ومع هذه فقد فتـتح مـسن العـدى عدة حصـوشـون ولايات، وهزهم غير مرة واستضعفهم، وعز الإسلام به، ومن الأسباب المذكورة له أيضاً إن الشهيد رحمة الله كان لا يزال وله الأكبر سيف الدين غازي في خدمة الصـلب، مـصدوك بـأـمر وله، وكان السلطان يحب ويرحب ويعدع عليه وينبغيه، فارسل إليه الشهيد يا بأمر بالعبر والمجيء إلى الوصول، وأرسل إلى تأديه بالوصول، وهو نصير الدين جفر، بأمره بنعمه من دخول الوصول، ومن المسير إليه أيضاً، فهرب سيف الدين ووادي إلي الوصول، فلم يملكه نصير الدين من تخولها، وأراد المسير إلى والده فمنعه أيضاً، وقال له: ترسل إلي والدك تستأنثة في الذي تفعله، فأرسل إليه فأعاد جوابه: إنني لا أريدك مما كأن السلطان ساخط عليه والزمن بالعود، وأعاده ومعه رسول إلى السلطان.
يقول له: إنني بلغني أن ولدي فارق الخدمة فغير أن فلم اجتمع به وربته إلى بابك، فحل هذا عند السلطان مالاً كبيراً واجاب إلى سلالة الشهيد، ولا أستقر المال تمامًا من عشرين ألف دينار، أكثرها أجناس وعروض، ثم ان الأمير تقليلت وعاد أصحاب الأطراف وخرجوا عليه، فاضطر إلى مدارة الشهيد واطلق له الباقى استمتاة له واستسقاها إقباله.

ذكر ملكه عدة بلاد وحصون من ديار بكر

في سنة ثمان وثلاثين وخمسة، سار الشهيد إلى ديار بكر قاصداً فتحها ومحاصرها لها، ففتح عدة بلاد، منها: مدينة طنزة، واسترد وملك مدينة المعن الذي يعمل منه النجاح من أرمينية ومدينة حيزان ومكايضاً حصن الزوق وحصن فطليس، وحصن باسدا، وحصن دي القرنين.

وأخذ من أعمال ماردين عدة مواقف، ورتب امرور الجميع، وترك فيها من يحفظها إذا سار عنها وقصد مدينة أدم، ومدينة حاني فحصرهما وملك مدينة حاني فدوع البلاد، وأقام على أمد محاصراً لها، وقصد استطلاع حال الرها على مانذكه إن شاء الله تعالى في:

ذكر فتح الشهيد مدينة الراها

وفي جمادي الآخرة من سنة تسعين وثلاثين وخمسة، ففتح الشهيد رضي الله عنه مدينة الراها من الفرسان، وكانت موسئين عليهم وشيطانهم، والمقدم على زجاليتهم وفرسانهم، وكلهم قد اذعنه بالنهائية في الشجاعة، فهزم يخضعون له بيد ذل الطاعة، وكانت مدة حصارها ثمانية وعشرين يومًا، وأعادها إلى
حكم الإسلام، ونفتّحت فيها أحكام أهل الإيمان، وهذه الرؤى هي من أشرف الأمين عند التداريس وأعظمها محلاً، وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشقرها البيت المقدس، ثم نطنزكية (ثم رومية) والفلسطينية، والزرا. وكان هذا فتح الفتوح حقاً، واشتهى بيدر صدقاً، ومن شهد فيه فالتمرك من الجهاد باوزق سبب، ولو عاصره الطائي (٤٤) لعلم أنه أولى بقوله:

السيف أصدر أبناء من الكتب

لن ضرر من هذه المدينة من الفرنج على المسلمين أقربها عظم، وشرهم إليها جسيم، إذ كانت من النيار الجزرية عينها، ومن البلاد الإسلامية حصنها، انضموا إليها عدة من البلاد فاستلعت ملكتهم وأشتدت على أجلها وناشتم فملوكوا من ذواجي ماردين والدوز والقرادي وسوس ابن عطير وغير ذلك، وكانت غاراتهم تبلغ مدينة أمد من ديار بكر، وماردين ونصبيبين وراس عين والقش وأما حران فكانت في الخزئي، كل يوم قد صببها بالغارة. فلا رأى الشهيد الحال هكتاً، أنهى لدولته ان يترك من بالرها من الفجر يجوسون من مملكة الإسلام خلائل الدياب، وكان يعلم أنه لا إنتاج منها غرضاً، ولا يمكن أن يحب جوهير الكفاير بها عرض مأذام بها جوسلين وفرسانه، وجذوه واعوانه، وأنه متى قصدها محاصراً لها اجتمعت الفرنج لحفظها وما فعل إلى إعمال الحيل والخداع، إذا كان نجح في هذه الحادثة من المصاع.

والراي قبل شجاعة الشجاع

هو أول وهي الحل الثاني (٤٥)
جوسرين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر، ظن أنه لا يفراغ له إليه، وإنه لم يكن القدام عليه، ففارق الرها إلى بلاد الشامية ليلاحص أعماله، ويجتهد نحاظره وأعماله فأتت الشهيد عيونه فأخبرته بمسيرته مع عساكره وذويه، وخلوها البند عن حافظه وحامي، فحينئذ أمر بالبدء في العسكر بالتجهيز والتشمير، والجد في المسير وتهديد من عن صحبته تأخر، وأعلمهم أنه لا يقبل عنده من اعترض، وأقبل مسرعا كالأكل الصادئ عن وتره، والسل الصائر إلى مستقره، وتبعته عساكر يتلو بعضها بعضاً، عازمين على أن يعودوا من الجهاد سنة وفروضاً، وأقبلوا زمراً مجدين كقطع السحاب تحتها الجنائب، وقد استعانوا على السرعة بركوب النجائب، فلما علم من بما من العدو إقائهم، سري الرعب في احتشائهم واحتلط الخوف بدمائهم وسقط في أديهم، ورأوا النهار قد ضناوا وقلا ( لن لا يرحمنا رينا واغفرنا لنا لكون من مسيدي الشهيد ( 47 ) ) فأي الله إلا أن ينقضمنه بسيف الشهيد، ويجمعن في جحيم بين الغضايب منهم، والشهيد، وجزاء بغيم الشنيع، وقتلهم الفظيع، فصبه الله عليهم عذاباً، وساقه إلىهم عقاباً فضاقت عليهم الأرض بمسا رحت، وضاقت عليهم نفسهم، وذكست لشدة هيبته رؤوسهم، وواق البلد في حده وحديده، وعده وعيده، وبهما إنه المنصور، وجميعه الحشورة، وبدنه المنضرة، وكما قال فيه:

بجيش جاش بالفرسان حتى
ظننا بحرا من سلاح

والسنة من العذبات حمر
تخاطبا بأفواه الرياح

وارع جيشه ليل بهيم
وغرته عمود الصباح

- 189 -
صفوح عند قدرته ولكن
قليل الصفح مابين الصفاح
وكان ثباته للقلب قليلاً
وهيبته جناحا للجناح

وخفف بهم نحو البلد يقدهم، والشجاعة تقدمه، فكانت الأرض تزلزل والنهار بسوار الليل يسريل وصور الفريج مع علمهم بأنهم صارون إلى البور، يتهالفون إلى القتال تهافت الفراش في النار، وأخذ يقول (من): يقول:

تأخرت استباقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدم

فلما رأى الشهيد البلد، رأى بلدا جمع بين الحضانة والحسن، فراسل الله يبذل لهم الأمن والأمن، ليسلموه سليما من إحراز أسباره، وإخلاء دياره، وضمنه على مثله أن يصبح خاويته على شرفه، وأن يتحقو سماوته يفرشه، فأجابوا قبولا للامان، وامتنعوا ممن الأعداء، فاستخار الله تعالى في قتاله، وقدم الشجاع لنزاله ونصب المجانين وقدم المقابين، والحت على من به القتال، خوفا أن يجتمع الفرجنف، فزحزحونه عليه ويستهقدونه منه، وبلغ الخبر إلى الفرجنف، فقاموا ووقدروا، وأردووا، وجمعوا فارسهم وراجلهم، وشايبهم وكهلهم، وحرصوا علی السرعة خوف القواد، وعاد جويسين عن السماع الأخير إلى شرق الفرات، لعله يجد فرصة ليدخن اليمان، ولم يزل (الشهيد) يخفف إليها مرة بعد أخرى، حتى وصل الدبابون إلى سولاها فنسقوه، فأطلقوا النار فيها فائرقوه، وذلك البلد عنوة، وقوها، وأوسعد كل مين فيه ذكالا، وشرا، فلم ماكلها استباحا، وأدل لاقاحها، وذويس صبابنها، وأبدا قسوسها ورهبانها، وقتل شجاعها وفرسانها، فهم معهم بين قتيل...
وابسیر وجريح وكسير، ولا الناس ابديهم من النهب والسبا، وممكن كل مداخل نفس وغلاف رائق ومسكر كاظمي عائق، وأصابهم من انكال ماهو لهم عتب ( وكذلك أخذ ربه إذا أخذ القرى وهي ظلالة إن أخذه الأيام شديد (847) ثم انه دخل البلد فراقه منظره، وشاقه مخبره، وأخلاء منه، غير مستحسن من مثلكه، فائر باعدة ماخذ منه من اثاث ومال، وسبي ورجال، وجوار وأطفال، فروا عنها فلم يبقى منهم الا الانشاد النادر، فعاد البلد عاما بعد أن كان دائر، وأهلا وأمنا بعد ان كان للذبابة والخامع (49) مسكونا، ورتب فيه من المساكر من يحفظه، وسار عنه قاستولي على ماكان في الديار، كسر ورغمها واخل الديار الجزئية من معركة الديار وشرهم، وأرّاج أهلها من كيديهم وشرهم، وأصبح أهلها بعد الخدود امنين، وعلى معاهد الأمن، والمعين، وأجل الكر والجيزة بين يدي الإيمان وأهله، وهم على أثارهم يكسرون ادبارهم، ويبغون مهنهم بادبارهم، والكفرة بدون في الهم، خوف العطب وكلهم سلطن الله لا يدأه، ومنداي التوجه ينادي: ( جامع الحرية ومفق البطل (50) والله الإسلام بهذه البلاد جرارة، وبت فيها انصاره وأعوانه، وصدق وعد الله في قوله ( وعده الله الذين أنونوا وعملوا الصالحات ليستخشاقهم في الأرض (51) )

فهي لهم اليوم العرض وكان فتحاً عظيماً لم ينتفع المسلمون به مثله، وطار في الأفاق ذكره، وطاب بها نشره، وسارت به الرفقاء، وامتثال به الحافز في الأفاق، وشهده خلق كثير من الصالحين والأولاء، واستشرب به الأبار والحافز، حكي لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الراية الشيخ ابا عبد الله ابن علي بن محمد بن الفقه الشافعي - وكان من العلماء العالمين، والزاهدين في النظريات النافذتين عنها، وله الكرامات الظاهرة - نذروا نفسه أنه غاب عنهم في زاويته يوم ذلك، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور، عنده من الارتاح ما لم يروه
ابدأ، فلما فقد معهم قال لهم: حدثني بعض أخواني، أن أتابك زدك في حديث الرها، وجعل شهد معه فتحها يوماً حناً، ثم قال: ما نذكرك يا زدك ما فعلت بعد اليوم، وبقيأ يرد هذه القول مراراً، فضبوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح، ثم إن ضرراً من الأعداد حضروا عند الشيخ، وقالوا: مرى رأيناك على السور تذكر اقتنا بالفتح، وهو يذكر حضوره وهم يقسمون أنهم رأوه عياناً.

وحكي لي أيضًا بعض العلماء بالأخبار والأنساب وله أعلم من رأيت بها، قال: كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها، وكان بها بعض العلماء الصالحين من المغاربة من المسلمين ذكر اسمه ونسبه، وكان الملك يحضره ويكرمه، ويرجح إلى قوله ويقدمه على من حدهن من الرهبان والقسيسين، فلما كان الوقت الذي فتحته فيه الرها، قدر هذا ملك الفرنج جيشاً في البحر إلى إفريقية، فنهى وءاكروا ورسوا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جاء يعود، وعند هذا العالم الغربي، وقد ندرته وشدته النائم، فأيقظه الملك وقال له: يا أخي، فإنه قد فعل أصحابنا بالسلاتين كيت كيت، أي كان محمد عن نصرهم؟ قال: كان قد حضر فتح الرها، فتضاحك من عده من الفرنج فقال لهم الملك: لا اتضحوا، فوالله ما قال عن غير علم واشهد هذا على الملك فلم يمض غير قليل، حتى آتاه الخبر بفتحها على المسلمين، فانساهم شدة هذا الوهن، رجاء ذلك الخبر، لعله منزلة الرها عند النصرانية.

ذكر محاصرة الشهيد قلعة البيرة

لما فرغ الشهيد من اخذ الرها وإصلاح حالها، والاستيلاء على موارها من البلاد والولايات سار إلى قلعة البيرة، وحصنه حصين محصينٍ على الفرسان، وحصينًا لما لا ينسى أيضًا فحصه وضيق على مس بسه، وفاغاههم القتال وراوحهم، وقطع عليهم الميرة حتى اسرعوا على تسليمه، فأتى نصير الدين جقر نائبه بالوجال والبلاد الشرقية، فرحل عنها خوفًا أن يحدث بهده في البلاد فتسبق يحتاج إلى المسير إليها، فلما رحل عنها، سار إليها حسام الدين وتمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين عسكراً، فسلمها الفئة إلىهم، خوفًا من الشهيد أن يعود اليهم فيأخذها.

ذكر قتل نصير الدين جقر على يد الملك الارسلان

في ذي القعدة من سنة تسع وثلاثين وخمسمئة، قتل نصير الدين جقر بن يعقوب، نائب الشهيد بالوجال والبلاد الشرقية، وكان سبب قتله، أن الملك الارسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان محمود بن محمد كان عند الشهيد وهو أتابكه ومربيه، وكان يظهر للخافاجي والسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أن البلاد التي بيده، إمها في الملك الارسلان، وأنه نعاه فيها، فكان إذا ارسل رسولًا أو أجاب عن رسالة، فإما يقول، قال: الملك كذا وكذا، وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر بالساحة، وإخراج الأموال ويطلق السلم، ففعاً عليه الدنيا قبل ذلك، وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة، وبه نصير الدين - وهو ينزل إليه كل يوم يخدمه ويقفه - عند الساعة ثم يعود - فحسن المفسدون للملك قتله، وقالوا له: إذا إن قتلته
ماك الموصل وغيرها، ويعجز أتاك أن يقيم بين بديك، ولا يجتمع معه فارساني عليه. فوقع هذا في نفس صاحبه، فلم يكن في نصير الدين إليه على عادته، وشب عليه جماعة في خدمة الملك. فقتلوه وأنقر رأسه إلى أصحابه، ظناً منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرقوا ويمك الملك أرسلان البلاد، فكان الأمر بخلاف الذي ظنوا. فإن أصحابه وأصحاب (أتاك) الذين معه، لما رأوا رأسهم قاتالوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثيرون، وكانت دور الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوي الراي والتجربة، فلم يغير عليه بهذا الفتق شيء، وكان من جملة من حضر القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشرهزموري، فدخل إلى السلطان وخدعه حتى أصعد إلى القلعة، وهو يحسن له الصعود إليها ليملكاها، وحينئذ يستقر له الملك البلد، فلما صعد إلى القلعة سجده بها، وقتل الغلمان الذين قتلوا نصير الدين، وأرسوا إلى أتاك يعرفون الحال، فسكت جأشه وطمأن أنقبه، إلا أنه لم يستفرج جنانه حتى أقام بها الدواب، على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ولاية زين الدين على قلعة الموصل

 لما قتل نصير الدين، أرسل أتاك الشهيد، شرف الدين ابن اخت نصير الدين إلى الموصل ليتولى ما كان خاله يتوالاه، ولم يعطه علامة التسليم ولا كتب له منشورا، وقال له: كل معنى هناك غلمانكم، وقدم إليه بما يفعل، فسار حتى وصل إلى الموصل، وكان بقلعة الموصل نقيب اسمه حسن، فلم قتل نصير الدين، أغلق باب القلعة وجمع الأجداد عنده في حفظه، فلم وصل ابن اخت نصير الدين، أرسل إليه النذير يقول له: أرسل إلي منشور الدولة أتاك بولاية القلعة، فإذا رأيت علامة اندت بك في الدخول ومعاك من يخدمك حسب، ثم أرسل أتاك إلى أتاك من أتاك إليه استشارته في تسليم الأمر لديه، فإذا أنفعت فتولى، وإن لم يأتها أخراجته منها، فترد الرس الخيرهما حتى أنتم له في دخول القلعة.
على القاعدة المذكورة، فبينما هو يريد دخول البلد، إذ رأوا غرفة مقبلة من طريق الشهداء، فقاموا ينتظرونها، وإذ قد انكشفت عن زين الدين علي (ابن بكتكين) قد جاء مجدًا ليكون نائباً في القلعة. وكان سبب ذلك أن الشهيد تغير عزمه عن الأول لأسباب يطول ذكرها، فأرسل زين الدين، وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه - فوصل الموصل في تلك الحال، فقال له النقيب حسن مثلاً قوله: اشرف الدين، ابن أخت نصير الدين، فأجاب زين الدين إلى ذلك، ودخل القلعة في نفر يسير، وأرسل النقيب إلى الشهيد من يثق إليه. يسامع، فقامه بتسلم القلعة إلى زين الدين، ففعل واستقر زين الدين وتمكن، وسلك بالناس غير الطريق التي سلكها نصير الدين، وسهل الأمر. فأطمن الناس وأخذوا وزدادت البلاد معه عمارة.

حصر حصن فنك

هذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر، وهو لأكراد البندوية إلى زماننا هذا، وله مقوم منه طويل، يحول نحو ثلاثة أبنة، وهو من أمنع الحصون، مطل على دجلة، وله سرب إلى عين ماء لا يمكن أن يحال بينه وبينه، فإنه كان سنة أربعين وخمسين سنة، تقدم، أتاك إلى زين الدين علي بإرسال عسكر إليه بحراً، فسير خلاقًا كثيرون متن القمران والرجال، فحصروه، وأقاموا عليه يحرون إلى أن قتل الشهيد، وضيقوا على أهله ومنعهم الميره، وهم صارون، فلما قتل الشهيد زال عنهم الحصار، وأكتشف ما بهم من الأضر، وكان لأصحابه معه عدة حصن أخذه منهم، الشهيد، كالهند، وجميلة نصيبين، وشاروا، وغيرها من قلاع الزوران (53).
ذكر حصار قلعة جعبر

قال: كانت هذه قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه إلى الأمير سالم بن ملك العقيلي على مأذكرنا عند ملك قسيم الدولة مدينة حلب، فلم تزل بيد ويد أولاده إلى هذه السنة - وهي سنة أحداث وأربعين ومائتين - فسار الشهيد إليها فحصرها، وكان الباعث على حصرها وحصر فنّك اني لا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره - وإن قل - للحزم الذي عنه والاحتياط، وأقام عليها بحصارها بنفسه. ومن اعجب موافقة الأقوال للإقناع، ما حذى لي والدي قال: أرسل الشهيد الأمير حسان إلى صاحب القلعة لودة بينهما في معنى تسليمها إليه، وقال له: تضمّن له عنى الاقطاع الواقفة والعطاء الكثير، فإن أجاب إلى التسليم والا فقتله، والله لا يقيم المحاصرا لك إلى أن أملكها عذة، ثم لا يبقى عليك، ومن الذي يمنعك مني فصعد إليه حسان واطهره برسلة أتاك، وأشار عليه بالتسليم إليه، فامتنع، فقال له فهو وقوع ك ل، إن سلمت، واللا فعلا وصنعت، وما الذي يمنعك مني فقال: قال له، يمنعني منه الذي يمنعك يا حسان من الأمير بك، فقاد حسان وأخبر الشهيد بامتيازه وكم عنه هذا، فلم يمض غير قليل، حتى قتل الشهيد وفرج الله عن صاحبها

قال وكانت قصة حسان مع بك، أن حسان كان صاحب منيب، فحصره، بك وهو ابن اخي ايلغازي بن ارتق، وضيق عليه، فبينما هو في بعض الأيام يقاتله، اذ جاءه سههم لا يعثرف من ابن جاء، فقتله وخلص حسان منه.

ذكر قتل الشهيد زنكي رضي الله عنه

قد ذكرنا حصار قلعة جعبر ومزامنة الشهيد قتلاها، فلم يزل
كذلك إلى أن مضى من شهر ربيع الآخر خمس ليال، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مملائه فاقتلهو غيلة ولم يجهزوا عليه وعرفوا من ليلتهم إلى القلعة (ولم يشعر أصحابه بقتله)، فلما صلى أولئك النفر إلى القلعة (44) صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله، فبادر أصحابه إليه، فأدركه وأوائلهم وفه رمى...

 حدثني والدي عن بعض خواصه، قال: ادركنه وعشو في السياق، فحين رأنيظن انني اريد قتله، فناشأ إلى إصبعه السبابة، فوقفت من هيبته، وقتله: يا مولانا من فعل بك هذا حتى اقتله، فلم يقدر على الكلام، وخشى الله بالشهادة أعماله، وفظت (45) منه نفسه وسكت رسمه، وأصبح معدوما كان لم يغنى بالأمس، ورجل عنه الملك، واستولى عليه الهاكة، ولم يغنى عنه أصحابه وعساكره، ولا حمامة امولاه وندا كره، ولا آخر الأجل ممكنه وأجنباه، ولا زحجه عنه الفناء حصوله وبلاده. كما قال فيه بعض الشعراء، حيث يقول:

 فاعجب من قاد الجيوش ونفسه قسمان بين الكر والقدم
 يلقى الكتاب مفردا بكتاب
 من نفسه وليوم يدرك حامي
 لا يرعوي عن ان يقاهر وحده
 إلا أبا بضع صارت صمام
 يأتي الفتوح على الفتوح بسيفه
 وبراه ويزعجه المقدم
 حتى إذا الأجل انقضى مستملا
 مأخوذ في الألواح بالأقاليم

 - ١٩٧ -
لاقي الحمام ولم اكن مستيقنا
أن الحمام سيتبثي بحمام

واضحى وقد خانه الأمام، وادركه الأجل، وتخلى عنه العبيد
والخول، فآى بدر مكارم غرب، وأي اسافترس، ولم ينجه قلة
حصن ولا صهوة فرس، فكم أتعبد نفسه لتمهيد الملك
وسياسته، وكم اثارها في حفظه وحراسته، فحين بلغ من ذلك ما
اراد، واستكمل في سعة الملك وشهدته الهيبة وزاد، وهانت عليه
المصاعب، وزالن المتاع، واستكانت لصولته القروم، وخضعت
لهيبته التكر والفرنج والروم، آتاه مبيد الأمم ومنفهها في الحدث
والقدم، ومهد العرب والعجم، فتأخذ من العال ره
وروجه، وسقاه بكأسه غيروه وصبوجه، وزال عنه سلطانه، وبعد
عنقه حماته وأعوانه، وفارقه أنصاره وخلانه، وأخذه من جميع ما
يماك وحيدا، وجعله فردا، وأصابه بعد أشهار للخلائقع
مقهرا، وبعد وثير المضاجع في التراب معفرا مقبورا، رهين جدث
لا ينفعه إلا ماقدم، ولا يقتل من سباكه فيه الندم، وقد طويت
صحيفة عدل، ونشرت جريدة أجرة، ونسخت أبي عمره، وبلت
سورة ذكره، فلم شودت وقعته لم تذكر وقعة الهباء، ولا سطرت
حرب الآلهاء، ولن نظرت فتكائه لمسيت البرأس والجاحف، أو عد
صرعى سيفه لکست هلك الجاحف (65) وحين اخترمته
النية، وخانته الأمنية، واضعى الإسلام لفقد ناصره عبدوسا
ترحبا، والكتفريد مخالد جذا مرحبا، وما علمها ان لها من الملوك
ابناء جابر وكسرا، ومن يرنسه وقاهرا، بل من يرمو نصره للتوحيد
عليه، ويزيد في هدم منازل الخيال وتعجل الثائر اليه:

زات على ما قام أبابها
ببه وقد شاد الذي اثوله

اقصر اهل العصر عن شأوه
حسرى وطال الكال اذ طاولوه

- 198 -
وسلام من فتحهم وجهادهم ما يرفع هذا الخرق، ويجبر هذـا
الوهن.

ولا قتل دفن بـصـفـين (٥٧٠) عند أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام. وآلم بلغني إنه أتى باوزار مشاهدها ثم قال: ودنت
أتي شهدت صـفـين بـعـسـكرى مـعـ أمير المؤمنين عليه السلام حتى كنت أرى الـقتـال الذي يعجـز أصحابه عنه، وكل
أمراء مانوـى.

فإن والذي حكي لي، قال: كان حسن الصورة أسـمـر
اللون، ملـيح العينين، قد وفـطـه الشيب، طويلاً، وليس الطويل
البـأـن، قال: وآشيـه من رأيـه، حفيده السعيد عـزالين اتـابـ
مسعود بن مودود بن زنكي، إلا أن الشهيد كان اتـمـ قـاـمة
ــ منه، وخفـف من الأـلاـد: سيف الدين غازـي، وهو الذي ولـي الملك
بعدـه، ودـور الذين مـحـمـود الملك العادل، ونـقـب الذين مـودود أبو
الملاك، والموصل، ونـصـرة الذين أمير ميران، فانقرض عقب
سيف الدين من الدكر والاناث، وعـقب دـور الذين من الدـكر، ولم
بيـغـ الملك إلا في عـقب قـبـل الذين، وخفـف الشهيد أيضاً بـنـا، وأقـد
إجـبـ رحمه الله، فإن أولاـدـه الملك لم يكن مثلـهـم، وسنذكر من
إـخـبـأـرـهم ما يعلم صحة ما قتـلاـه.

ذكر بعض سيرة الملك الشهيد رضي الله عنه.

كانت سيرته من أحمد سـيرـ الملك وآخـراً حزـماً وضـبطـا
للأمور. كانت رعـيـته في امـن شامل لـعـجز القـريـ عن التـعـدـي على
الضعيف. ونحن نذكر من سياسته وأرائه وأنصافه وشجاعته وغير
ذلك ما يعلم به مـجلـه من العقل، وحسن قـيـامه بـأـمر الملك واضطلاـعه
بـه. وان من تـقـدـمه من الملوك لم يـصـلاوـا إلى ما أـوـتـيهـم
ذلك. وحيدئذ تقول: كـم ترك الأول للآخر.
فمن ذلك انصافه بين القوي والضعيف. حدثني الدي رضي الله عنه، قال: قدم الشهيد - قدس الله روحه - إلينا بجزيرة ابن عمر بعض السنين - وكان الزمان شتاء - فنزل بالقلعة ونزل العسكر في الخيام، وكان في جملة أمرائه الأمير عز الدين أبو بكر الديبيسي - وهو من أكابر أمرائه، ومن ذوي الراى عنه - فدخل الديبيسي البلد فنزل بدار انسان يهودي وأخرجه منها. واستطاع اليهودي إلى الشهيد وهو راكب، فسأل عن حاله فأخبره به، وكان الشهيد واصل �ئ ودبيسي إلى جانبه ليس فوقه أحد، فلما سمع أتابك الخبر، نظر إلى الديبيسي نظر مغصوب ولم يكلمه كلمته واحدة، فتأخر القهرى ودخل البلد وأخرج خيامه وامته بنصبهما خارج البلد.

ولم تكن الأرض تحتعل وضع الخيام عليها لكثرة الوجال والطيب، قال: فقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته، فلما راوا كثرته جعلوا على الأرض تبنوا لقيومها وينصبوا الخيام، وخرج إليها من ساعته. وناهيك بهذا سياسة وإنصافاً.

قال: وكان ينمي أصحابه عن إقتناء الاملاك ويقول: هما البلاد لنا فلأ حاجه بكم إلى الاملاك، فإن الاقطاع تغني عنها، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الاملاك تذهب معها، ومثل صارت الاملاك لصاحب السلطان ظلمها الرعية وتعاد عاليهم وغصبوهم أملاكهم. رحمة الله ورضي الله عنه، فقد كان ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق، فما أحسن هذا الخلق، ولحسن هذا النظر للرعاية، وأكثر هذه الشفقة عليهم والرحمة لهم، لأخلاق في ان عمارة البلاد من ثمرات العمل وفك الإيدي المتماولة إلى أهلها.

وهمن علم حال هذه البلاد قبل ملكه عرف مقدار ما عمر منها، حكى لي ودي قال: رأيت الموصل التي هي أم البلاد في أول أيام الشهيد وأكثرها خرابًا، فكان الخراب من محلة الطبالين إلى القلعة وإلى دور السلطنة، وكانت القرصة ترى من قرب مسجد التركمان، وهو قريب من الطبالين، وكان الجامع العتيق أيضاً بلا
عمارة البيتة. وكانت جميع الحال المجاورة للسوري مسن سائر جهانه غير ممورة، وكان ابنها العمارة من السور ما يكون رمية حجراً، وكان الناس لا يقرون على المشي إلى الجامع في يوم الملكة الامام ناصر الدين كورين بن جكرمش، فانه طلب من الشهيد ان يدان له ليبني داراً قريبا من خدمته، فاجابه إلى ذلك، وأمره أن يبني بمكان يكون بينه وبين القلعة مقاذا حجر اللذينيق، فبنى داره الأول، ثم اليوم مرeda وقفتها أم الملك الصلاط، ثم بنيت بعد ذلك داره الأخرى اقرب إلى دار الملكة. وهذا الذي ذكرنه عن خراب البلد كثيراً جدا، فاما طالب الامام الشهيد، وحمي البلاد ومنع المفسدين وكف أيدي الاقوياء، سارين سيرته في البلاد، فقصده الناس واخذوا ببناء داراً، فانه من اكرم ارتباط. فلم تزال العمارة تكثك بالدوصل وغيرها، حتى نهي كثير من الناس بيني دورة. وهو الذي أمر بناء دار الملكة بالدوصل، ولم يكن بها السلطان غير النار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان، فبنى هذه الدور جميعها، ثم أمر بالزيادة في غلب السور الدوصل فزيد فيه ما يقدر مثله، وأشرف ظاهر إلى يومنا هذا في السور، وأمر أيضاً بتعيم خندقها، فعمل على ما هو عليه اليوم. وكانت الدوصل لا بغير سور، فأول من عمل لها سورة شرف الدولة مسلم بن قريش، ولم يعمل له قصيل ولا خندق، وكان قليل العدور. فاما ملكها جكرمش بن فصيلها وحفر لها خندق وليس بالعميق، فاما ملكها الشهيد، وحصرها المسترشد بالله على ما نذكرنه سنة سبع وعشرين، وفسداها ثم عاد عنها، أتم سورها وخندقها. ففعل ذلك وتواله نائب ناصر الدين، فهذا السور، وهذا الخندق هو على الحال الذي عملت في الامام الشهيد، وهو الذي فتح الباب العمادي وله يدنس.

قال المؤرخ: وكانت الدوصل لاقل بلاد الفاكهة، فكان الذي يبيع الفواكه يكون عليه مقرض يقصيه العنب لأنه إذا أراد أن يزنه، فلما عمرت البلاد، عملت اليسائتين بظاهراً وهي ولايتها، فهي اليوم أكثر البلاد فاكهة، فالمرأة يبقى إلى أن يدرك العشيق.
الجديد، وكذلك الكثيرون، وقريب منه العبب، وأما اللفاح فيجمع العتيق والجديد.

ومن ذلك حسن رأيه رحمة الله

فمن أرائه الصائبة، أنه كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لاصحابه حتى في خلوانهم، ولا سيما دركه السلاطين. وكان يخسر على ذلك المال الجزيل. وكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليلته ونهاره من حرب وسلام، وهزيل وجذوح وغير ذلك. فكان يصل إليه في كل يوم من عيونه عدة قاصمين.


قال: وأصغر من هذا أنه يغله اس جماعة من فلاحي مدينة
الموصل رحلوا الى بلد ماردين، فأرسل إلى حسام الدين يطلب منه أن يعيدهم. ردوا الجواب حيث نحن نحن إلى الفلجان ونخفف عنهم، وتأخذ منهم في الأسماء من الغلال العشر، فأفلقت انتم مثل فعلنا لم يفزكم. فقال الشهيد داروسلة: قد صاحبكم، إذا أخذتم من كل مائة سهما واحدا كان كثيرا لك، لأنك مشغول بالتشي في رأس ماردين. وأنا أنا قال فادخلت الثلاثين كان قيلًا، لما أنا بصدده من قصد الأعداء والجهاد، وأولئك لطال عايك أن تشرب الماء ادا، في ماردين، وكان القرنجي مالكها، وثمن لم تعد الفلاحين ولا أخذت كل فلاح في بلد ماردين إلى بلد الموصل، فاعانهم. فهذا مالاً مزيدًا عليه في معرفة أحوال الملكة.


ومن أركانه: أنه كان لا يعكر أحدا خدمه من مفارة بلاده، وكان يقول: إن البلاد كيستان عليه سياج، فمن هو خرج السياج يباب الدخول، فإن خرج منها يدل على عورتها ويطمع العدو فيها زلاك الهيبة وطرق الخصوم إليها. فمن ذلك فيه امير كبير يقال أبو بكر، وكان مقدم البحكية، وقع مشهورين به، فهرب منه حسام الدين، ثم ترشح بماردين، فأرسل الشهيد يطلبله لم يسلمه إليه، فنال ماردين وجمرها، فلم يعد حسام الدين عن منعه سيره إلى دركات السلطان مسعود، فلم بلغ.
الشهيد الخير أرسل الهدايا للسلطان والوزير فسلم إليه فسجنه
وكان آخر العهد به.

ومن صائب الرأي الجيد ما فعله من نقل طائفة من التركمان
الأيوانية مع الأمير البارق إلى الشام وسكنهم بولاية حلب،
وأمرهم بجهاد الفرنج، وملكهم كل ما استدعوه من البلد التي
للفرنج وضعها ملكا لهم، فكانوا يدفعون الفرنج الأقطال ويرا وحونهم
واخذوا كثيرا من السود، وسدوا ذلك النفق العظيم، ولم يستعلى
جميع ما فتحوه في يديهم إلى نحو سنة ستمئة.

ومن آرائه إنه ما اجتمع له الأموال الكثيرة اودع بعضها
بالوصول، وبعضها بصناعة، وبعضها بالحرب، وقال: إن جرى
علي بعض هذه الجهاد شرق والخيل بيني وبينه، استعين على
سد الخرق بالمال الذي في غيره.

ومن ذلك شجاعته وهيبته الهموية

وأما شجاعته وقادته فإليه النهاية، وبه كان يضرب المثل. أما
قبل أن يملك فمشاهده معروفة مشهورة، منها حملته على الفرنج
بطريركة ووصوله إلى بابها، وقد تقدم ذلك. ومنها أيضا حملته على
إصبغ قلعة عصر الحميدة وصعده في جبلها إلى سورها، ومقامة
هناك مشهورة إلى الآن إلى أشباه كثيرة لهذا، وأما بعد أن ملك
فتم عرف حاله احتمال الأعفاء والنازعين له بلاده، وصبره
واستيلائه مع هذا على بلادهم، علم مجهل من الشجاعة والصبر
والاقتدام، والذي حسب أنه في وادي مس ذلك، قائل كان
الشهيد - قدس الله روحه - قد أحق الأعفاء بولايته والنازعين
له، فمنهم أمير المؤمنين المسترشد بالله، قد كان
الحال بينهما ظاهرا، حتى أن المسترشد بالله سار إلى الوصول
وحصرها، ومنهم السلطان مسعود في أعمال الجبال وأذربيجان قد

- 204 -
جاور أعمال الشهيد بتلك النواحي، ومواقيت الخلق، وأكثرهم عساكر، وأشدهم كرادة للشهيد، ثم الي جانبه أعمال أرجينية، وهي البيت سكمان - لهم المصاكر الكثيرة والبلاد الساكنة، وهم أعداءه، وقد جاوروا، وقد جاوروا الدخان، وقد جاوروا، وغيرهم... ثم الي جانب بيت سكمان، ركن الدولة داود بن ساقمان ابن ارتق صاحب حصن كيّفا وديار بكر، وأبن عمه حسام الدين تمرتشاب بن إيلخاز جن ارتق صاحب ماردين، وقد جاوروا كثيرا من ولايته، منها: جنرال ابن عمر ونصيبين، ومع هؤلاء، فقد خاذ من بلادهم كثيرا، ثم الي جانبها الفرنج من قرب ماردين إلى باب دمشق، قد جاوروا بلاده من رأس عين، وحصن، وحبل، وحماه، وحمس، وبعلبك، وهم اشترقا قوة واكثر جماعة.

ومع هذا فهو يملك بلادهم ويوزمهم مرة بعد أخرى. ثم صاحب دمشق قد جاوروه بها، ومع هذا فهو يأخذ أيضا من بلاده، فكان لابستقر بل يغزو كلا منهم في عقر داره - مما أعاد السلطان مسعود - فإنه كان لأبيا شر قصده، بل كان يضع أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا، عاد السلطان إليه، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته، فئيس غلحا كأحافم على الجميع، وكلمهم مباشرة، وبخضع له، وطلب منه أن تستقر القواعد على يده. فانظر إلى هذه الشجاعة وهذا الراي والدبي. ولو لم يكن في زمانه غير ركن الدولة داود صاحب الحصن لكلف به، فإنه كان بعيد الصوت في التمردان يجمع منهم كل من حمل السلاح. وكان أيضاً مع هذا شجاعة مقدماً لاتضطر الهزائم شيئاً، بل يفارق المعركة مهزوماً. ثم يعاود الحرب بعد أيام.

واما الفرنج، فقد كانوا ما لايملك البلاد قد قهرها المسلمين، وملاكون بلادهم واكتروا فيهم أنظمة، ولهم فيهم الصوت العظيم والبهجة التي تحملهم على مفاصلة بلادهم خوفاً منهم، فلما ماك البلاد فعل بهم ما ذكرنا بعده، ولم يكن له فيهم نكبة غير أن جماه الأرها لكان عليه، ولما ما مك على المسير إلى الراوح حين فتحها، أحضر طعاماً وقال لأصحابه: لا يتقدم إلي...
ولا يأكل معي إلا من يحمل غدا معي على الرها، فلم يتقدم إليه غير رجلين، أحدهما شاب حسن، أول ما تكاملت ليحته، فمنعه أصحابه، فقال أتركوك فإنني أسبوع فشجاعة، فكان ذلك الشاب أول الناس ومقدمها إلى سور الرها.

وأما صدقاته رضي الله عنه

فكان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميري ظاهرة، ويتصدق في صلاة عهده من الأيام سرا مع من يشقي إليه. حكي لي أنه Recursive يوما فعثرت به دابته، فكاد يسقط عنها فأستدعى أميرًا كان معه اسمه بيلمان، فقال له كلما لم يفهمه بيلمان ولم يتجرس على أن يستفهم منه، فعاد عنه إلى بيتها فوعد أهله عازما على الهرب. فقالت له زوجته: ما ذتهك، وما الذي حملك على هذا الهرب؟ فذكر لها الحال. فقالت له: إن تصرير الدين له بك عناية، فذكر له قضائتك وافعل ما أ factura به، فقال: أخاف أن يمنعني عن الهرب وأهلك، فلم تزل زوجته تراجعه وتقوي عزمه على القول لنصبر الدين فرجع إلى قولهها، وقصص تصير الدين وعرفه حاله، فضحك وقال: خذ هذه الصدقة والنداير وأحملها إليك في التي أراد. فقال بيلمان: الله في سموم ونفسي، فإنا ما أراد غر هذى الصدقة، فحملها إليه فتحين راح قال: أعبد شيء. قال شيخنا: فأتمره أن يتصدق به، فلم ير بيلمان من الصدقة، فقصص تصير الدين وذكره وقال له: من أين علمت أنه أراد الصدقة؟ فقال له: إنه يتصدق كل يوم بمثل هذا القدر، يرسل إلي يأخذه من الليل، وفي يوم هذا لم يأخذه، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض وأرسلك إلي، فلمعت أنه ذكر الصدقة فأرسلت معه إليه. فانظر إلى هذه السعادة حيث قدر الله تعالى له مثل هذا النائب في شدة ذكائه وطفلته، وألى هذه الهيبة الشديدة التي منعت ذلك الأمير عن المراجعة، وبها انتهى القوي عن الضعيف.
وحكي لي والدي من شدة هويته ما هو أشد من هذا قال:
والدي: خرج يوما الشهيد من قلعة الجزيرة من باب السر خلوا، وماح له نائم، فقومه ببعض الجاندارة رقلاً له، أعتقد، فحين رأى الشهيد سقط إلى الأرض فحركوه فوجدوه ميتاً.

وأما قوة عزمه، وقلة تلته، وعلو همته
قال لي والدي رحمه الله: كان الشهيد رضي الله عنه قليل التلون والتنقل، بطيء المال والتغير، شديد العزم لم تغيره على أحد من أصحابه منذ ملك إلى أن قتل، إلا بيذيب برجل بلغ البلوغ، والأمراء والخادمون الذين كانوا معه أولاً، هم الذين بقوا أخيراً من سلم منهم من الموت، فلهذا كانوا ينصبونه ويبذلون نفوسهم له. قال والدي: كنت أرى من جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الوزير في الأيام الذهبية من الكفاحية والنظر في صغيرة الأمور وكثيرها، والمحاققة فيها ما يدل على تمكينه من الكفاحية. فلما وصل الأمر إلى ذلك قطع الدين مودود بين أتراك الشهيد وجمال الدين وزيره، حينئذ، وقد تمكن زين الدين علي بن يكتكين في الدولة تمكنة عظيمة، وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه، فكان جمال الدين مع تمكينه وعلو محله يهمل بعض الأمور، قال: فقلت له يوماً: أيك تلك الكفاحية التي كنا نراها منك في الأيام الذهبية، ما أرى منها الآن شيئاً؟ فقال لي: الآن ما عني كفاحية؟ قلت: ما هذا العمل من ذلك شيء. فقال: أنت صبي غر، ليست الكفاحية عبارة عن فعل واحد في كل زمان، إنما الكفاحية أن يسكن الإنسان في كل زمان ما يناسبه، ذلك الوقت كان لنا صاحب متمكن قوي العزم لايتجن، أحد على الاعتراف عليه، ولايلتزم بأقوال أصحابه فحفظه، وكان ما افعله كفاحية. وأما الآن فلзна سلطان غير متمكن وهو محكوم عليه، فهذا الذي افعله هو الكفاحية.

قال: وكان له جماعة كثيرة خراسانية في الركاب لهم الجامكية.
الوافرة، وكان في الديوان من يجمعونها من جهاتها ويقسمونها عليهم كل ثلاثة أشهر مرة، ففي بعض السنين تأخرت جامكياتهم تأخرًا بسراً، فاجتمعوا ووقفوا بحيث يراهم مجتمعين، فعلم أنهم يشقون شيئا، ف✍ال إليهم وسألهم عن حالهم فذكرهم له، فقال لهم: اشكوتم إلى الديوان؟ قالوا: لا. قال: فقل ذكركم ح함كم لصلاح الدين أمير حاحب؟ قالوا: لا. قال: فلاي شيء أعطي الديوان ملكة الفئران، وأعطي الأمير حاحب أكثر من ذلك. إذا كنت أنا أتولى الأمور صغيرة وكبيرة، كنت شكوتم حالفكم إلى الديوان، فإن اهملوا أمركم كنت قلتكم لصلاح الدين، فإن اهمل أمركم كنت شكوتم الجميع إليه حتى كنت أعاقيهم على اهمالكم، وإذا الآن فالنبن لكم. ثم أمر بتأديبهم وقطع جامكياتهم حتى شفع فيهم بعض الأفراد، فعفا عنهم. ثم أُحضروا الديوان وصلاح الدين وقال لهم: إذا كنت تهمولون أمر جندي الذين تحت ركابي ومن هو ملازمي في سفري وإقامتي، وهم من الحاجة إلى النفقات في استغلالهم ما تعلموه، فكيف يكون حال من بعد عني، وإنكر عليهم، فخرجوا من عقدته وفرقو في الاغان من أموالهم حتى وصلت جامكياتهم، فأخذوا عوض ما أخرجوه. فرحهم الله فلقد كان حسن السياسة والضبط للأمور، فإنه بهذه الحالة الواحدة أصلح الجندين لمطاعة الديوان، وأصلح الديوان للفظاء في مصالح الجندين، وعزم نفسه أن يدخل في هذا الأمر الحقيق، وسهل عليه بدل المبلغ الكبير من يقوم باموره.

وكان ديوانه يقاس بدراويين السلاميين السلكية لكثرة التجميل ونفاذ الأمور وعظيم الحماية والخروج. قال والدي: كان الإنسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً، فإن كان جندياً استلم عليه الاجتاد وأضافوه، وقاموا بما يحتاج إليه للكثرة أموالهم. وإن كان القادم صاحب ديوان، قصد منزلة الديوان فراؤو من تتوفرهم عليه، ونظروهم في مصالحه ما يكون كانه في أهله. وإن كان عالماً، فيقصد خيام القضاة بني الشهر زوري وجماعتهم والمتعلمين بهم من قضاة البلاد، فبحسون اليه ويتون غريثه فيعود أهلاً، وسبب ذلك
جامعة إنه كان يخطب الرجال ذوي الهم الulaire ، والأراص الصائبة ، والأنثى الآنية ، ويومع عليهم في أزراقهم فيسحل عليهم فعل الجميل وأصطناع المعروف ．

وأما غيرته

فكان الشهيد رحمه الله تعالى شديد الغيرة على الحريم ، ولا سيما نساء الأجانب ، فإن التعرض اليه كان من النذوب التي لا يغفرها ، وكان يقول : إن جندى ليفارقوني في سفاري ، وما يقيمون عند أهليهم ، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هللك وفسدن . فمن شدة غيرته وتعظيمه لهذا النذب ، أنه كان قد أقام دزمة بقعة الجزيرة اسمه حسن وليقه تقة الدين وعرف بالبريغي ، وكان من خواصه واقرب الناس إليه ، وكان غير مرجي السيرة ، فبلغه عنه أنه يغريب للحرم ، فقرر جميه صلاح الدين الباريسيان أن يسير مجدداً ويستقبل الجزيرة بжитьة ، فإذا دخلها أخذ البريغي وقطع ذكره وقلع عينيه عقوبة لنظمه بهما إلى الحرم ثم يصالبه ، فسار صلاح الدين مجدداً ، فلم يشعر البريغي الا وقد وصل إلى البلد ، فخرج إلى لقائه ، فكرمه صلاح الدين ودخل معه البلد ، وقال له : المؤلي أتاك يسلم عليك ، ويريد أن يعلي قدرك ويرفع مزلك ، ويلسه لقالة خب ، ووليكي جميع البلد الشامياً لتكون هناك مثل صبر الدين هناها ، فتعزز وتحدر مالك في الماء إلى الوصول وتتسر إلى خدمته ، ففرح ذلك المسكيون ولم يترك له قليل ولا كثيراً إلا تقلبه إلى السفن ليحرره إلى الوصول في نجل في جمع ذلك ، أخذ صلاح الدين وأمضى في ما أمر به ، فصفر من جميع فعاله ، فأعجب من حرم هذا السلطان احتياطه حيث أرسل أكبر من في دولته ، وأخفى أمره خوفاً من جهل ذلك الدنيار ان يحمله على العصيان ، أو على أمر يعتب في تلافيه . ثم أنظر من صلاح الدين كيف خدع ذلك المسكي بأكرامه ووعده بالعمال السنة حتى أخرج
ولا سك غير هذا لعدم مئته الكثير.

وما فعله جمال الدين الوزير إلى أن ملك

 لما قتل أتاباك الشهيد بالله ، هرب جمال الدين واختصى عند
امير يعرف بأمير الجناز. خوفاً من صلاح الدين الياغيسياني
لدعوته كانت بينهما . وفي تلك الليلة ركبه الملك البال ارسلان ابن
السلطان محمود - وكان مع الشهيد - وأجتمعت العساكر عليه
وخدموه، فسار جمال الدين إلى صالح الدين يقوقول له: إن
المصلحة ان نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا، ونسلك طريقة يبقى به
ملك في أولاد صاحبنا، ونعمل بيته جزاء لاحسانه إليه، فإن الملك
ق narrowing of text - 201 -
بالشام لهذا السبب، وأنه ظن أن أمر الملك يقوى ويمكّن البلاد ولا يبقى لأولاد الشهيد شيء شرقي الغرات. وكان أحب الآشье إلى جمال الدين بعد صلاح الدين أيضاً، لأنه لم يأمن منه، فبذا أمر الملك بمسير صلاح الدين إلى الشام ساراً، وحكي جمال الدين وحده مع الملك، فأخذه وقضى الرقة، فحسن له جمال الدين الابتعال بشرب الخمره والخلوة بالقدماء، وأرسل إليه عدة جُذور كن للشهيد، وشيئاً من المال يبهمه المغنين، وهوضع عليه أمر ملك البلد، وقوي طمعه فيما حتى ظن أنها في يده فاستغل الملك بذلك، وأراد أن يعطي الأمم، فمنعه خوفاً من أن يميل قاويهم إليه، وقال: لهم تلك الأقطاع الجزيل والنعم الوفيرة. وشرع جمال الدين يستعين العسكر ويعهد الأمم لسيف الدين بن إثاب الشهيد واحداً بعد واحد، وكل من يخلف بأمره بالاُسران إلى الموصل هارباً من الملك، وأقام بالملك في الرقة عدة أيام، ثم سار إلى ماسين (65)، فتركه بها عدة أيام أيضاً، وقد شغل جمال الدين بلانته عن طلب الملك، ثم سار به نحو سنجر، وكان سيف الدين قد دخل الموصل فاستقر بها، فقوي حينئذ جنان جمال الدين (وصل هو والملك إلى سنجر) (61) وأرسل إلى دُزارة وقال له: لا تسالم البلد ولا تمنع أحداً من دخوله، ولكن أرسل إلى الملك وقال له: أنا تبع الموصل، فتم دخول الموصل سلمت إليه، ففعل الدُزارة ذلك، فقال جمال الدين للملك: المصلحة ما استقر إلى الموصل، فإن ملاوكي غازي إذا سمع بقريناً منه خرج إلى الخيمة وحبثت تقبض عليه ونستسلم البلاد، فساروا عن سنجر، وكذك رجح العسكر هارين من الملك ففي قلة من العسكر، فساروا إلى مدينة بلد (62) وعبر الملك نجله من هناك، فلما عبرا، سار جمال الدين إلى الموصل فدخلاً، وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الدبيسي في عسكر إلى الملك، وهو في نفر يسير، فأخذوا ودخلوا الموصل، فكان آخر العهد يه. واستقر امرس في سيف الدين، وأقر زين الدين على على ماكان إليه من ولاية الموصل، وجعل جمال الدين وزيره، وإرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحقوه في سنة، فخالف، واقترب على البلاد وأرسل له الخيل. وكان هذا سيف الدين لأزم
ذكر عصيان أهل الرها واستيلاء المسلمين عليها ثانياً

 لما قتل الشهيد كان جوستين المريخجی - الذي كان صاحب الرها - في ولايته غرب الوفات في تل باشر ومجاجورا، فرسل أهل الرها - وكان عاصمهم من الأرمن - وواضعهم يوما يرسل إليهم فيه، فأجابوه، فسار في عساكرها إليها ومكّها، وانتنعت عليه القلعة بين فيها من المسلمين، وقاتلهم وجد في قتالهم، فبلغ الخبر إلى نور الدين - وهو حينذ بحول قد ملكها بعد قتال والده - فسار مجداله في المسخر الذي عده، فلما سمع جوستين بوصوله خرج عن الرها إلى بعله، ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبي أهلها وتفتح الدفة فتخرت ونال من أهلها ولم يبق منهم إلا القليل. وكان مصنف

بالقلعة قد ارسلوا إلى الموصول يعرفون سيف الدين الخبر، فوصل القاصد إلى ولاية الموصول، فلقي عز الدين أبا بكر الديبسي وقد سار إلى الجزيرة ليستلمها اقطاعها، فسار ملوك البقعة (٧٣) مصينا، فأتا القاصد سيف الدين خبر الرها، فطرك عز الدين قصد الجزيرة وسار نحو الرها، وأرسل إلى سيف الدين قاصدا مسرعاً بمد ينهى إليه الحال، ويطلب منه المدد. فجهزت العساكر من الموصول وجد عز الدين في السبيل، فوصولا وقد ملكها نور الدين واستقر.
فيها، ونهبها وأجلى منها كان بها من الفرنج، وكان هذا فتحاً ثانياً، وبقيت الرها بيد نور الدين لم يعارضه فيها سيف الدين.

نادرة عجيبة

لما ملك دور الدين الرها ونهبها المسلمون، أرسل من غنائمها إلى الأمراء وغيرهم ماجرت به العادة. وكان زين الدين علي من جملة من أرسل إليه منها، وفي جملة مازارسل إليه عدة من الجواري فحملن إليه داره، ودخل لينظر إليهن. وقال لن عنده من أصحابه: مكانكم حتى أعود إليكم، فغاب عنهم قليلا ثم خرج، وقد اغتشال، وهو يضحى، فلما فقد قال: قد جري لي اليوم اعجوبة، وهى أنا لم أفتحها الرها مع الشهيد رحمه الله كان في جملة ماغنت جارية مالى نفسي إليها، فعزمت على أن أبيت معها، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر بإعداد الحسني والغنم، وكان مهيبا مخوفا، فلم أجرس على إتيانها وأطلقها، فلما كان الآن، أرسل إلى نور الدين سهمي من الغنيمة وفيه تلك الجارية، فوطنها خوفاً من العود.

ذكر اجتماع سيف الدين ونور الدين ابن يزنكي

لما فرغ سيف الدين من أصلاح أمر السلطان وتحليفه وتسخير أمر البلاد، عبر إلى الشام لينظر في تلك الدواحي، وقرر القيادة بينه وبين أخيه نور الدين وهو بحبل، وقد تأخر عن الحضور عن أخيه وخيله، فلم يزل يراسله ويستمثله، وكما طلب شيئاً أجابه إليه إستمالة لقلبه، فاستقرت الحال بينهما على أن يجمعا خارج المعسكر السيوفي، ومع كل واحد منهما خمسة فارس، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين سيف الدين حتى قرب منه، فحين رآه عرفه، فشريج له وقابل
الآية بين يديه وأمر أصحابه بالعود عليه فعادوا، وفتعل الدور الدين وسيف الدين بعد أن اعتنقوا وبكيا، فقال له سيف الدين: لم امتنته من المجرة إلي، كنت تخافني على نفسك؟ والله لم يخطر بالي ماتك، فقلت أريد البلاد ومع من اعيش، ومن اعتنض إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إلي؟

فاطم الزهراء نور الدين وسكت روعه، وعاد اليه جلبي فتجهز، وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه، سيف الدين، فامر سيف الدين بالعود ونزل بعسكره عنه، وقال له: لا غرض لي في مقامك عنيدي، وإنما غرضي أن تعام الملوك وفإن القفار اتفقنا، فمن يريد السوء بما يكف عنه، فلم يرجع الدور الدين وزيه إلى أن قضينا ما كنا فيه، وعاد كل واحد منهما إلى بلدته.

ذكر نزول الفرنج على دمشق وحصرها وما فعله

سيف الدين حتى رحوا عنها

في سنة ثلاث وأربعين وخمسين، خرج ملك الألماة من بلاد الفرنج في جيوش عظيمة لاتحصى كثرة من الأفرنج إلى بلاد الشام، واتفق هو ومن بساح الشام من الفرنج، واجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونزلوها، ولا يشك ملك الألماة أنه يملؤها وغيرها لكثيرة جموعه وعساكره. وهذا الدروع من الفرنج هم أكثر الفرنج عبدا وأوسعهم بلادا، وكلهم اكترهم عبدا وعددا، وأن كان غير ملكهم اشرف منه عدتهم واعظم محل، والسيف صديق أنباه من الكتب، فالأ دي حصره قلي وله صاحبها مصير الدين إخوته، محمد بن بوري بن طفتكين، وليس له من الأمر شيء، وإنما كان الأمر إلى منين الدين أنر مملوك جده طفتكين، فهو كان الحاكم والمدير للبلد والعسكر، وكان عاقلا خيرا بينا حسن السيرة، فجمع العسكر وحفظ البلاد، وحرصهم الفرنج وحروا إليهم سادات ربيع الأول، فخرج العسكر وأهل البلاد لدمعهم عن القرب منه، وكلن فيمن
خرج معهم، الفقيه حجة الدين يوسف بن دوناس الفلدوي المغربي، وكان شيخا كبيرا زاهدا عابدا، خرج راجا فرأء معين الدين ففصد وسما عليه، وقال له: باشئ انت مدعو وحسن نكاكيك، وليس بك قوة على القتال، فقال: فسحوم واشرى، فلا نقبله ولن استقبله يعني قول الله تعالى: {إن الله الحسن ممن المؤمنين انفسهم واموالهم} (64) الآية. وقدم وقاتل الافرنجي حتى قتل رضي الله عنه على مدى لب شهيدا {65}. وقري اسم الافرنجي وقدموا، فنزلوا بالدمان الأخضر ووضعوا أهل البلد عن ردهم عنه، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين، يستغفث ويستجده، ويسأله القديم عليه، ويعلمه شدة الأمر الذي قد دفعها إليه، فجمع سيف الدين عساكره وحشد، وسار مجددا إلى ميناء حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرت وعدي كل من يطير حمل السلاح من بلادي، فأنى إن جئت اللبك وقينا الافرنجي ليست دمشق بيد ذوي واصحابي وكانت الهزيمة علينا، لا أسلم منا أحد لبادنا عننا، وحينئذ يماك الافرنجي دمشق، وغيرها، فإن ارتت أن القاهم وقاتله، فقتل البلد على من أتى إليه، فإننا أتاسب ك، فإنك النصرة لنا على الافرنجي إنني لا أخذ دمشق ولا أقسم بها إلا مقدار ما يشرب العدو عنها وأعود إلى بلادي، فعطلة معين الدين في أوراق من الافرنجي.

أرسل سيف الدين إلى الافرنجي الغربي بهتدهم، وعلمه أن على قصدهم إن لم يرحلا، وأرسل معين الدين إليهم أيضا يقول لهم: قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر مالا طاقة لكم به، فإن انتم رحلتمعنا ولا سلمت البلد إليهم، وحينئذ لا تطمرون في السلام منه، أرسل إلى فرنجي النافذ يخوهم من أولاد المقربين إلى بلادهم، وقول لهم: إنتم بين أمراء مدينين، إن هؤلاء الافرنجي الغربي وبديلون علكم ملايينكم من البلد، وإن سلمت لنا دمشق إلى سيف الدين فانتم تعلمون أنكم لا نتقدمن على منهع عن البيت المقدس، وبذل لكم أن نسلم إليهم بنايا، إن رحلوا ملك الألمن عن دمشق، فاجابوه إلى ذلك وعلموا صدقته، وأجتمعوا
ذكر فتح دوّر الدين حصن العراقة

لما رحل الفرنج عن دمشق، سار معين الدين أدرأ إلى بعلبك، واستسلم إلى دوّر الدين، وهو مع أخيه سيف الدين. فسأله أن يحضر عنددها فيجتمع به. فسار إليه واجتمعوا فوصل إليهما حينذاك كتب ملك العربة، صاحب طرابلس، يذكر بقصص حصن العربة وأخوه من قصصه، فصار إليه مجتباهًا، وكتب إلى سيف الدين وهو بمصر يستندبه ويطلبان المدد، فاصلهم بعسكر جرجر، وجعل مقدمه على الدين، باهر الديببجي، فحصروا الحصن وبيته بين الفقه، فامتعبهم حماد، فزحف المسلمون إليه، وتقدم التقابون الذين مع دوّر الدين وتقولوا السور، فكلما رأوا الفرنج ذلك، ازعنوا واستسلموا، وألقوا ما ي钡همهم فملك المسلمين الحصن، واخذوا كل من فيه من رجل وصبي وامرأة وفيهم ابن الفقه، وابن حصن وعادوا إلى سيف الدين.
ذكر مالك سيف الدين قلعة دارا

قد ذكرنا أن أتابك الشهيد رضي الله عنه مالك دارا (٧٧٠) وقيل ببيده إلى أن قتل، فلما قتل أخذها جاسم الدين ثم رتش ساحب ماردين، فكان في سنة أربع وأربعين وخمسة سنة سار سيف الدين إليها وحصرها، وقاتل من فيها وضيق عليهم فماك الحصن، واستولى على كثير من بلد ماردين بسببه.

ذكر حصار قلعة ماردين الشهباء

ثم إن سيف الدين سار إلى ماردين وحصرها، عازماً على أن يدخل ديار بكر ويستعيد مالخود من البلاد. بعد قتل والده الشهيد رضي الله عنه، فأقام عليها يحاصرها، وتفرج العسكر في بلدان ينتهيون ويخربون، فلما نظر حسام الدين صاحبه إلى ما يفعل العسكر في بلاده، قال: كنا نشكو من أتابك الشهيد وآين إياه، فلقد كانت أعياداً، قد حصننا غير مرة فلم يتع اووعصكره حماه. السلطان، ولا أخذوا كافاً من التبن بغير ثمنه.

رب يوم بكيت فيه فلما صرت في غيره بكيت عليه

ثم إنه راسل سيف الدين وأصلحه على ماراد ووزعه ابنه الخاتون، ورحل سيف الدين عن ماردين وعاد إلى الموصل، وجوزته خاتون وسيرت إليها. فوصلت إلى الموصل وهو مريض قد أشرف على الموت، فدفعت ولم يدخل بها. فلما توفي تزوجها أخوه الملك قطب الدين مودود. فكان أولاده الملوك منها.
ذكر غزو الفرنج يبغري وما جرى لهم فيها

في سنة ثلاث وأربعين وخمسين ميلاد: روى الدين محمود بن الشهيد رضي عنهما إلى يغري، وقد اجتمع بهما الفرنج في قضيهم وقضيتهما، وقد عزموا على قصد بلاد الإسلام. فلما سمع دور الدين خبرهم سار نحوهم، فاتقوا هنالك واشتنوا اشتم قتال، ثم انزل الله تعالى نصره على المسلمين، وإنهم الفرنج واخذتهم سيوف المسلمين، فكانوا بين قتيل واسير واما السالم منهم من المعركة فقليل، ولها يقول القصيبي (٦٩) في هذه الوقعة من قصيدة في اولها:

"يا ليت ان الصد مصدود
أولا فليت اليوم مردود
الى متى يعرض عن مغرم
في خده للدموع الاحذود

ومنها في ذكره:
وكيف لانثني على عيشنا ال محمود والسلطان محمود
وصارم الإسلام لابنتي
الأ وشلو الكفر مقدود
مناقب لم تك موجودة
الأ ودور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها
عند ملوك الشرك مشهود"

٢١٨ -
ذكر وفاة سيف الدين غازي بن اتابك عماد الدين زنكي

في أواخر جمادى الآخرة من سنة أربع واربعين ومسمات ، توفي سيف الدين غازي بن اتابك عماد الدين زنكي بن اقسامار. وكان مرضه حمى حارة ، فأرسل إلى بغداد وأحضر أحمد الزمان الطبيب ، ولم يكن في زمانه تعرض منه بالطب فلما رأى شدة مرضه علم أن الإغالب عليه العطب ، فأعلم جمال الدين وزين الدين حاله ، وقال لهما : ليس له علاج غير شيء واحد ، وهو خطر فعالجه ، فتوه. وكان عمره نحو أربعين سنة . وكان من احسن الناس صورة ، ودفنه بالدرسة التي انشاها بالموصل ، وخاف ودا ذكرا اخذه عمه نور الدين محمود ورباه واحسن تربيته ، وزوجه بابنة عمه قطب الدين مودود ، فلم تتأثر إياها وأدركه اجله في عين فوان شبابه فتوه. وانقرض عقب سيف الدين رحمه الله تعالى.

في ذكر بعض سيرته وأخلاقه رحمه الله

كان رحمه الله تعالى كريمًا شجاعًا عاقلًا ، ذا حزم وزعم ، ولا توفي وإله الشهيد . استوزر جمال الدين إيا جعفر المقد مذكره ، وحكمه وأطلعه عشر بحل له ، واقترز الدين علي على ولاية قلعة الموصل ، وكان له إريل ، فزاد اقطاعه وأعله محله ، وأعطق عز الدين إيا بكر الدبسجي -جزيرته ابن عمر وجميع قلال الزوران وغيرهما ، وقرر أمر المملكة فلم يتغير شيء بقتل والده .

حكى لي والدي : أنه كان راتبه كل يوم أسماءه مائة شاة بكرة ، ينزل الجند في خدمته كل يوم ويأكلون الطعام ، وكان له سماط أخر
النهار، يذبح له كل يوم ثلاثة من الفنادق الجيد، سوي الخيل والبقر.

وهو أول من حمل على رأسه سنجق من أصحاب الاطراف، فانه لم يكن فيهم من يفعله لأجل السلاطين السلجوقية.

وهو أول من أمر عسكره أن لا يركب أحدهم إلا والسيف في وسطه والدروع تحت ركابه سفراء وحضرا، ولم يكن يفعل قبل ذلك في سائر البلاد إلا في السفر، فلما أمر هو عسكره اقتدي به غيره من أصحاب الاطراف.

وبنى بالموصل المدرسة الأتافكية العتيقة، وهي من أحسن المدارس وأوجهاها، وجعلها وفقاً على الفقهاء الشافعية والحنفية.

وبنى أيضاً رباطاً للصومية بالموضى وهو الرابط المجاور لباب المشرعة، ووقف عليها الوقوف الكثيرة.

قال: وكان جمال الدين، وزين الدين، وعز الدين الدبيسي، قد اتفقا كابنتهم في إياهم، واضطر إلى مبلاداتهم، لأنهم كانوا يخوفون السلطان، فلم يطال ذلك عليه، عزم على المسير إلى السلطان مسعود وقال لهم: أنا كنت من القراء الناس إلى السلطان، ومنزلتي عليه مشهورة، ولا بد من المسير إليه، فخافوه إن هو سار إليه، أن يعود وقد من جانبه فلا يبقي عليهم، فكانوا لايزادوا يتعودونه عما يريد من ذلك إلى أن أدركها أجهله.

وكان كريماً، قد قصده شهاب الدين الحصص برس وامتده بقصيده المشهورة التي أولها يقول: "شعر.

الام يراك المجد في زين شاعر
وقد نجلت شروق فروع المناجر

- 220 -
لا توفي سيف الدين غازي، كان الأخوه قطب الدين مـودود بالموصل، فاتفقته كلمة جمال الدين وزين الدين على تمليه طلبته للسلامة منه، فانه كان لين الجانب، حسن الأخلاق، كثير الحلم، كريم الطبع، فاحترموه من داره وحاافظه لهم، ونزل بدار الملكة وحلف له الأعفاء والأمن، واستقر في الملك، واطعه جميع مكان لأخيه سيف الدين، لأن الدروج كان في جميع الملكة إلى جمال الدين وزين الدين، ولا ملك واستقر في الملك، وتزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتشش الذي كان سيف الدين تزوجها ولم يدخل بها، فولدت لقب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده على مانذكره، ولم يملكها من اولاد قطب الدين احد من غير اولادها

في ذكر فاطمة ابنة عبد الملك

معرفة حسنة تذكر

قد ذكر أصحاب التواريخ والمعرف، أن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأمها عائشة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان - جد أمها وأبيها -، وأبنته يزيد - وهو جدها لامه -، ومعاوية بن يزيد - وهو خالها -، ومروان بن الحكم - وهو جدها لأبيها -، وعبد الملك بن مروان - وهو أبها - والوليد، وسليمان وزيد، وهشام أولاد عبد الملك - وهم أخوه -، وعمر ابن عبد العزيز - وهو زوجها -، والوليد بن يزيد - يزيد ابن عبد الملك - وهو ابن أخيها -، وزيد وأبراهيم ابنه الأول بن عبد
ذاكر ملك نور الدين محمود بن الشهيد مدينة سنجار
وماكان بينه وبين أخيه قطب الدين

لم ماك قطب الدين الموصل والبلاد الجزيرة بعد وفاة أخيه سيف الدين غازى، كان نور الدين محمود بحباب وهو أكبر من قطب الدين - فكاتبه بعض الأمراء وطلبوا اليه، وكانهم حسبوا زين الدين وجمال الدين، وأرادوا أن يحكم عليهم ابن صاحبهم، وكان فيمن كاتبه، الدقم والد شمس الدين ابن المقدم وهو حديث ديدار سنجار - واستعده ليسلم إليه سنجار، فسار نور الدين جريدة في سبعين فارسا في أكار دولته، منهم ابن الدين شيركوه، ومجد
الدين أبو بكر بن الديابة وغيرهما، فوصل الي ما كاسين في ستة
نفس في يوم شديد المطر وعليهم اللبابيد، فلم يعذروه ال denomination
بالباب، ورسوا إلى الديبة وأخبروه بوصول نور الدين،
وكانهم تركمان، فلم يستم الماقت كلاماً حتى وصل نور الدين،
فعين راه المقتنا قبل يده وخرج عن الديبة، فنزلوا نور الدين حتى
الحق به أصحابه، وسار مجدًا إلى سنجر، فوصلهم وليس معه
غير ذكر يسير، فنزل بظامه أبل وألقى نفسه على محفور صغير
من شدة تعاب وأرسل إلى الديبة بالقلعة يعرفه وصوله، وكان الديبة
قد استدعى إلى الديبة، لأن خبره مسأله نور الدين بلغ من
ههم، فأرسلوا إليه وأحضروه في وقفة عدة أيام فلم يصر نور
الدين، فسار إلى الديبة وترك ابنه شمس الدين بسنجر، وقال
له: أنا أتأخر في الديبة، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعزمي
فأما فارق سنجر وصل نور الدين، فلما علم شمس الدين بوصوله
ارسل أصاعد مجدًا إلى أبيه بالخير، وأنهى الحال إلى نور الدين
فاست في وجه وسلاط فوات الديبة، ووصل الديبة الذي سئله ابن
الموصل إلى أبيه، فأدركته يلمع، فعاد إلى سنجر وسلموا إليه
الدين، فكاتب نور الدين فخر الدين قرأرسان بن داوود صاحب
الحصن، يستلجل، وبدل له قلعة الهيثم، فسار إليه بجنه وأن
سمع أتاه بك طلب الدين الخبر، جمع عساكر وهو وساع جمع
 نحو سنجر ومعه جمال الدين وزين الدين، نزلوا بش كل يفر
ورسلوا إلى نور الدين بنكرعون عليه أقدامه واخذه ماليس
له، ويهيدور ببندته وأخراجه عن الديبة، فهناه لم يرجع اختيارا
فاعاذ الجواب: إنني أنا الأكبر وإن يأج أن أبادر أمرك
 Dịch
مما، وماحتجت إلا ما تابعت إلي كتب الأمراء بنكرعون، كراهتهم
لولاية كاسين، فعند بناد الدين فальное
يحمله الفيظ والأنف على اخراج الأمر عن بينا، وام تهديدهم إياي
بالحرب والقتال، فأنا لا أقاتلك إلا بجنه، وكان قد هرب إليه
جماعة من اهتدوهم، فخافوا أن يلقوا مثله يخافر عليهم بباقي
المسكر، ودخل الأمراء في المثل وشارك به جمال الدين، وقال:
نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبق نور الدين، ونور الدين يظهر
الفرح أنه يحكمنا ويتهددهم بنا، فإن كاشفنا وحارينا فإن ظفر
بنا طمع فينا السلطان، وإن ظفرنا به طمع في الفرح، ولنا
بالشام حمص وقد صار له عندنا سنجرا، فههده أدفع لنا سنن
ذلك، وذلك ادفع له من هذه، والراوي إن نسلم إليه حمص وناخذ
سنجر، وهو في ثغر يزراء الفرنج ويعيين مساعدته، فسافق
الجماعة على هذا الرأى وسار إليها جمال الدين فآكرمه نور الدين
وبالغ في تعظيمه وأكرمه وعاته جمال الدين وقال: كنت أرسلت
إلي في شيء تريده من البلاد حتى كنت أفعل ماتريد ولا تطم فيك
الاعدا وفينا، وطال الحديث بينهما، وأجاب نور الدين إلى مطلبة
منه، واستقر الصلح على ذلك، وتسليم ذور الدين حمص، وتسليم
سنجر إلى أخيه وعاد ذور الدين إلى الشام، وأخذ ما كان يسنجر
من المال، ولنا أراد العود، قال لجمال الدين: لأبدين أن تكون
عني، فلي من الحق مثل مالأخي، فان أجوزا ليك منه، فقال له
جمال الدين: أنت فيك من الاقتافية مساتغنى به عن وزير
ومشير، وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك، فلقد عدوك كافر
فالتى بدفعه دينة، وأعدا أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم
بدفعهم، وإذا كنت عند أخيك فلا يدفع عائذ إلك، وأريد من بلدك
مثل ما لم بلاد أخيك معونة على كفدة خيرك، فأتارب إلى
ذلك، فقال له جمال الدين: أنت عليك خرج كثير لأجل الخطر ويجب
مساعدتك، وإذا أقنع ذلك بعثة أخفاكا من سن، فأمر له
بها، فكان نائب جمال الدين يقبضها، كل سنة ويشترى بها أسرى
من الفرنج ويطلقهم.

ولا تسلم قطب الدين سنجرا أقطعها زين الدين، لان حمص
كانت لأخيه وهو مقيم بها، وانتقت كامتهم، واتحدث أراوهم فكان
كل واحد منهما لايصدر إلا عن أمر أخيه.
ذكر قضية قلعة سنجار

قال: فلما مات سيف الدين وتولى آخره قطب الدين، أحضر شمس الدين محمد بن المقدم عبد الملك من سنجار. وكان هذًا شمس الدين خصيصًا بسيف الدين، وسبب وصلته به أنه لقص سيف الدين خدمة السلطان مسعود السلجوقى. رتب في خدمته عشرة من الجندارية، وكان عبد الملك واحدا منهم، ومعه ولده مليف الصورة، فكافح به وأحبه واستصحبه معه إلى الموصل، وله أنفرق عبد الملك من الجندارية ويتبع سيف الدين إلى الموصل.

استخلف سيف الدين، عبد الملك في سنجار.

فلم توفي سيف الدين وتملك قطب الدين، أرسل إلى سنجار واستطلب إليه شمس الدين ابن عبد الملك فاستحضره وحالفه على أنه لا يمكن والده من تسليم سنجار إلى غيره، فكافح له ثم هرب من عند قطب الدين إلى سنجار، فعندما استولى أمر قطب الدين بالموصول واستقرت له المملكة كتب عبد الملك لنور الدين أن يسامعه إليه، وعندما انظر خزانة بيتي أتاك جميعها في سنجار فلما بلغ قطب الدين ذلك، سير اليها ولاطفهما ودخل لهم، فما في مال تقرا عليه، وحالف له بعض من قاضيها وأعيان شهودها، واقترب الرسول أن يستصحب معه شمس الدين إلى الموصل، فسأبه عليه. وادعى الحياه من قطب الدين لكونه خرج هاربا منه، فاقترب إلى خروج والده عن سنجار مرحلة، قدمها دوز الدين من حلب في مانتي فارس، فهدف شمس الدين إلى والده المقدم عبد الملك يعده nhé بوصوله، فخرج ولم يقدر الرسول على منعه.

وكان شمس الدين عند قدم دوز الدين قد فتح الخزانة، واختار منها من نفائس الجواهر واخبار الخنازير مابيع وجهوده، وكتب إلى دوز الدين في تسليم البلد إليه، على أن لايطالبه بشيء ما screening
الخـذ، فأجابه إلى ذلك، وتسـمـل البلـد يوم الاثنين عاـشر
رجب، وحصل ابن المقدم على مافي يده من النخائر.

ولما بلغ قطب الدين مأتمقو بعث وـيزيره جـمـال الدين الأـصـهـائي
إلى رغماً ما كان في الخزائن من الأموال والأقمشة والجوهر، وـمعه
جريدة مِيتَضمن ذلك المال (71) وقال له: هذا مال المسلمين ولا يحل لـك إطلاـق شيء منـه، فقال نور
الدين: إن كان أخذ شيئاً من مال المسلمين بالغدر ففي عنقه.

ثم إن جمال الدين قـرر الصـلح بين نور الدين وبين أخيه قطب
الدين، على أن يأخذ نور الدين الخزائن التي في سنجار، ويخذـر
الرقة والرحبة وحماص ويعطيه سنجار وتبقي الـرضا في يـد نور الدين.
على ما كانت أولا.

ثم رحل نور الدين وترك نائبه فيها حتى يتسلم البلاد، وعاد إلى
حلب، ومعه خزائن سنجار على ستة آلاف جمل، مأخال الـبـغـال
ومافروقه على أولاد الملك والأمراء وستة وتسعين بغلا محمـلة
نها (72).

ذكر قتل البرنس صاحب انطاكية

في سنة أربع وأربعين وخمسمائة، سار نور الدين إلى حصن
حـارم وهو للفرنج، فحصره وخبى ربيته ونهب سواده.

ثم رحل عنه إلى حصن إنب فحصره، فأجتمعت الفرنج مع
البرنس صاحب انطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن إنب فلم يرحل بل
اقيينه، وتصاف الفرنجان واقتداوا وصدروا، وظهر من نور الدين
من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنـه ما تعجب الناس
منه. فانجلت الحرب عن هزيمة الفرنج وقتل المسلمين منهم خاقاً.
لكثيراً، وفيمن قتل، البرنس صاحب انطاكیة، وكان عائياً من عثاء الفرنس وذوي التقدم فيهم والملك.

ولما قتل البرنس خلف ابن صغيرا وهو بيمين، فقيّ معيّاً فين البانطاكية، فتزوجت أمه بابرنس آخر، وأقام معها بانطاكية يدير الجيش ويقودهم ويقاتله كل من إلى أن يكبر بيمين ابن المقتول.

ثم إن دور الدين غزا بلد الفرنس غزوة أخرى، فلقى فرسان الفرنس وقتلاً، فهزمهم وقتل منه وأسر فكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أم بيمين، فلما أسره تمكّن بيمين انطاكية بلداً وتمكّن منه، وبقي بها إلى أن أسره دور الدين بحارم سنة تعس وخمسين، وخمسين سنة على ما ذكره أن شاء الله تعالى. فكثر الشعراء مجد دور الدين وتهنئته بهذا الفتح وقائل البرنس فمسّن قُلّ فيه:

القيصراني الشاعر قصيدة المشهورة التي أولاها هذه الأبيات:

هذي العزائم لا ما تدعى القَضب
ودني المكارم لامائة فلحة الكتب

وهذه الهجمة اللاتي زمجت خطبت
تعطرت خلفها الأشعار والخطب

صارفحت يابن عماد الدين ذروتها
براحة للمساعي دونها تعب

مازال جيد بيهن كل شاهقة
حتى أبتني قبة اوتادها الشهب

أغرت سيفوك بالأفرن راجفة
فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كيشعهم منها بفاصمة
أودى بها الصليب وانحاطت بها الصليب

طهرت أرض الأعادي من دمائهم
ظهارة كيل سيف عندما جنب

حتى استطار شرار الزند قادحة
فالحراب تضرم والآجال تختطب

والخيل من تحت قتلاها تقربها
قوائم خانهن الركض والخيب

والنيل فوق صقال البيضاء ممتد
كما استقل دخان تحته لهب

والسيف هام على هام بمعركة
لا البيض ذو دومة فيها ولا اليلب

والنيل كالبوب هطالا وليس له
سوء القسي وأبد فوقها سحب

والظبس ظفر حالوا مذاقته
كأنما الضرب فيما بينها ضرب

والأسنة عما في صدورهم
مصدر أقوم تلك أم قلب

من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا
من الملاك فحور الدين محتسب.
ذو عزمٍ ما سمت واليل معتكر
الآ تمزق عن شمس الضي من الحجب

افعلنا كاسمه في كل حادثة
وجوهه نائب عن وصفه اللقب

وهي طويلة جداً. وما قال فيها بعض الشاميين وانسيت
اسمها:

أقوى الضلال واقترنت عرصاته
وعلا الهدي وتبلجت قسمته

وانتاش نين محمد محمود
من بعد ما علت دما عيراه

رتب على الإسلام عصر شابه
وثباته من دونه وثباثه

ارس قواعده ورد عمده
صدع وشيده سوره سورة

وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا
إصلاحه وصلاته وصلاته ( ٣٣ )

وهي أيضاً طويلة.
ذكر ملك حصن أُفامية

وفي سنة أربع وأربعين وخمسماة سَار ذُر الدَّين الَّذي حصن أُفامية، وهو للفروع أيضًا، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة، وله حصن منيع على تل مرتفع عال، ومنحح احصان القلاع وامنعها، وكان من به من الفروع يغورو على مدينة حماة وشيئًا ويهبونها، وأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار، فسار نور الدين اليوحه وحصوه وضيق عليه، ومنع من به القرار ليلة ونهارًا، وتتابع عليهم القتال ليمنعهم الاستراحة، فاجتمعت الفروع من سائر بلادها، وساروا نحوه ليرجعوا عنه، فلم يصلوا إليه وقد ملك الحصن، وملاء نخائر من طعام ومال وسلاح وجمال، وأجمع ما يحتاج إليه فلما بلغه قرب الافراز منه سار نحوهم، فحين رأوا جده في ألقائهم، رجعوا القهر واصبحوا ببلادهم، وكان قصارهم أن صالحوه على ما أخذ ومدحه الشعراء فاكثروا، فمن ذلك قول ابن منير في قصيده التي أولها:

اُستَقَمَّ الممالك ما اطلت منارها
وجعلت مرحة الشفاه دسارها

وأَجَزَّ من ملك البلاد وأاهلها
روفاً تكذب عده اقطارها

أدركت تارك في البغاء وكتباً
مختاراً أحمد مختارها

عارة الزمن المغير سما له
منك المغير فاسترد معارها.

- ٢٣٠ -
 صارت نجومك فوقها ولربما
بانت تهتفها النجوم سراها

امست مع الشعراء العبور وأصبحت
شعراء تستقلي الفحول شوارها (۴) (۷۴)

وهي طويلة

ذكر الحرب بين دور الدين وجوسين

وانهـزام دور الدين رضي الله عنه في سنة (سـتـ واربعين
وخمسماة) (۷۵)

ف فيها سار دوار الدين إلى بلاد جوسين، وهي القلاع التي شمال
حلب، منها تل باشر، وعين تاب، وعازاز وغيرها من الحصون.
فجمع جوسين الفرنج فارسهم وراجلهم، ولقوا دور الدين، فكانت
بينهم حرب شديدة اجتت عـن انهزـام المسلمين وظـفر الفرنج، واخذ
جوسين سلاح دار كان لـدور الدين أـسيرا، واخذ ما معه من
السلاح. فافتش المساكين بمنبر جوسين بن قليب أرسلان السلاجق،
صاحب قونية وآخرين وغزوهما من تلك الأماكن. وكان دور الدين قد
تزوح ابتعد... وإرسل مع السلاح إليه يقول: قد اتفقو لـذلك السلاح
صبهرك، وسيارك، بعد هذا، فغزوه، فمعتته هذه الحالة على دوار
الدين، وأعمل الحيلة على جوسين حتى أسره على ما ذكره.

في ذكر أسر جوسين وملك بلاده

لما بلغ دوار الدين ما فعله جوسين من إرسال سلاحه إلى جمهـري
السلطان مسعود، قام لذلك وقعد، وهـجـرة الراحـة للأـخذ.
بتازته، وازكي العيون على جوسلين، وأحضر جماعة من التركمان ونجل لهم الرغائب من الاقتطاع والأموال. إنهم ظفروا بجوسلين اماً واصراً. لأنهم علم إن هذو جمع العصاكرالإسلامية لقضده. جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع. فأخذ إلى أعمال الحيلة، فافتق ان جوسلين خرج متصدعاً منزهناً في نفر

يسير، فاظفر به طائفة من التركمان فصانعهم على مال يبذله لهم. فرغبوا فيه وأجابوه إلى ذلك وأخفوا أمرهم عن نور الدين وارسل جوسلين في إحضار المال. فأتي بعض التركمان، وكان نور الدين بحلف فتحاعمه الحسن، فسمى

معه عسكراً أخذوا جوسلين من التركمان قـهراً، وكان نور الدين حينئذ بحصم. وكان أسره من أعظم الفتح على المسلمين، فإنه كان شيطانًا عائياً من شياطين الفرنج، شديد السوءة والمسلمين، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم، مما يعلمون من شجاعته وروده وسعة عدائه للملة الإسلامية، وقصوده قلبه على أهلها، وأصبت النصرانية كافة بأسره، وعظمت المصلحة عليهم بفوقه، وخلت بلادهم من حسامها، وغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده، وكان كثير الغدر والذكر لا يقف على شيء ولا يفي به، طالما صادحه نور الدين وهداه، فإذا أمن من جانبه بالعهد والمواكب ذكث وغر، فقيه غدره ومكره (ولا يحيق المكر النبي إلا باهله) (67)

فما أسر تبشير فتح كثير من بلادهم وقلاعهم فمنهم: تـل باشر، وعين تاب، واعزاز، وقودوس، والراوندان، وحصن البارة، ونـل خالد، وكرف سوود وحصن بـرفوفي بجي، عليم، ودالك، ومرعش، ونهر الجووز، وبرج الرصاص، وكان نور الدين رحمه اللـه تعالى، إذ فتح حصنًا لا يرحل عنه حتى يلاه رجاة وذائر تكفيفه عشر سنين، خوفاً من نصرة تجدد الفرنج على المسلمين، فتكون حصونهم مستعمرة غير محتاجة إلى شيء.
وقال الشعراء في هذه الحادثة فذكرنا، فمن ذلك قول القيسراei من قصيدة: أولها هذه الآيات حيث يقول:

"دعا ما ادعى من غزوة النهى والأمر" 
فما الملك إلا ما حيي بله القهر.

"ومن نحن الدنيا إليه عناها تصرف فيما شاء عن أنفسه الدهر".

"كما أهدت الأقمار للقصر اصره وأسعد فن من حواه لك الأسر".

"طفى وبغي عدوا على غاواته فاؤثقه الكفران، عداوه والكافر".

"وامست عزاز كاسمها بك عزة تشق على الدسرين لو أنها وكر".

"فسر واخلا الدنيا ضياء وبهجة فبالافق الباجي إلى ذا السن فقر".

"كاني بهذا العزم لا فاف حده وإيام بالقصر وقد قضي الأمر".

"وقد أصبح البيت المقدس طاهرا وليس سوى جاري الدماء له طهر (27)"

وقال بعض الشاميين أيضاً في هذا المعنى هذه الآيات:

"هيا صندق من ارت حذر من ومن أوهاقك الأقدار".

- 233 -
صدامه:
همم تحكك كل يوم رتبة
تسري فيصبح دونها الاقمار
ومطامح في العز إذ هي صويبة
فلحن في الفلك الأثير قرار
طلعت عليك بجولسنين ذريعه
لا سحل انشاها ولا امرار (78)
وسعادة مازلت تمرى خلفها
فيشف وهو الناتق المدرار
فارتك ما يجني الوفي وفاؤه
وارته كيف يحين الغدار (79)

وهي طويلة

ذكر المصاف بين ذور الدين والافرنج بدلوك

ما سارذور الدين الى قلاع جولسنين ليتمكها، ملك بعضا وباقي
بعض، فاجتمعت الأفرنج وسارت نحو الباقي لتمعنه منه، وصار
إنه يمتنع باجتماعهم ولا يقدم عليهم في عقر ديارهم، فلما بلغه
خبرهم سار إليه، وصمم العزم على لقائهم، فالتقوا بدلوك
واقتنعوا، وكان بين الطائفتين حرب يشبه لها الأولد، فمنع الله
المسلمين اكتاف الفرنج، فهزموهم هزيمة أدت على كثير منهم...
 وسلم الياقون، واستولى ذور الدين على دلوك وغيرها، وفي ذكرها
وفوزلاً قال بعض الشعراء الشاميين قضية فيها:

- 234 -
اعدت بعصرك هذا الأنيق
فتوح النبي وأعصارها
فواتي ياحبنا أحنينا
وأسرت من بدر انوارها
وكان مهاجرها تابعك
وانصار رأيك انصارها
فجدت إسلام سلمانها
وعمر جبد عمارها
وما يوم إب إلا كنت
ك بل طال بالبوع اشبارها
وايام الغر من بعده
تعيد إلى الطي أغزارها
ويوم على الجن جون السرا
ة عز فسعطها عارها
صادمت عريمتها صادة
انايت مع الماء احجارها
فصببت بالخمس احفاشها
ومسيت بالخمس ابكارها
وفي تلك باشر باشرتهم
بصفح تسور أسوارها
ذكر وفاة السلطان مسعود بن محمد بن السلطان ملكشاه السلجوقی بهمذان

في سنة اربع (٤٨١) وأربعين وخمسمئة، توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان وكان مرضاه حمى حادة نحو أسبوع، وعهد إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود وخطب له بلاد الجبل. وكان الغالب على البلاد والعساكر في أيام السلطان مسعود خاصبک ابن بلندكري، فقام بامر ملكشاه ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن السلطان محمود وهـو بخورستان يستعديه إليه ليخطب له بالسلطنة، وكان غرض خاصبک أن يقبض عليه أيضاً، ويذمر وجهه من منازع من السلوقي، وحينئذ يطلب السلطة لنفسه، فلما كتب محمداً أجابه إلى الحضور عنه، وسار إليه وهو بهمذان واجتمع به، وخدمه خاصبک خدمة عظيمة وحمل إليه التحف الكثيرة، فلما كان الغد من يوم وصول الملك محمد، دخل إليه خاصبک فقتلته محمد وإليه رأسه إلى أصحابه فتفتقروا، واستقر محمد وثبت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعها، وكان قتله سنة ثمان وأربعين وخمسمئة وثمان الرباع، وقتل معه بنك الأبار. وبيت خاصبک مطروحا حتى اكتله الكباب وكان ابناء حاله، أنه كان من أولاد بعض البربر، فخدم السلطان فمال إليه وقدمه حتى فات سائر الأمراء، فتقدم ثم تقدم عظيماً، واستولى على أكثر البلاد. وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود فان الأمراء الأئام كانوا يذفون من اتباعه، ما كان يعاملهم به من الهوى والتكبر عليهم، وفيها: اعنى سنة ثمان وأربعين وخمسمئة، وصل إلى الوصول، ماذا قفقات وهو من أكابر أمراء العجم - شاكيا من شمس
الدين ايلدكر، ومستغيثا عليه ومستشفعا اليه لانجاه بمساكر يفتح
بها مابيه من البلاد، فجهزت المساكر معه، وجعل مقدمها الامير
قراجها تجنه، مقطع بلد الهكارة، فوصلوا الى سلماس واقاموا
معه وأصلحوا حاله معه ايلدكر، وهو صاحب تلك البلاد جميعها،
وكان هذا قبل أن يستولي على همذان واصفان وسائر بلاد الجبل.
وفيها توفي حسام الدين تمرتش صاحب ماردین، وولي بعده ابنه
نجم الدين البي.
في ذكر ملك دوُن الدين دمشق

في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، ملك دوُن الدين مدينة دمشق، وعُرف من صاحبها ملجم الدين ابن محمد بن بوري بن طغتُكين أتابك، وكان الذي حمل دوُن الدين على الجد في ملكها، أن الفرنج ملكوا في السنة الخالية سنة عشرين وهي مدينة فلسطين حصانًا وحصانًا، وما كانوا يحصروها، كان دوُن الدين يتلهم، ولا يقدر على إزاعهم عنها، لأن دمشق في طريقه، وليس له طريق على غيرها لاعترض بلاد الفرنج في الوسط، فقوي الفرنج بها حتى طمعوا في دمشق، واستضفوا ملجم الدين وتابعوا غارة على أعماليه، وأكثروا القتل بها والنهب والسي، وزاد الأمر بالمسلمين بها، إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة، فكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويعيبها من أهل البلد. ثم اشتد البلاء على أهلها، حتى أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم من أخذ من سائر بلاد النصرانية، وخير وهم بين المقام عند موالاتهم أو العودة إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه، ومن أحب وطنه صار إليه، وزالت طاعة ملجم الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع أنسان منهم يقال له مؤيد الدين بن الصوفي (وزيرهم) وقامت الأمور بها هناك، وخاف أهلها وأشتفاقاً من العدو، فجاجروا إلى الله تعالى ودعوته إلى أن يكشف ما بينهم من الخوف، فاستجاب لهم وأنزل في خلاصهم مما هم فيه على يد أباحه عباده إليه، وأحسنتهم طريقة، وأمنهم سيرة، وهو الملك العادل حق دوُن الدين محمود، فحسن له السعي في ملك البلد، وألف له روعه، فلت بوطرس، فأدرك فيه قومه، أن إن رام ملكه بالقوة والحصار تعذر عليه، لأن صاحبهم كان متي رأى شبيئاً من ذلك، راسل الفرنج واستمالهم واستعان بهم. وكان ابغي الأشياء إلى الفرنج أن يملك دوُن الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له فكره إلا إذا أخذها وقوية بها، وانضاف إلى ذلك كراهيته لسأفة دماء المسلمين، فإن
الدم كان عنده عظيماً لما كان قد جبل عليه من الرافية والرحمة والعمل، فما رأى الحال هكذا عدل إلى اعمال الحيلة، فسار مجير الدين صاحبها واستماله، واصله بالهدايا وأظهر له الودة حتى وثق إليه، ثم صار يكتبه في بعض الأوقات ويقول له أن فلاناً - وذكر بعض الامراء الذين مجيء الدين قاد كاتبي في المخامرة عليك فاحذره، فتارة بأخذ اقطاع أحدهم، وتارة يقبض عليه. فما خلت دمشق من الأمراء، قدم أميراً كان عليه يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهماً شجاعاً، وفوض إليه امر دولته، وكان نور الدين لا يتخذه من دمشق معه، فقضى عليه مجير الدين وقتله، فقال له عند قتله: أن الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلي، واستبقتني فأنى يظهر لك ما أقول، فلم يضج إلى قلبه وقتله. فما قتل عطاء قوي طمع نور الدين في البلد، فرسل أحداث البلد وناطرته واستمالهم، فاجابوه على تسليم البلد، فسار إليه وحضرهم عدة أيام، فكاتب مجيء الدين الفريح وبدل لهم الأموال، وقعلة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه، وإلى أن جمعوا واجهوا، بلغهم أخذ نور الدين البلد فعادوا بخفي حنين.

وأما نور الدين فإنه لما حاصر البلد وضيق على من بـه، نار الاتحاد الدين كاتبهـم نور الدين وصاروا إليه البلد من السباب الشرقي، فدخله بالآمان عاشر صفر، وحضر مجيء الدين في القلعة، ورسل ونزل له الإقطاع الكبير، من حملته مدينة حمص، فاجابه إلى تسليم القلعة، سلمها إليه وسار إلى حمص.

ولا استقر نور الدين في البلد، عمل مع اهله مكره عظيمة، واظهر فيهم عدا عاماً سيداً جزء منه سبع وتسعين، عن ذكر سنة نور الدين رحمه الله تعالى، والقرن الإسلام بماشوق جرته، وثبت اوتاده، وايقن الكفار بالبار، وهموا واستكانوا، فصار جميع مابالشام من البلاد الإسلامية بيده نور الدين.

وأما مجيء الدين فإنه أقام بحمص، ورسل أهل دمشق في إثارة
ذكر القبض على سليمان شاه وحمله إلى الموصل

في جمادى الأولى من سنة أحادى وخمسين وخمسين، قبض زين الدين علي كوكك نائب اتابك قطب الدين مودود على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد وحمله إلى الموصل فسجنه بها. وسُبي ذلك

ان سليمان شاه استأنف الإمامة المقتفي لأرماه في قصد خدمته.

وسلان ان يشرف وبختم له ويعد بالمساكر لقصد بلاد الملك محمد ابن أخيه السلطان محمود، فاجابه إلى ذلك وان له، فسار إلى

بغداد فوصل إليها في المحرم سنة أحادي وخمسين وخمسين، واجتاح بدار الخلافة، وجمع النبلاء والقضاة والشهود، وحلف سليمان شاه الخليفة على قواعد استقرت بينهما، وخطب له ببغداد في المحرم، ولقى شاهذ الشاه المعظم غياث الدين والدين، وخلع عليه الخليفة وعلى الأمير قوينان وجعل الأمير قوينان، صاحب الحلة الأمير حاجب معه وسار نحو بلاد الجبل عازما على قصد بلاد الملك محمد، وخرج الخليفة إلى حلوان، وارسل إلى ملكشة ببن السلطان محمود، أخى سليمان شاه واستدعاه، فحضر ومعه الفاما فرس فقرر الخليفة القواعده بينه وبين سليمان شاه، وحلف كل واحد منهم الآخر، وسيرهما في المساكر وقواهما بالموال والعدد.

وبلغ الخبر إلى الملك محمد، فجمع عساكره ولقى سليمان شاه، وملكشة بقرب همدان وتصافوا، فانهزم سليمان شاه وملكشة، ونظر الملك محمد بعسكرهم وما معهم وعادوا منهم إلى بغداد.
وأما سليمان، فإن سار على شهر زور قاصدا نحو بغداد، وكان الملك محمد قد أرسل إلى أشبك قسطل الدين، وげるد النين، واستمالهما فأجاباه إلى مصافحته، وسار زين الدين نجدحة له في عسكر كثير، فبلغه خبر الهزيمة، وان سليمان شاه قد سار على شهر زور، وهي لزين الدين، وبذله بها الامير برزاز، فوقع زين الدين على طريقه، فألما وصل إليه، وهي رصيده عليه، وحمله إلى الموصول فحبسه بها مكرما معظما، وكانت الخطبة له بغداد.

في ذكر حصار نور الدين قلعة حارم

في هذه السنة، سار الملك العادل نور الدين محمد إلى قلعة حرم، وهي للفرسان، ثم لامتن صاحب عطاكية فحصراها، وهذا الحصن غربي حلب بالقرب من انطاكية، وضيق على أهلها، وهي من أمنع الحصون وأحصنتها في نور المسلمين، فاجتمع الفرسان من قرب منها وابتداء وساروا نحوه لمنعه. وكان بالحصن شيطان مكان شبايين الفرسان يعرفون عليه وحسته، وحسن رأيه، وبجوع الى قوله، فأرسل اليهم يعرفهم قوته، وانهم قدرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدان وحصائنه القلعة، ويشير عليهم بالطاولة وترك اللقاء. وقال لهم: ان قبطكم مزعمكم وان هذا حرم وغيرها، وإن حفظتم انفسكم منه اطعنا الانتفاع عليه، ففعلوا ما أمرنهم به وانتشار عليهم، وراسلوا نور الدين في الصلح على ان يعطوه حصة من اعمال حارم، فأتي ان يجيبهم الا على مناصفة الولادة، فأجابوه إلى ذلك، فصالحهم وعاد، وفي ذلك يقول بعض الشعراء، من أبيات له فيها يقول: شعر:

البست دين محمد يابوزه
عزا له فوق السها اساد.
مزلت تمسك بمياد القنا
حتى تثاقف عوده المياد

لم يبق منذ أرهفت عزمك دونه
عدد يراعيه ولا استعداد

إن المنابر لو تطبيق تكلما
حمدتك عن خطباتها الاعومات

ولعن حمل منك الإعادي مهنة
فلمن إلى المرعى الوعي معاد

ملق باطراف الفرنجة كلكلا
طرفا ضرب صادق وجلاد

حاموا فلما عاينوا خوض الردى
حاموا فراش كيدهم ما أوادوا

ورائه الأربعة وقد تبرنس ذلة
حرما بحارم والصاد مصاد

عجبنا لقوم حاولوك وحاولوا
عودا وفواتهم اليا مراد

من منظر ان ينسف السيل الريبي
وادي ذاك العارض المداد

أوان يعيد الشمس كاسفة السنا
نار لها ذاك الشهاب زناد

٢٤٨٧٢
لا ينفع الإباء ما اسمكوا من الرعياء حتى ترفع الأولد (83)

وهي طويلة.

في ذكر الزلزلة التي جرت في الشام ونواحيها

في سنة اثنين وخمسين وخمسمئة، كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة، أُجبرت البلاد وأهلكت العباد. وكان أشدها بحماة وحصن شيزر، فإنها خُلقت بمجرة، وكذلك ماجارهما حصن بارين، والمعرة وغيرها من البلاد والقلاع. وذلك تحت الهدم من الخلق مالا يحصيه إلا الله تعالى، وتهدد الأسوار والدور والقلاع. ولولا أن الله من عي المسلمين بنور الدين، جمع المساكين وحفظ البلاد. إلا كان نخلها المرجع غير قطع ولا حصار.

ولقد بلغني من كثرة الهلاك، أن بعض المعلمين بحماعة، ذكر أنه فأسار المكتب لهم عرض له، فجازت الزلزلة فأجبرت الدور، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم. قال المعلم، فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب، وأشياء هذه الحكآئية من الأخبار الدالة على أن كثرة الهلاك كثيرة جدا.

ذكر ملك الدولة المرحوم حصن شيزر

نبدئ، يذكر حصن شيزر وله كان قبل هنالك الوقت الذي ملكه نور الدين فيه، فقول: هذا الحصن قريب من حماة، بينهما نحو نصف نهار، وهو من أمنع القلاع وأحصصها، على حجر عال له طريق منقور في طرف الجبل. وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب، فإذا قطع ذلك الجسر تعرض الصعود إليه، وكان للمنفذ
الكتنين، يتوازون به من أيام صالح بن مورداس (84) إلى أن
إنتهى الأمر إلى الأمير أبي المرهف نصر بن علي بن المقداد بن نصر
ابن مندقل بن نصر بن هاشم بعد أبيه أبي الحسن علي، فقبيته مدة
 طويلة إلى أن مات بشيزر سنة إحدى وتسعين وأربعين، وفارقته.
وكان شجاعا كريما صواما قواما، فلما حضره الموت استخف أخاه
الأمير أبا سلامه مرشد بن علي، فقال: والله لا أؤتيتها ولا أخرج من
الدنيا كما اخختها، وكان عاليا بالقرآن والأدب، كثير الصلاح،
فولاها أخاه الآخر أبا المساكر سلطان بن علي، وكان أصغر منه،
فاصطحها أجمل صحبة مدة من الزمان، فأولد أبو سلامه مرشد عدة
أولاد ذكور، فكبروا وسادوا، منهم: عز الدولة أبا الحسن علي،
وأولاد مرشد وغيرهما، ولم يأخيه سلطان ولم يذكر إليه أن كبر
فجأه وفاته، فقد أخاه علي ذلك، وكان كلا ما أرزى صغر أولاده
وبكر أولاد أخيه وسماوتهما، ساء ذلك وخالفهم على أولاده، وسعى
المفسدون بينهما فغيروا كلا منهمما على أخيه، فكتب الأمير سلطان
إلى أخيه شعرًا يعاته على أشياء بلغته عنه فاجهبه ببابيات جيدة في
معناها، رأيت اثبات بعضها، وهي هذه الأبيات، شعر:

ظلام ابت في الظلم الاستماني
وفي الصد والهجران الانتهاء

شكت هجرنا في ذلك والندب ذنبها
فيا عجب من ظالم جاء شاكا

وطاعتك الواشي في وطاما
عصيت عذولا في هواها وواشيا

ومال بها تنه الجمال إلى القليل
وهيهات أن أمسى لها النهير قاليًا

- 244 -
ولا ناسيا ما ودعت من عهودها
وإن هي ابتنت جفوة وتناسيا
ولا ذاتي من قريضك جوهر
جمعت المعالي فيه لي والمتع
وكتت هجرت الشعر حينا لأنه
tولى برغمي حين ولي شبابي
واين من الاستين افظ موف
إذا رمت أدنى القول منه عصاني
وقلت أخي يرعى بني وسرتي
ويحفظ عهد فيهم ونمميا
ويجزيهم مالما وكلفه فعله
لنفسي فقد أعدته من تراثيا
فما لك ما أن حنني الدهر صدعتي
وتلم مني صارما كان ماضيا
تذكرت حتى صار برك قسوة
وقربك منهم جفوة وتناست
فاصبحت صفر الكف مما رجوتته
ارى اليس قد عفى سبيل رجائي
على أنتى ماهلت عما عهدته
ولا غبتى هذى السنون ودانيا
فلأ غرو عند الحادثات فانتي
اراك يمنين والانام شمالا

تهن بها عذراء لو قرتت بها
نجموم سماء لم تعد دراريا

تحلت بدر من صفاتك زانها
كما زان منظوم الملالي الغوانية

وعش بانيا للجدود ماكان وأهية
مشيدا من الأحسان ماكان هاوبا

وكان الأمر فيه في حياة الأمير مرشد بعض الستر، فأما ما بعده
سنة إحدى وثلاثين وخمسة مائة قلب أخوه لا ولده ظهر المجن،
وبياناهم بما سوءهم، وتمامه الأيام بينهم إلى أن قوي عليهمم
فأخرجهم من شيزر. وكان أعظم الأسباب في إخراجهم، محدثة
به عن مؤيد الدولة اسمة بن مرشد، قال: كنت من الشجاعة
والقادم على ما قدمه الناس، فبينما أنا بشير، وإذ قد أتاني
إنسان، فأخبرني ان برمله، يقاربها، أسنا ضاريا. قال: فركبت
فرسي وإختت سيفي وسرت إليه لا قلتله، ولم أعلم أحدا من الناس
عما أمنع من ذلك، فاما قريب من الأسد، نزلت عن فرسي وربطته
ومشيته نحوه. فاما راتي قصدني ووثب على، وغيره به السيف
على رأسه فانفقق، ثم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلة فرسي
وعدت إلى شيزر، ودخلت إلى الدنيا والقت الراس بين يديها
وحدها الحال، فقالت: يا باني تجهز للخروج من شيزر، فوالله
لا يملك عمك من المقام ولا أحدا من أخوتك، وأنت على هذه الأحوال
من الأقدام والجزرة، فاما كان الفن إذا قد أمر عمبه إخراجنا من
عنه، والزمنا به الزاما لامهلة فيه فتفرغنا في البلاد. فقصداوا الملك.
العادل ذكر الدين، وشُكروا إليه مالقاً من عملهم، فلم يعكِه قصده، واتخذ بثورهم واعدتهم إلى وطنهم لاشتغال بهجاء الكفار، وخلصه من أن يسلم شيرز إلى الفرنج، وبيغ في نفسه منه ابصار. وتوفي الأمير السلطان وولي بعده أولاده، فبلغ نور الدين عنهم مرساة الفرنج، فأتى مايس نفسه وينظر الفرصة، فلم يخبر النجلة بالزلزلة لم يسلم منها أحد كان في الحصن، فأباب إليه وماكها وأضافها إلى بلاده، وعمرها وعلهم أسواءها وإعدها كان لم تخب. وكذلك أيضا فعل بمدينة حماة وكل مأخبر بالشام بهذه النزلة، فغبت البلاد كأحسن ما كان.

ذكر وفاة عز الدين الدبيسي وحصار الجزيرة

في ذي الحجة من سنة اثنين وخمسين وخمسمائة، توفي الأمير عز الدين أبو بكر الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر، فسار قطب الدين اتابك مودداب ابن الشهيد إليها، ظنا منه أنها لا تمنع عليه، لأنها كانت بيد الدبيسي إقطاعاً منه، فما وصل إليها رأى أنه قد تغلب عليها ملك الدبيسي اسمه أجلبه، وقد أطلعه الجند وامتتعوا بالمدينة، وكان الدبيسي لم يخلف ولدا. فهذا تغلب بعده واقام اتاباً قطب الدين محاصرا المدينة عدة أشهر، لأنه لم يعان يضع من قدرها بالأسئرة في مالها، ثم تسامها وترك بيد أجلبه القلعة الخصبة بها وهي: كواشي (٥٨٠)، والزعفران، وفرح، وجميع قلعة الوززان وغيرهما، وعاد اتاباً إلى الوصل بعد الاستيلاء على الجزيرة، وكان الدبيسي من أكابر الأمراء، أخذ نفسه ماخذ الملاك، حكي لي والدي، أنه لم يضع علامته على إطلاع مال أبداً قبل أم كثر، وكان عفاؤاً حازماً، فرأي ويك وذكر.
ذكر حصار الملك محمد وزين الدين
دار السلام بغداد

في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، سار الملك محمد بن السلطان
محمود إلى بغداد ليحصرها، وأرسل إلى اتباع قطب الدين
يستمد، وطلب منه ان ينججه برسال العساكر. فهجز إليه
عسكرا كثيفا، وجعل مقدمة زين الدين نائبه في جميع بلاده ويسوء
الله، واجتمعوا بالملك محمد بدونه حربي، وساروا في الجبان
الغربي إلى بغداد فوصلوها في ذي القعدة. وبلغ الخبر إلى المقتفي
لأمر الله، فامر بإخبار قصر عيسى، والمربعة، والقرينة،
والمستجدة، والنجمي، ونهب أصحابه ما وجدوا في الدور من
الأموال والآثاث وغير ذلك، وعرف عسكر الملك محمد نهراً الثلاثين
والترية، وباب النيران، وقطع عام (87)، ولم يتعرض أحد للكره
وابن البصرة، وخرج أهلها من العسكر فاتجروا وكتبوا معهم
الأموال الكثيرة. وجد المقتفي لأمر الله في حفظ بغداد وجمعت
الفقات، وقام وزيه عون الدين بن هبة الله في هذا الأمر المقام الذي
يعجز عنه غيره.

ولا وصل العسكر إلى بغداد نصبها جسرًا على نهر، وعبر أكثر
العسكر إلى الجانب الشرقي وأقام زين الدين وعسكر أتباعه قطب
الدين بالجوان الغربي، نازلين تحت الماء، وكان القتال في الماء
على باب البلد، ولم يقتل بين الفريقين إلا نفر بسيئ، وإنما الجرح
كان كثيرا، وأمر المقتفي لأمر الله فندوي ببغداد: من جرح فله
خمسة نانوت، فكان كل نجاح يوصل ذلك إليه. فحضر بعض
العامة عند الوزير محرحا، فقال له الوزير: هذا جرح صغير
لاستحق عليه شيئا، فعاد إلى القتال ضرب في جوفه فخرجت
امعاً، فعاد إلى الوزير وقال له: يا ولانا الوزير: يرضيك هذًا.
ففضحه منها، وأمر له بصلة واحدة من عالجه.
ولم يزل الخليفة يرسل زين الدين ويستميله، إلى أن تغيرت نيته في الاقتراح، وتبعت الملك محمد عنه أيضاً، وكانت كتب الخليفة ورسله صادرة إلى جميع أصحاب الأطراف المجاورين الملك محمد، يحثهم على قصد بلاده، واقطع كل صاحب طرف مباركها منها، فتحرك أصحاب الأطراف.

وكان قد طال المقام على بغداد ولم ينزل الملك محمد منها غرضًا ولا علا بها س Gemsbok، لان الوزير كان يتعون الاجتذاب الغلال عوض الأموال، فيبيعونها ليذقوا ثمنها، فكانت الأسعار لا تزال رخصة بهذا السبب.

ثم إن الخبر وصل إلى الملك محمد، بأن أخاه ماكشاها قد قصد همจำนวน ودخلها في عسكر كثير ونهبتها، وأخذ نساء الامراء الذين معه وأولادهم فاختل المعركة وتفقروا وعاد الملك محمد نحو هممان، وعسكر الموصلي مع زين الدين نحو الموصل، وعاد كل إمير إلى بلاده على عزم العود الى بغداد، وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر والمدفعين، وشععوا دار السلطان.

ذكر وفاة المقتفى لأمر الله وخلافة ابنه المستنجد بالله

في ثاني ربيع الأولى سنة خمس وخمسين وخمسين سنة، توفي أمير المؤمنين المقتفى لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستنجد بالله بحلة التراقي. وكان مولده ثاني عشر ربيع الآخر سنة تسعة وثمانين وأربعمئة، وأمه أم ولد تدعى ياغي، وكانت خلافته أربعة وعشرين سنة وستين.

ولما توفي جددت البيعة لولد أبي المظفر يوسف ولقب المستنجد بالله، وكان قد عهد إليه قبل وفاته، وبابه الأمراء، والقضاء، و
وفائقه، واعيان الناس. وكتب إلى الأفاق بأخذ البيعة له فلم
يمتاع أحد من ذلك، وأقر عون الدين بن هبيرة على وزارته.

في ذكره مسير سليمان شاه إلى همذان

في أوائل سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وردت رسائل الأمراء
الأكابر من بلاد الجبل إلى أتابك قطب الدين، يطلبون منه إنفاذ الملك
سليمان شاه بن محمد إليهم في لواءه السلطة، وتزداد الرسول في ذلك
حتى استقر الأمر بينهم أن يكون سليمان شاه سلطانًا، وقبط
الدين أتابكه، والرجوع إليه في جميع مملكته، وجمال الدين وزيره،
وزين الدين مقدم عسكروه. وتحالفوا على هذا وجه سليمان شاه،
وحمل إليه أتابك قطب الدين، مسر الإدارة والثوب والخيل والآلات
ما يصلح للسلاطين، وسار ومعه زين الدين في عسكر الموصل نحو
همذان. فلما قاربا بلاد الجبل، أقبلت العساكر إلى خدمة سليمان
شاه أرسلا. كل يوم يقافه طائفة وأمير، واجتمع معه عسكر
عظيم، فخافهم زين الدين على نفسه وعلى الموصل أيضاً، لأنه رأى
من تسلطهم على السلطان وطردهم للأيد ما وجد الخوف، فعاد
عنة إلى الموصل. فحين فارقه زين الدين لم ينتظم أمره ولم يتسم له
مادر.

حكي لي والدي قال: استدعاني جمال الدين الوزير بعد مسير
سليمان شاه، وقال: قد استقر الأمر كي وكي، فتعود إلى
الجزيرة وتشتغل علاقاتك وتشتيج أشغالك. فاتبعت نائبي بالعراق، قال: فسارتني ذلك من وجه وساعني من أخر، إلا
انني لم أرم من طاعته، قال: ثم استدعياني بعد ذلك، وقال لي:
عد إلى بلدك، فإن سليمان شاه لم ينظم حاله ففارقه وعندت.

وفي عهنة سنة خمس وخمسين، حج زين الدين نائب قطب الدین، وجعله أصحابه من الحج لاجل مساعدة الملك محمد في حصر

- ٢٥٠ -
لقد قررت إلى قوله وسائر، فلما وصل بغداد، أمر بالخِلع عليه، فلما نسب الخِلعة كانت طويلة وكان قصير جدا - فمدنه إلى كمرانة، وخرج من يد وصية الجبهة، فنظر المستنصر إليه، فاستحسن ذلك منه، وقال لن عنده: مثل هذا يكون الأمير والجُندي لامثالكم، فلما دخل عليه قبل يده، ثم خرج من يده به بعد أن حاده بالتركية - وكان المستنصر بالله يتكلم بها جيدا - فلما خرج نظر إليه المستنصر من شباك، وكان زين الدين قد أخرج شيئاً من السيف الذي انعم به عليه من الديوان، فلم يره جيدا وهو يومي برأسه - يعني إنه غير جيد - فارسل إليه سيفاً آخر، وقال الرسول: يقول لك أمير المؤمنين، ذلك السيف يترك، وهذا يقاتله به أعداء أمير المؤمنين، فرد وجهه وقبل الأرض وتقله، وأحسن إلى الناس في الطريق، وأكثر الصدقات.

في حصر دور الدين قلعة حارم

في سنة سبع وخمسين وخمسين مائة، جمع دور الدين المسارك بحبل، وسائر إلى قلعة حارم وحصوها وجذب في قتالها، فامتنعت عليهلحصانها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجاعتهم، فلما علم الفرنج خبرها، جمعوا فرسهم ورجالهم من سائر البلاد وحشدوا، وأعدوا واستعدوا، وساروا وتلطفوا الحال معه، فلما رأى أنه لا يمكنه أخذ الحصن ولا يجدهونه إلى المصافع عاد إلى بلاده.

ومعنه كان معه في هذه الغزوة، الأمير مُؤيد الدولة، اسمه بين مرشد بن منذر - وكان من الشجاعة في الغزوة التي لامـزيد عليها - فلما عاد إلى حلب، خلَّمسجد سيرين - وكان قد دخله
في العام الماضي سافرنا الى الحج - فلما نحله الآن، كتب على حائطه، يقول: شعر
لك الحمد يامولاي كم اك منة
علي وفضل لايحيط به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلة
من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحبت العين في عامي الذي
مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فانيت مفروضي واستقلت ثقل ما
تحملت من وزير الشبيبة عن ظهري

في ذكر انهزام نور الدين بحصن الاعراب وماجري له

في سنة ثمان وخمسين وخمسمئة، جمع الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد زنكي عساكره جميعها ودخل بلاد الفرنج، فنزل
بالبقيعة تحت حصن الاعراب - وهو للفرنجة عازما على دخول بلادهم
ومنزلة طرا بالس فيبنا الناس في بعض الأيام في خيامهم، وسط
النهر. لم يرهم إلا ظهور صلابان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه
الحصن. وكان سبي ذلك، انهم اجتمعوا واتفقوا رأيهم على كتبة
المسلمين في التهار لأنهم يكونون امنين، فركبوا نحوهم، فلم يشعر
يزك (88) المسلمين إلا وقد قاربواهم، فارادوا منهم فلم يطيقوا
ذلك، وارسلوا إلى نور الدين يعلمه الخبر، فهرجهم الفرنج
واخذوا بين ابنيهم، فوصلوا معا إلى العسكر الدوري، فلم
يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح إلا وقد خالطوه،
فكان أقصى رأيهم الانهزام، ووضع الفرنج فيهم السيف واكشروا
القتل والأسر، وكان أشد شيء على المسلمين الدوقس الروم، فإنه كان قد خرج إلى الساحل في جمع كثر من الروم فقاتوا محتسبين في زعمهم. قلما يبقوا على أحد. وقصدوا خيام الملك العبدل نور الدين فخرج من ظهر خيامه عجلًا بغير قيامة فرنسا هناك للذوبة، وسرعته ركب وفي رجله شبيحة. فنزل أنسان من الأكراد فقفعتها، فنجاه دور الدين وقتل الكردي. وكان أكثر القتلى في السوق والغامان، ولا نجا دور الدين سال عن مخافى ذلك الكردي فأحسن اليهم جزاءً لفعله.

وسار دور الدين إلى مدينة حمص وأقام بظاهرة، وأحضر منها مافيها من الخيام ونصبها على بحيرة قدس (89) على فرسخ من حمص، وبينها وبين مكان الواقعة أربع فراسخ. فكان الناس لايظرون إنه يقف دون حلب، فكان رحمة الله إشبع من ذلك وأقوى عزما.

ولما نزل على بحيرة قدس، اجتمع إليه كل من ينها من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرواية أن تقيم هننا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال، فوبخه وسكته وقال: إذا كان مني الفارس لا يالي بهم قلوا أم كشروا والله لا استظل بجبار حتى أخذ بثائر الإسلام وثاري.

ثم إنه أرسله إلى حلب ودمشق، وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وسائر ما يحتاجه اليه الجنين فاكتثر. فور ذلك جميعه على من سلم، وأمامه قتل أواصر فإنه أقرر إقاطته على أولاده، فإن لم يكن لى دفع بعض أهله. فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد. واما الفرنج فإث giácه كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة، لأنها أقرب البلاد اليهم. فما بلغهم مقام دور الدين عنها، قالوا:

إنه لم يفعل هنا إلا وعده من القوة أين يمنعنا.

وكان دور الدين قد أكثر الخرج إلى أن قسم في يوم واحد مشتئي.
 ألف بنيار حمر، سوى غيرهما من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك. وتقدم الى ديوانه ان يحضوروا الجند ويسالوا كل واحد منهم عن الذي اخذ منه وهما ذكر شيئًا اعتذرهم عوضه، فحضر بعض الجند وادعي شيئًا كثيرًا عدد النواب كتبه فيما ادعاه له رفاقهم بحالة. فارسلوا الى ذور الدين ينهاون فيه القصة، ويهتانوه في تحليفه على مادعاها، فعادوا عطاءهم بالدلى، فائر ارجو الثواب والاجر على قليله وكثيره، وقال له أصحابه: ان لك في البلاد أدرار كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء وللفقهاء والصوفية وللفقهاء، فلو استعن بتها الآن لكان امثال، فغضب من هذا وقال: والله لأرجو النصر إلا باولك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعافكم، كيف اقطع صلات قوم يقاتلون عنك واثنان في فرشي بسهامك، وأصرفها الى من لا يقاتلون عنك إلا أذا راني بسهام قد تخطؤ وتستيب، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه اليهم، كيف اعطيه غيرهم، فسكنوا.

تلك المكارم لا قعبان من لين
شيба بماء فعذابا بعد ابولا

هكنا هكنا والا فلا.
ثم ان الفرنج ارسلوا الى ذور الدين في المهدنة فلم يجيبهم إليها، فتركوا عند الحصن من يحميه، وعادوا إلى بلادهم ونفرقوا.

في ذكر القبض على جمال الدين الوزير
ابن علي الاصهاني

في هذه السنة أيضًا، قبض الفرنج قبض الدين علي وزيرة جمال الدين محمد بن علي الاصهاني. وكان قد خدم الشهيد فلان نصيبين فظهرت كفايته، فأضاف إليه الرحمة فأبان عن كفاية

- 254 -
وعظمة، وكان من خواصه وأكبر ندماته، فجعله مشرف مملكته كلها، وحكمه تحكياً لا يزيد عليه. فحكم لي وأيدي، قال: ارسلني
الفيض، الذي نذر الجزيرة إلى الوزير ضياء الدين الكفرتي وهو وزير
الشهيد والحاكم في بلده قبل أن تصل إلينا بخبرة جمال الدين وثوب
النفسي، يقول له: قد بلغني أن جمال الدين يقصصني ويريد أن
يعزلني، فأنى متعلق بك ونصب الله الدين، ومن أصحابك، فكيف
تري الحال. قال: فلما أبلغت الوزير هذه الرسالة، قال لي:
ما سمعت من جمال الدين شيئاً من هذا عند اتتك، ووضع هذا،
فالرجل يدخل قبلي ويخرج بعدم، فلم أعلم ما يكون منه. ولم يزل
ذلك إلى أن قتل الشهيد، وكان منه ما قد تقدم ذكره في حفظ
الدولة، ووزير لولده سيف الدين، ثم قطب الدين. وكان بينه وبين
زين الدين عهود ووثائق على المصالحة والانفتاح، وكان أصحاب
زين الدين يكرهونه ويقعون فيه عند زين الدين فهناكم، وكانت
الموصل في أيامه ملحاً لكل ملهوف. وماهم لكل خائف، فصعى به
الحاسد إلى أتتك حتى أوغو صدره عليه، وقالوا: إنه يأخذ
أمواك فيصرف بها، فلم يمكنه أن يثير عليه شيئاً بسبب انفتاحه
زين الدين، فوضع على زين الدين ممن غبره عن مصافاته
وعمائه، فقبض عليه وحبس بقلعة الموصل، ثم تم زين الدين
على الموافقة على قبضه، لأن خواص أتتك وأصحابه كانوا يخافون
جمال الدين، فلم أستطيع أن نستروا في الأمر، لأنهم على خلاف
زئين الدين، فكان زين يدم أصحابه على تحسين الموافقة على قبض
جمال الدين.

ذكر مسير شيركو وعساكر دوار الدين إلى ديار مصر

في سنة سبع وخمسين، وخمسمائة سارأسد الدين شيركو بن
شاني وهو من أكابر الأمراء الذين في خدمة الملك العُدل دوار
الدين محمود إلى الديار المصرية عازماً على ملكها واستضافتها
إلى المملكة النورية.
ونحن نبتدي قبّل مسيرة وماكان منه، يذكر ح حاله وتنقله
 vatnasal م servicio وماكان منه، يذكر ححاله وتنقله
  فقول: كان أسد الدين شيركو وأخوه
 نجم الدين ايوب وهو أكبر ابناء شاهي من بلد دروين، وهو
 بلدة من آخر بلاد اذربيجان مما يلي الروم (90) وأصلهما من
 الاتراك الروماني، وهذا القبيل هو أشتهى الأكراد، فقدما العراق
 وخدما ماجاد الدين بهروش شحنة العراق، فرأى من نجم الدين
 عقلا ورانيا وحسن سيرة فجعله دشار تكريت، وهو له، فسار
 إليها ومعه أخوه أسد الدين، فلما انهزم أتاك الشهيد رضي الله عنه
 بالعراق من قراقة الساق، على ما كرته قبل، وصل إلى تكريت،
 فخضمه نجم الدين وأقام له السفن، فعبق بحالة هناك وبعده
 أصحابه، فاحسن نجم الدين صحبتهم وسرهم ثم أن أسد الدين
 قتل أتاكا بتكريت للحاجة جرت بينهما، فارسل ماجاد الدين إليه
 وإليه نجم الدين فأخرجهما من تكريت، فقصده أتاك الشهيد،
 فاحسن اليهما وعرف لهما خدمتهما، وأقعئهما أقطعا حسبا،
 وصارا من جملة جنه، فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين
 يذ الدار فيه، فلما قتل الشهيد حصمه عسكر دمشق، فارسل إلى
 الملك سيف الدين غازي، وقدم بالملك بعد وأرد بيني الحال
 إلا وطلب العسكر ليرحل صاحب دمشق، وكان سيف الدين في
 ذلك الوقت في بداية ملكه، وهو مشغول باصلاح السلطان واصحاب
 الاطراف الذين يجاورونه، فلم يفز عل بعد بكر، وصادق الأمر على
 بها من الحصر، فلما رأى نجم الدين الحال، وخاف أن يكون قهر
 وذرة ونيله آثرا، أرسل في تسليم القلمية وطلبت أقطعا ذكره
 فاجب إلى ذلك، وحاول له صاحب دمشق عليه وتسليم القلمية، ووق
 له بما حاول عليه من الاقطاع والتقدم وصار عنده من أكابر الأمراء،
 واتصل أخوه أسد الدين شيركو بالخدمة النورية بعد قتله
 الشهيد، وكان يخدمه في أيام والده، فتقه نور الدين واقطعه،
 رأى منه في حروب ومشاريه اثارة يعجز عنها غيره لشجاعته
 وزواجاته، فزاده اقطاعا وقرية، حتى صار له حمص والرحبة
 وغيرهما، وجعله مقدم عسكره.

- 256 -
فَلَمَّا تعلقت الهمة الدورية بمكّة، أمر أسد الدين فرسأ لأخاه
نجم الدين أيوب - وهو بها - في ذلك، وطلب منه المساعدة على
فتحها، فجاء إلى ميادين منه، وطلب هزء والدائه الذين من دور
الدين كثيرا من الاقطع والأملاك بباب دمشق وغيرها، فبذل لما
مأطببه منه، وحلف لهما عليه، ووق للهما لما ملكهما، وصار عنده في
أعلى المنازل، لاسيما نجم الدين، فإن سائر الأشراف كانوا
ليقعون عند دوري الدين إلا أن يأمرهم أو يحدهم بذلك، إلا نجم
الدين، فإنه كان إذا نزل إليه فقد من غير أن يأمر بذلك.
فَلَمَّا كان هذا السنة وعزم دور الدين على ارسال المسافرين إلى
مصر، لم ير لهذا الأمر الكثير اقـوم ولا أمرافغ من أـسـد الدين
فسيه. وكان سبب ذلك أن شاـور السعـدي - وزير الماءـل لـبيب
الله العلوـي صاحب مـصر - عزل من الوزارة، فسار إلى الملك
العادل دوري الدين، فوصل إليه وهب د маـشيق، وتتجأ إليه
واستجاريه، فأحسن لقاءه وآكـر منه، وأنعم عليه انعـاما غفـر
به. وكان وصوله سنة ثمان وخمسين وخمسين سنة، وطلب منه
أرسل المسافرين إلى مصر ليعود إليها وينبئ بنها حسنة ذكرها
له، ويتصرف على أمره ونهبه واختاره، ونور الدين يقدم في ذلك
رجال ويوؤدر أخرى، تارة تحمل رعاية قدش شاور.
( يابه ) وطلب الزيادة في المال والتجوي على السفر، وثارة يتنعه
خطر الطريق وكون الفرسان فيه، إلا أن يوغلو في البحر في معرضوا
خطر آخر مع الخوف من الفرسان، ثم استخار الله تعالى وأمر أسد
الدين بالتجهيز للمسير معه، وكان هو أسد الدين في ذلك وعندما من
الشجاعة وقوة النفس مالايبيا بمخافة، فتجهز وصار مع شاور في
جمياع الدولة من سنة تسعي وخمسين، وأمره الأشراف بإعادة
شاور إلى منصبه، والانتقام ممن نازعه في الوزارة، فساروا
جميعا، وصار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الإسلام مماليك
الفرنجة بمساكره ليشغله عن التعرض لأسد الدين، فكان ظنـ نور
الدين صحيحا، فصار الفرنجة لحظن بلادهم من دور الدين. ووصل
الموضوع الشامبي: 14
- 257 -
كان نور الدين إلى مصر سالاو هو ومن معه، فهدب المنازع لشأور في الوزارة، وعاد شاور وريزا وتمكن من منصبه، وأقام نور الدين بظاهرة القاهرة، وغدر به شاور لما عاد إلى منصبه، وعاد عن مكان قره لئور الدين من البلاد المصرية، ولاسف الدين أيضا، ورسال إليه يأمره بالعود إلى الرشام. فاذفر نور الدين من هذه الحاد، وأعاد الجواب يطلب ماكان استقر، فلم يجيب شاور إليه.

فلما رآى ذلك أرسل نواه فتسلموا مدينة بابيس، وحكمن على البلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى الفرنجة يستهمه ويذكرهم من نور الدين إن ملك مصر، وكان الفرنجة قد أهلكوا بابليس، إن ملكها دور الدين فهم خانقون، فلما أرسل شاور الهم يست僵尸هم ويطلب ان يساعدوه على إخراج نور الدين من البلاد، جاءهم فرح لم يحتمسوا، وسارعوا إلى تلبية دعوتهم والبادية إلى مصر، وطمعوا في ملك بابيس مصر، وكان قد بلغ لهم ذلهم ومسيرتهم، فتجاوزوا وسروا، فلما بلغ نور الدين خبر تهجهزهم للمسير، سار بمساكرين إلى خرير بلاده مما يلي الفرنجة لم يتمتعوا عن المسير، فلم يستحنوا، وعلهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك نور الدين مصر، اشتد من الخطر في مسيرهم، فتركوا في بلدتهم من حفظها، وسار ماك القدس في البقان إلى مصر، وكان قد وصل إلى الساحل جميع كثير من الفرنجة في البحر لزيارة الباب التقديس، فما قارب الفرنجة مصر، فاقربه نور الدين وقدد مدينة بابيس، وأقام بها هو وعسكره وجعلهم ظهرا له يتحصن به، فاجتمع البابا الكر ك.connos и نزلوا نور الدين بمدينة بابيس وحرصوا بها ثلاثة أشهر، وقد امتعت بها نور الدين، وسورة من طين قصير جدا، وليس لها خندق ولافصول يحميها، وهو يغادروهم القتال ويرجا ورحمة، فلم يبلغوا من غرضا ولاانوا منه شيئا، وفيما هم كذلك، اثناء الخيبة بzeitigنة الفرنجة بحارهم وملك نور الدين الحصن ومسيرة إلى بانياس، فقيلت السقوط في أيديهم وبغين منا، فلات الفرنجة العود إلى بلادهم ليحفظوها، وعلهم يدركون بانياس قبل أن أخذوها، فلم يدركوها إلا وقد ملكها على مانذكرون إل شاء الله تعالى ورسولا
في ذكر فتح حصن حارم من الأفرنج

في هذه السنة في رمضان، فتح الملك العدل نور الدين قلعة حارم
وملكها من الأفرنج، والسبب في هذا الفتح، أن نور الدين لما عاد
مهما على مأكولاته قبل، أغلب على الجهل والاجتهاد، والاستعداد
للجهاد، والأخذ بشارة، وغزو العدو في عقر داره، وقرر فارك ذلك
الخزق، ويرتق ذلك الفتح، وحمو سمعه الوعمن، ويعد رونق الملك
فرأ سل أذى قطب الدين بالوصول، وفخر الدين قرأ رسالتان
بالحصن، ونجم الدين أبي بماردين وغيرهم من أصحاب الطرفا
يستنجدهم.

فأما قطب الدين أتابك، فانه جمع عساكره وسوار مجدًا وعلى
مقدمة عسكره زين الدين نابئه، وأما فخر الدين قرأ رسالتان فبلغني
عن أمه قال له ندماؤه وحواصمه: على أي شيء عزمت، فقال: على القدر، فإن ذور الدين قد تحشف مثل كثرة الصوم والصلاة، فهـو يلقي نفسه والناس معه في المهانة، فكلهم وافقه على ذلك، فلما كان القدر أمر بالتسامح في العسكر بالتجهز للغزاة، فقال له أولئك: ما عدا مما بدا، فأقرئنا بالآمس على حالي باب الآن ضدها؟

فقال: إن ذور الدين قد سلك معن طريعاً، إن لم أنجحه، خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد عن بدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكرون لهم مالقي المسلمون من الفرنجة، وما نالهم فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه اتباعه وأصحابه، وهم قرؤون كتب ذور الدين وبيكون، ويلدعون ويدعون علي، فلا بد من إجابة دعوته، ثم تجهز أيضا وسار إلى ذور الدين بنفسه.

وأما نجم الدين فإنه سير عسكرا، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حام، في كل تطل بسلاحة شاشكي، وشـة المراس غير شاشكي، كما يقول ( الشاعر):

في كل أروع يرتاع المدون له
إذا تجرد لا ككس ولا جهد
يكاد حين يلاقى القرن من حقق
قبل السنان إلى حوبائه ورد

كانوا حقا جيشاً الطوايس، (91) وكل منهم في بيض الحديد وألوان الشاهير يختال ويميس، وأشرقت عليهم الشمس فرقت لها الأحادق، وتلالات الأفق، ونزل عليها وحصراها، واطار إليها من القم والمجانين سهامها وحجرها.

وبلغ الخبر إلى الفرنج من بقي منهم بالساحل لم يسر إلى مصر.
فاجئوا في جدهم وحذيديهم، ونبعهم وعبيديهم، وقضيهم وقضيؤهم، وكملتهم وفرضائهم، وأساءتهم ورهبانهم، وقد حشدوا حتى أرباب المصاوم المع، ولم يشعروا إنهم رمز النذاب والخواص، وأقوا إلى رجال وعكر كل ضامر، في كل قرن مسار، وفبل مهاصر، وقد ألف النزال، واعتاد اقتشاء الأبطال، فهم أكثرهم من كل حدب ينسلون، فزاع اكثرةهم المسلمين، وكان مقدم الفرنج البرنس صاحب الفتناكية، والقصص صاحب طرياس وأعمالها، وابن جوستين - وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدوك - وهو رئيس الروم وقدمها - وجمعهم معهم من الراجل، وليقع عليهم الإحشاء، قد سموا على الأرض، وحجبوا بقضائهم السماء، فحرص رئس العين اصحابه، وأطم عنهم أحزابه، وفرق نفاذين الأموال، على شجعان الرجال، فنابه الفرنج رجل عن حارم إلى ارتحال، وهو إلى إقامتهم قد ارتحل، فإنما يحل طمعاً أن يتبوعه، ويتعمق منهم ببعدهم عن بلادهم إذ أقوه، فصاروا حتى ينزوا على عم (92)، وهو على الحقيقة صحائف مقاله من الغم، ثم تيقق أنهم لاطاقة لهم بقتاله، ولا قدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم، وقث حقتهم كل كبر، وحالت بهم كل وطن وضير، فلم عادوا عن عم تبعهم رئس العين، في عسكر المسلمين، وابطال الموحدين على تعبئة الحرب، فلم تقايروا انطواء القتال، وتهياوا النزال، وتبادت الخطأ، ورافقت الغطا، وبدت الفرنج بالحملة على ميهم المسلمين، وبها عسكر كل وفرخيب، فبعداوا نظامهم، ورداوا أقطامهم، وأوصوا الأدب، وركوا إلى الغرار، وكانت تلك الأفكار من الميمنة عن اتفاق وري ديروه، وعسكر بالعبدو مكروه، وهو أن يمكنهم عن راجهم، في سبيل عليهم من يبقى من المسلمين، وضعا فيهم السيو، وبرغموا منهم الأقوف، فإذا عاد فرسانهم من آخر المنهمين، لم يلقوا راحا يلتهمه، ولا يخزى بعيدون عليه، ويعود المنهمون في الأثام، يكسرون أدابهم، وتأخذهم سيف الله من بين أيديهم ومن خلفهم، فجعل لهم بواورهم وحلفهم، وكان الأمير على مأدبر، واللحال على ماقدر، فإن الفرنج لما تبعوا المنهمين، عطف زين الدين في عسكر الوصول على
راغبهم فأفناهم قتلا واذراع، وعادت خياليتهم ولم يمنعوا في الطلب خوفا على راجبهم من العقب، فتضايقوا راجبهم على الصعيد مدعين، وفدهم متحدون، فسقى العدو في الأوسط وقد أفرد بهم المسلمين من كل جانب، وحمي الوطيس، وباشرت الحرب الديس والتويض، وقاتل الفرجنت قتال شديد يرى باقناه النجاة، وحاربوا حرب من حرب من الحياة، واشتد الزحام، وعظم الزمام، وسط العمل، ومصاحف الحمام، وانقضت الفساكك الإسلامي عليهم انقضاض الصقر على عدود الطيور، فلم يبقوا ملء، وجعلهم طراقا قديما، والقى الفرجنت بأبيهم إلى الأسار، وعجزوا عن الهزيمة والفرار، فأكثر المسلمون فيهم القتل، وأوردهم مناهج النذائه والهلك، فزادت عدنه القتلى على عشرة آلاف، وأما الأسرين فلم يحصوا كثرة، و بكفيه دليلا على كثرتهم، أن ملوكهم اسروا، مثل: البيرلس بييمن صالح انشاطية، والقمح صاحب طرابلس، والدوك مقدم الروم، وابن جوسين، وسار ذو النين بعد المكرة إلى حام وعاقبها في الحادي والعشرين من رمضان.

وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى انطلاقة ليمكنها لخلاوهامه بينهم، ويدفع عنها، فلم يفعل، وقال: أما المدينة فامرأها سهل، وأما القطعة التي لها فهي منيعة لانظمه إلا بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلنا إلى صاحب القسطنطينية وسالمه اليه، ومجأرة بييمن احرب إلى من جوار ملك الروم. ويث سريانه في تلك الأعمال والولايات فنهروا وسبوا، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا لانقية، وسبا (٩٣) وغير ذلك وعادوا سالمين.

ثم إن دور الدين اطلق بييمن صاحب انطلاقة بمال جزيل أمره من المسلمين أطلقتهم.  

- ٢٦٢ -
في ذكر خبر الموتية التي جرت في حرب قلعة حارم

قال صاحب التأريخ: وَهـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَ~

الشهيد - رحمه الله - لما كسر مسيرة عسكره، نزل عن فرسه وكشف رأسه وسجد لله عز وجل فسمع يقول: يا الله وسيدي ومولاي، من محمود عبد ابن زنيكي بن اقتصاف حتى تخلنله. إن تنصره تنصر بنوكم الذي اظهرته ليديك الذي ارسلته، استجب دعائي، وأحسن منقلبي ومثواي وافتحت بي أعدائي، ولم يزل متضرعا باكياً، ويسأل وجهه على الامراء ودموه تجري على خدياه، إلى أن بلغه الله مراذه من خذلانهم ونصره عليهم.

ومن عجائب الالتفاق، ماهكه كمال الدين ابن العبد في كتاب "الخبارات"، إن الزكي أحمد بن مسعود الموصلي المقرئ، أخبرني، قال: كنت معلم الدين سليمان بن جندر، قال: فاتفق أن خرجت معه إلى حرب حارم في سنة تسع وخمسين وخمسين، وجاءسته معه تحت شجرة هناك، ومجاهد الدين أبو بكر بن الدانية - داية الشهيد - رحمه الله - وصلاح الدين يوسف بن أيوب يختش هذه الشجرة تحدث، ودور الدين الشهيد بحاسرة حارم، هي في أيدي الفرنجي، فقال مجد الدين: امتنى أن يفتح نور الدين حارم ويعطيني إياها نعمة. فقال صاحب الدين يوسف: امتنى على الله تبارك وتعالى أن يفتح نور الدين الشهيد مصر ويعطيني إياها. ثم قال: تسن أنت أيضا بما تربية، قال: يا مولاي، إذا كنت صاحب مصر ومجاهد الدين صاحب حارم، ما يمضي بينكم، فقالا: لا بد أن تنتمى شيئا، فقلت: إذا كان وله من ذلك، فأنتم "عم" (وأيضا) نحن في الكلام - والله تعالى قاضى بما أراد في حكمه - فقد الله عز وجل، أن نور الدين كسر الأفرين وفتح حارم، وأعطاه مجد الدين بن الدانية، وأعطاني قلعة "عم". وقد الله، أن أرسل نور الدين الشهيد رحمه الله تعالى، أسر الدين شيركو إلى مصر وفتح مصر على يده، ثم الآمر إلى أن ملكها صلاح الدين يوسف بن أيوب، على مانذكر إن شاء الله تعالى.
وفاة جمال الدين الوزير

في شعبان من سنة تسع وخمسين وخمسمائة، توفي الوزير جمال الدين محبوساً. وكان له نحو سنة من مرض مفتي لسبيله.

وكان عظيم القدر والخطر، كرم الورد والصدر، عديمة النظر في سعة نفسه. لم يرو في كتب الأولين، أن أحداً من الوزراء تسمع نفسه مروءته، كما أتسعت له نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوة، كامل المروة، وسيرة من أخباره ماتعلمنا منها صحة قولي.

عهداً، من مات منا قبل صاحبنا حمله الحي إلى المدينة على ساكنها السلام، فدفنه بها في التربة التي عملها، فإذا نامت فاضمه إليه وذكره فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى اسد الدين في المنى، فاعطاه مالا صالحا ليحمله به إلى مكة والمدينة، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية، ومن بقرا بين بني تابوته عند النزول والرحيل.

وقدوم مدينة تكون في الطريق، ونادون في البلاد للصلاة عليها، ففعلوا ذلك، فكان يصلي عليها في كل منينة خلق كثير، فلم كأن بالحلة، اجتمع الناس للصلاة عليها، وإذا شاب قد ارتفع على موضوع عالٍ، ونادي بأعلى صوته معلقا يقول:

"سري نعشه فوق الرقبات وطالباً
سري جوده فوق الركاب ونابيه
يمر على الوادي فثثي رماله
عليه وبالتالي فتبيي ارماله"

فلم يراكما أكثر من ذلك اليوم، ثم وصلوا به إلى مكة، وطافوا به حول الكعبة، وصلوا عليه بالحرم وحملوه إلى المدينة وصلوا عليه أيضا، وفقدوه بالرباط الذي انشاه بها، وبينه وبين قبر النبي، نحو خمسة عشر نزاها.

في ذكره شيء من أخباره رحمة الله

كان رحمة الله إسخى الناس وأكثرهم عطاء ونبل للمال، رحباً بالناس متعطفا عليهم، عادلاً فيهم، فمن أعماله الحسنة، أنه جدد بناء مسجد الخف بمنى، وغرم عليه أصولاً جزيلة عظيمة وبني الحجر بجانب الكعبة، ورايت اسمه عليه، ثم غير وني غيره سنة ست وسبعين وخمسين.

وخرف الكعبة بالنجب والقرقة، فكل ما فيها من ذلك، فهو عمله

-265-
- ١٩٠١ -

إلى سنة تسعم وستمائة. ومما أراد ذلك، أرسل إلى الإمام المقتفي
لأمر الله هندية جليلة حتى انذ له فيه، وأرسل إلى أمير مكة، عيسى
ابن أبي هاشم، خالها سنية وهندية كثيرة حتى مكته.

وعمر أيضاً المسجد الذي على جبل عرفات، وعمل الدراج التي
يصعد فيها إليه، وكان الناس يلقون شدة في صعوبتهم.

ومعهم صناعات للماء، واجهري الماء إليها من نعمان
(٩٥) في طريقهم تحت الجبل مبناة بالكس، فغمر على ذلك
مطالاً كثيراً، وكان يعطي أهل نعمان كل سنة مالاً ليتركوا الماء يجري
إلى المصانع أيام مقام الحاج بعرفات، فكان الناس يجدون به راحة
عظمية.

وبه من أعظم الأعمال التي عملها ذفعاً، أنه بني سوراً على مدينة
النبي صلى الله عليه وسلم، فإنها كانت بغير سوء تشهدها
العرب، وكان أهلها في ضنك وشر معهم، رايت بالمدينة أنسانًا
يضحى الجماعة، فلما فرغ ترحهم على جمال الدين ودعاه له، فسألته
عن سبب ذلك، فقال: يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له، لأننا
كنا في ضر وضيق، وننذر عيش مع العرب، لا نتركون لاحذننا
مايوازي عورته، ولا يشيبي جوعه، فبني علينا سوراً أحكمها به
الله من بصره، فاستعينا كيف لاندع له وكان الخطيب بالمدينة
يقول في خطبه: الله صن حرير من صناء حامد، نبيك بالسور،
محمد بن علي بن أبي منصور. فان لم يكن له إلا هذه المكرمة لكافة
فخراً، كيفي وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها.

وسمعت عن ملوك ديون صدقاته التي يخرجها على باب داره
بالفقر، وسوى الادعاءات والتفهيدات، قال: كان له كل يوم صالة
ديناار يتصدروها عليه باب داره.

ومن أبحثه المجيب التي لم ير الناس مثلها، الجسر الذي بناء
على الدجلة عند جزيرة ابن عصر بالحجر المنحدرد والحديد والرصاص والكاس، إلا أنه لم يفرغ لأنه بيقض قبل فرغاه. وبنى أيضا جسرا على نهر الازرار عند الجزيرة أيضا.

وبني الربط بالمصول، وسنجر، ون시험، وغيرها. وقصده الناس من أقطار الأرض ويكفيه أنه الذي احتاج إليه ابن الاتجدي رئيس أصحاب الشافعي بابصفهان، وابن الكافي قاضي همدان، وقصده، فأخرج عليهما مالا جزيلاء، وكذلك غيرهما من الصدور، والعلماء، وبشاخ الصوفية.

وصارت الموصل في أيامه مقصدًا وملجاً. وكان أحب الأشياء إليه إخراج المال في الصدقات، فكان يضيء على نفسه وبيته ليتصدق. حكي لي وادي قال: كنت يوما عنه وقدم أحضرين بين يديه قدرًا ليعمل على وبر له لقببه بخمسة نانان، فقال: هذا كثير، أشترموا لي قنرزة بينين وتصدروا بثلاثة نانان. قال: فراجعناه غير مرة فلم يقبل. (وحكى لي من أشق إليه من العدول بالمصول: إن الأقوات تتعرز في بعض السنين بها ولغة الأسور، وكان بالمصول رجل من الصالحين، يقال له الشيخ عمر البلاء، فأخبره جمال الدين وسمه إليه مالًا، وقال له: تخرج هذا المال على مستحقه، وكلما فرغ أرسل إلي لأنفذه غيره فلم تعد إلا أيام بسيرة، حتى فرغ ذلك المال لكثرة الحجاجين، فأرسل إليه يعرفه بنقد ذلك المال.

ففتقى، ثم أرسل يطلب ما يخرجه، فقال جمال الدين الرسول: والله ما عندي شيء، ولكن خذ هذه الحافر (التي في داري) وتصدروا ببنهمها (إلى أن يأتيني ما آخر فبرستر إليه الشيخ عمر، فبعثت وتصدروا ببنهمها (٨٦) ووعرنو ذلك، فكم عنده ما يرسله. فأعطاه ثيابه التي كان يلبسها مع الإمامة التي على رأسه وأرسل اليوم. وقال للرسول: قال للشيخ، لا ينبغي من الطلب هذه أيام وفاسه، فاما وصلت إليه، يطلب إلى الشيخ عمر، بكي وباعها وتصدروا ببنهمها.

- ٢٦٧ -
وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي
شيخ الشيخ بالوصل، قال: أحضرني الشيخ وقال لي: إنطلق
إلى مسجد الوزير - وهو بظاهر الوصل - واقعد هناك. وإذا اتاك
شيء فاحفظه إلى أن أحضر عدنك، ففعلت، وإذا قد أقبل جمع كثير
من الحمالين يحملون أحمالًا من النسيفيات والخام، وإذا جاء نائب
جمال الدين مع الشيخ، ومعهما قماش كبير وثمانية عشر ألف دينار
وعدد كثير من الحمال، فقال لي: تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى
الرحبة، فتصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متواليها فلان، فإذا
احضر لك فلان العربي توصل إليه (عليه) هذه الرزمة الأخرى، ولهذا
الكتاب وتسرع معه، فإذا أوصلك إلى فلان العربي توصل إليه هذه
الرزمة، وسكتا إلى المدينة على ساكنها السلام،
tوصل إلى وكيل فلان هذه الأحمال وهذه الأكسوات والمال الذي
عليها اسم المدينة ليخرجها بمقضي ما في هذه الجريدة، ثم تأخذ
الباقي الذي عليه اسم مكة وتسير إليها فيتصدق به وكيله به ما
في هذه الجريدة الأخرى.

قال: فسراً كذلك إلى وادي القرى، فرأينا به نحو مائة جمل
تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعوا خوف الطربق، فلما رأوا
سراً معنا إليها، فوصلناها وحتمتنا بها كل صاعين بدينار
مصري - والصاع خمسة عشر رطلا بالبعالمي - فلما رأوا الطعام
والمال، اشترى كل سبعة أضعاف دينار، فقضى أهل المدينة بالدعاء
له، ثم سراً إلى مكة ففعلنا ما أمرنا.

وحكى لي والدي، قال: رأيت جمال الدين بالرقة، وقدم حضر
عندنا رجل فقه قبيل أن يصير وزيرا وطلب شيكا، وتردد إليه عدة
أيام ثم اقتطع، فسأل عنه، فقيل إنه سافر، فشغف ذلك عليه، ثم
قال: هكذا تنصرف الأحجار عن أبواب الكلاب، وكرر ذلك غير
مرة، ثم سأله فقيل: إنه سار نحو ماردين، فأرسل إليه خلعية
وسفقة إلى ماردين، وله مرت شرح مفاهيم أعماله لأطلاع واجرته.
وهي ظاهرة لاحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها.
ذكر فتح قلعة بانياس

في سنة ستين وخمسين فتح دور الدين قلعة بانياس في الفرنج، وكان قد سار إليها بعده من فتح حارم، فألزم العسكر الموصل وبيار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبرية، فجعل من بقية من الفرنج همهم حفظها وتقويتها، فسار نور الدين مجدًا إلى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة الممانعين عنها، ونازلها وضيق عليها وقاتلها، وكان في جملة عسكره أخوه نصر الدين أمير أميران (141 - ب) فاصبه بهم انهب إحدى عينيه، فلم رأه نور الدين قال له: لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمينت نهاب الأخرى، وجد في حصارها، وسمع الفرنج بذلك، فجمعوا، فلم تتكاملا عدتهم حتى فتحها، على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم، فماك القلعة وملاها نخائر وعدة وراجا.

وعاد دور الدين إلى دمشق، وفي بيده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر، فسقط من يده في شعراء بانياس - وهي كثيرة الأشجار مليئة الأغصان - فلمما ابعد من المكان الذي ضاع فيه الفص علم به، فعاد بعض أصحابه في طلبهم، ولهؤهم على مكانه، وقال: أظن أنه هناك ضاع، فعادوا إليه فوجدوه، فقال بعض الشعراء الشاميين: أظن ابن منير من أبيات يمدحه ويهده بهذه الغزاة وعود الجبل الياقوت. شعر:

إن يمتر الشكاك فيك بانك اليمـ
هلدي مطفي جمرة النجال
فلعودرة الجبل(97) الذي أضالته
بالامس بين غياث وجبال
مسترجعا لك بالسعادة أية
رمت مطال الفال غير مطال

- 269 -
ولا فتح الحصن، كان ولد معين الدين أنر - الذي سلم بانياس إلى الفرنج - قائما على رأسه، فانتقل إليه وقال له: الناس بهذَا الفتح فرحة واحدة ولفرجتان فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن اليوم برد الله جلالة والدك من نار جهنم.

ذكر فتح المنيطرة على يد الشهيد رحمه الله

في سنة إحدى وستين وخمسمائة، سار نور الدين إلى حصن المنيطرة (99) وهو أيضاً للفرنج - ولم يحشد له ولا جمع عساكره، إنما سار على غرة من الفرنج، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا، فانتهت الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصراً، وجد في قتالها واخذهم duo وقهره، وقتل من بها وسبى وغمز غنائم كثيرة لامن من بها فأخذتهم خيل الله ( بغتة وهم لايشرون) (100) ولم يقدر الفرنج على أن يجعلوا لدفهم إلا وقد ملكه، ولو علموا أنه جريدة لأسرعوا إليه، إنما لم يظّنو إلا أنه في جمع كثير، فلما ملكه تفرقوا وأيضاً منه.

ذكر عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر مرة أخرى

في ربيع الآخر من سنة اثنين وستين وخمسمائة، عاد أسد الدين وسار إلى مصر. وكان بعد عودة من مصر، لايزال يحدث نفسه...
بقصدها ومعاودتها، حريصاً على النخول إليها، يتحدث به مع كل من يثق إليه. وكان مما يظهره على العود، زيادة حقه على شاور وما عمل معه. فلما كان هذا السنة تجهز وسار إليها، وسرى معه الملك العادل نور الدين محمود جماعة من الأعرام، فجاء في السير على البر، وترك البلاد الفرنج عن بينه، فوصل إلى البحار المصرية، فقصد إطفاح وعبرا لنيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة مقابل مصر، وتصرف في البلاد المصرية، وأقام بها نيفاً وخمسين يوماً.

وكان شاور لما بلغه مجيء أسدا الدين، قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتيوه على الصعب والفاضل، فقائرة يحتمم طمعهم في ملك مصر على الجد والتشمر، وتبنت بحدهم خوفهم أن يملكها العسكر النوري، فتشاجر على الآسراع في المسير، فألحقوا بقوتهم والذوف يعورهم، فلموا وصلى إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسدا الدين والعسكر النوري قد ساروا إلى الصعيد، قبلوا مكانا يعرف بالبابين، وساروا العسكر المصري والفرنج وراءه، فادركوه في الخامس والعشرين من جميلة الأولى، وكان قد أرسل إليهم جوايس، فعادوا وأخبروه بكثرة عدهم وعددهم وجدتهم في طليبه، فعزم على إلقائهم وقتالهم وأن يحكم السور في بينهم، إلا أنه خاف من أصحابه أن يمتحن دعوهم عن الأثاث في هذا المقام الخطر، الذي عطموه فيه أقرب من السلمانية، لقلة عدهم وسابقهم عن بلادهم، فأشار لهم إلى央企، جابوه عليه، بعسوور الين إلى الجانب الشرقي والعبود إلى الشام، وقاموا له: إن نحن انهزمانا وهو الذي لا يشك فيه، فلأي اين نلتقين وبين نحن، وكل من هذه البحر من جندي وعمي وفلاح عدو لنا، ويدون أو شروبا دمانا، ونحب لعسكر عدتهم ألفا فارص - قد بدت ديارهم ناوي ناصرهم - أن ترتعب من عشرات الوف، مع أن كل البلاد غدو لهم. فلما قالوا ذلك، قام إنسان من الملكية النورية يقال له شرف الدين يرغش - وكان من الشجاعة بالذكاء المشهور - وقال: من يخاف القتل والجراح فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو في بيته.
مع النساء، والله أن عتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلا عذر
تعذر فين يأخذن إقطاعكم، وليعون عليكم بجميع ما أخذتموه
منه مختمرونه إلى بيوتنا هذا، وقول لكم: أتاحذون أموال
المسلمين وتفرقوهم من عدوهم، وتساممون مثل الديار المصرية.
تتصرف فيها الأكفار، فقال اسدا الدين: هذا رأيت به أعمل،
ووافقهم صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثيرا الموافقون لهم على
القتل. فاجتمعوا الكلمة على اللقاء، فأقاما بمكانه حتى أدركه
المصريون والفرنج وهو على تعبئة، وقد جعل الأتالاق في القلب يكثر
بها، ولأنه لم يمكن أن يتركها ماكان آخر فتقنها أهل البلاد. ثم
إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولن معه: إن
الفرنج والمصريين يظلون أني في القلب، فهم يجعون جمرتهم
بإزالته وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليه، فلا تصدقوهم القتال
ولا يهاكم ذيفانهم، واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم
فارجعوا في أعقابهم. واختار من شجعان أصحابه جمعة يثقو إليهم
وبعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة، فلما تقابل
الطائفتان، فعلى الفرنج ماذاكره أسد الدين وحملوا على القلب ضنا
منهم أنه فيه، فقاتلة من به قتالا، يسيراً وانهزموا بين أيديهم،
فتباهوا، فحول حينئذ أسد الدين فهنهم عليه من تذاف من
الدين حملوا على القلب - من المسلمين والفرنج - فرهمهم ووضع
السيف فيهم، فأنثر الخراج. واكثر القتل والاسر وأنهمز الباوقون.
فلماء عاد الفرنج من أثر المنهر ممذ الذين كانوا في القلب، رأوا مكان
المعركة من أصحابهم لابعاً ليس بها منهم بيار، فانهمزوا أيضاً
وكان هذا من أعجب ما يؤذ، أن الفارس فارس نظر عساكر مصر
وفرنجر الساحل.

ذكره ملك أسد الدين ثغر الاسكندرية

لما انهمز المصريون والفرنج من أسد الدين بالباحثين سار إلى ثغر
الاسكندرية، وجيء ما في طريقه من القراء والسواد من الأسواط.
ووصل إلى الأسكندرية فتسلمها بغير قتال، سامها أهلها إليه. فاستناد بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد، فماكه وجهب أمواله، وأقام به حتى صار شهر رمضان.

وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم، وأقاموا عوض من قتله منهم، واستكثروا وحشدوا وساروا إلى الأسكندرية - وبها صلاح الدين - في عسكر يهتنون منهم. فقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرحج. فاشتد الحصار، ولقد الطعام بالبلد، فقصر أهلها على ذلك.

ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم - وكان شاور قد أفاسى بعض من معه من التركمان - ووصلت رسالته مثل المصريين والفرنج يطلبون الصلح، وبروا له خمسين ألف بيدار سوء ما أخذها من البلاد، فأجابهم إلى ذلك. وشرط أن الفرحج لا يقيمون بمصر ولا يسلمون منها قرية واحدة، وأن الأسكندرية تعود إلى المصريين، فأجابوا إلى ذلك وأصطلحوا، وعاد إلى النام، ووصل دمشق ثماني عشر دي القعدة، وتسلم المصريون الأسكندرية في النصف من شوال.

وأما الفرحج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين، أن يكون لهما بالقاهرة سجن، وتكون ابواها بيد فرسانهم، ليتمتع الملك العادل نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم، ويكون للفرنج من نخيل مصر كل سنة مائة ألف بيدار. هذا جميعه يجري بين الفرحج وشاهر، وأما العاضد صاحب مصر فليس له من الأمر شيء، ولا يعلم بشيء من ذلك، قد حكم شاهر عليه وجببه. وعاد الفرحج إلى بلادهم، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة.

ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل الملك العادل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي - وهو من أكابر أمرائه، وخلال
صلاح الدين يوسف - ينهي محييثه وولاه، ويستالة أيامه بإصلاح الحال، وجمع الكالمة بمصر على طاعة وجمع كلمة الإسلام، وبدل مالا يحمله كل سنة، فأجابه إلى ذلك، وحملوا إلى ذور الدين مالا جزيلًا، وفي الأمير على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها، فكان ما ذكره إن شاء الله تعالى.

عصيان غازي

في هذه السنة عصى الأمير غازي بن حسن المنجي (صاحب منيب) بها على نور الدين - وكان هو وقعته إياها - فارسل إليه نور الدين عسكرا حصارها بها واحدها منه، وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسن، وكان عاقلا خيرا حسن السيرة، فبقي بها إلى أن اخذها صلاح الدين منه سنة اثنتين وسبعين وخمسناثاً.

ذكر مفارقة زين الدين الموصل ووفاته وولاية

فخر الدين عبد الميسى قلعة الموصل

في سنة ثلاث وستين وخمسناثا، سار زين الدين علي بن بكتتين، نائب أتباك قطب الدين عن الموصل، إلى إربيل، وسلم جميع ما كان بيد من البلاد، والقلاع إلى أتباك قطب الدين، فمن ذلك سنحار، وحران، وقلاع عقر الحموية، وقلاع الهكارية جميعها، وكان نائب بتكريت الأمير تبر، فأرسل إليه ليسلمها، فقال: إن الموالي أتباك لا يقبل بنكريته، ولا يد له من نائب فيها، وانا أكون ذلك الناسب فليس له مثلي، فما امكن محاقيقته لاجل مجاورة بغداد، وما شهودزور، فكان بها الأمير بوزان، فقال مثله أيضا، فأفرع بيد، وكان في طاعة أتباك قطب الدين.

وسبب فراق زين الدين، أنه أصابه عمي وصمم، وأقام بإربيل

- 274 -
إلى أن توفي بها من سنته وكان قد استولى عليه الهرم، وضَعَفَ قوته، وكان خيراً عداً، حسن السيرة، جواداً محاورًا على حسن العهد وآباء الأمانة، قليل القدر بل عليه، وكان إذا ودع بشيء لم يقع له من أن يفعله وإن كان فعله خطيئاً، وكان حاراً من أعمى الأحوال، بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته، حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغفلة البناء. بلغني أنه آتاه بعض أصحابه بنعب فرس ذكر أنه ذلق له فأمر له بفرس، فأخذ ذلك البند أيضاً غيره من الإجادة، وأحضره وذكر أن ذلق له دابة فأمر له بفرس، فقادوا ذلك البند إناثاً في غير فرساً، فاما أحضره آخراً، قال له: أما تستطيعون مني كما استحي منكم، قد أحضروا هذا البند عني إناثاً رجلاً واناً أتفغال كلاً يخلو أحدكم، اجتنبون أنني لآعرف، بل وأله، إنما أردت أن يصلكم عطائي بغير من ولا تذكر، فلم تذكرون، وأمر له بفرس آخر، كما قال بعضهم في شائه:

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المغالي

وكان يعطي كثيراً ويخضع عظيماً، وكان له البلاذ القدرة في خلق شياً، بل إنفجع جميعه في العداء والانهام على الناس، فكان يلسب الغليظ، ويدعو على وسطه كل ما يحتاج الجندي إليه ومن سكين وفرشة، ومطرقة، ومسلة، وخيوط، ودستريك (101) وغير ذلك. وكان من شجاع الناس، مهينون النقيبة لم تهزم له راية، وكان يقوم المقام الخطر فيسلم منه بحسن نيته. وكان تركياً أمسمر اللون، خفيف العارضين، قصيرة جداً. وبنى مداور وربطها بالدوصل وغيرها، بلغني أنه صدح الحدي بالدف، فلم أراد الانتشاد قال له: أنا لا نادي ما تقول، لكنني أعلم أنك تريد شيئاً وامر له بخمسامة بنبار وأعطاه فرساً وخلا بها، وتبناها، يكون مجموع ذلك نحو الافق بنبار. ومكاره كما كثيرة نقصت علي بعضها.
ولما توقي كان الحاكم باربل خادمه مجاهاذ الدين قايمز والمتوالي
لأمره، وولي يعد زين الدين، وله الملك المعظم ماظفر الدين
كوكبوري مدة، ثم فارقها، لخاف كان بينه وبين مجاجيد الدين،
وجرت أمور يبطول ذكرها.

ولما فارق زين الدين الموصل، استناد أتابك قطب الدين بالقلعة
بدعاء ملوكه فخر الدين عبد المطيع، فسلك غير طريق زين الدين،
فكره الناس ونحوه، فلم تظل أيامه، وسيجيء ذكر عزله ستة
وستين وخمسمائة إن شاء الله تعالى.

ملك دوز الدين
قلعة جعبر من صاحبها وكيف

في أول سنة أربع وستين وخمسمائة، ملك دوز الدين قلعة جعبر
واخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي،
فكان تحت ويد أبيه قبل من أيام السلطان ملكشاه، وقد تقدم ذكر
ذلك. وهو من أنمنع الحصن، وأحسنها، وطلب على الفترات,
لا يطيع فيها بحصار.

وأما سبب ملكها، فإن صاحبها نزل منها يتصدح، فأخذه بدو
كلاب أسيرا، وحملوه إلى دوز الدين في رجب سنة ثلاث وستين
وخمسمائة، فاعتقله جلب واحسن إليه، ورغب في الاقطاع، وغلب
ليسلم إليه القلعة، فلفعل، فسعد إلى الشدة والعذاب، وتهدده فلم
يفعل أيضا، فسير إليها دوز الدين عسكرا مقدوة الأمير فخر الدين
مسعود بن أبي علي بن الزعفراني فحصوه وها مدة، ولم يظفروا منها
بشيء، فامتهن بعسكر جرار، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين
ابا بكر المعروف، باين الدانية، وهو رضيع دوز الدين، وهو واحد
ذكر مسرى أسد الدين شيركوه إلى مصر ثالثة 
وملكها وقتل شاور وتملك أسد الدين سلطنة مصر

في ربيع الأول من سنة أربع وستين أيضا، سار أسد الدين شيركوه في المسار النروي إلى بيار مصر وملكها واستولى عليها. وسببت ذلك ما ذكرناه من استيلاء الفرنج على البلاد بسيط، وأنهم جعلوا لهم شحنة بسر المقاورة، وأبرمهم قادًا شغقلهم في خدمتهم وانتجاجهم معهم، وتحكوا بهما كثراً، وحكموا على المسلمين حكماً جائراً، فإن مسلمين منهم اذ شديدًا، وحورًا، عظيمًا، وقهرًا زائداً، وطمروا فيهم، وأرسلوا حينئذ إلى ملكهم، وهو مري، ولم يكن ملك الفرنج مذخرجاً إلي الشام مثله شجاعة ومكروه ونهاء يستوعبه ليملك البلد. وأمهم خالها، وساجعها ومعها ويهدهم، فأنت في السير إلى المسار، فلما وقعوا الفرات، اتقاموا وأشاروا عليه بالمسار إليه، ولا سلالة عليها، فقال لهم: الرأي عندي أننا لانقضيها فإنها طمعنا لنا، وأمولاً لنا نتفرحو بها على دير الدين، وإن نحن قدناها لنماكنا، فإن صاحبها وعساكرها وعامة أهل بلادها.
وفلاحيها لا يسلمونها علينا وقيقاهونا دونها، ويحملنهم الخوف من
على تسليمها إلى نور الدين، وإن أخذنا وصار له فيها مثل أسد
الدين، فهو هلاك الفرنجة وإجلاهم من أرض الشام، فلم يقفوا إلى
 قوله، وقالوا: إن مصر لا لنعت لها ولا حافظ، وإلى أن يصل الخبر
 إلى نور الدين، يجهز العسكري ويسيرهم إليها، فتكون نحن قد
 ملكناها وففرغنا ممّا اعتناني.

نور الدين من الناقة فل يقدر عليها، وكانوا قد عرفوا البلاد،
 وانكشف لهم أمرها، فاجلبهم إلى ذلك على كره شديد، وتجهزوا
 وأظهروا أنهم على قصد الشام وخاصة مدينة حمص، فلما سمع
 نور الدين (بذلك) كتب عساكره وأجنه، وأمرهم بالقدوم عليها.

وجد الفرنج في السير إلى مصر فقدموها، وننزلوا مدينة بلبيس،
 وحصروها، فكلموا فهرا ونهبوها وسبوا أهلها مستهل صفر،
 وكان جماعة من اعيان المصريين منهم ابن الخياط وابن قرجة قد
 كانوا الفرنج.

وساروا من بلبيس إلى مصر، فنزلوا على القاهرة وحصرواها
 عشر صفر، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل
 بلبيس، فحملهم الخوف منهم على الانتباه، فحفظوا البلاد وقاطعوا
 دونه وبدأوا جهدهم في حفظه، فلو أن الفرنج انسحوا السيرة في
 بلبيس لمكروا مصر والقاهرة، لكن الله تعالى حسب ذلك ليقضي
 امرًا كان مقعولاً، وكان شاور قد أمر باحرار مدينة مصر تاسع
 صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خفوقا عليها من الفرنج،
 فبقت النار فيها أربع بمئتين يومًا، فارسل الخليفة
 العاضد لدين الله صاحب ديار مصر إلى الملك العادل نور الدين
 يطلب منه، ويعفره ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في الكتب
 شعور النساء، وقال: هذه شعور نسائي من قسري يستغفرون به ك
 لتنفظن من الفرنج، فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز
 العسكري إلى مصر.
وأما الفرجين فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على من فيها، وشاروا هو متولي أمر البلد والمساكر والقاتل، فاستأصل الأمر وضعف عن ردهم، فأخذ إلى إعمال الحيلة، فأرسل إلى ملك الفرجين يذكر له مودته وحبته القديمة، وأن هوه معه خفوف من دور الدين والعاضد، وإنما المسلمين لا يوافقونه على الإسلام إليه، ويشير بالمحصول، واخذ مال كثلا لتسليم البلد إلى نور الدين، فاجابه إلى الصبح على ذلك الفائف، نبنا مصرية، يجع البضائع ويوفر بعضها، واستقرت القاعدة على ذلك. ورأى الفرجين أن البلد قد امتدت عليهم، وربما سماست إلى ذور الدين فاجابوا كارمين، وقالوا: نأخذ المال نقتؤي به، ونستكذب من الرجال ونعود إلى البلاد بقوة إبانا معها بذور الدين ولا غيرهم، (كمروا ومسكر الله والله خير الماكرمين) (104) فجعل لهم شاور مائدة الفيف، نبنا، ورسلهم الرحيل عن البلد ليجمع لهما المال، فرحوا قريبا.

وعاد العاضد مراسلة ذور الدين وإعلانه مالقي المسلمين من الفرجين، ويبذل له تلك البلاد مصر، وأن يكون اسد الدين شيركوه مقيما عنه في عسكر، وإقطاعهم عليه خارجا عن الثلاث الذي لدور الدين.

وكان ذور الدين لما أتاه الرسول أولا من العاضد، قد أرسل إلى اسد الدين يستدعه من حمص - وهي إقطاعة - فما خرج القائد من حلب لقي اسد الدين قد وصلها، وكان سيب وصوله أن كتب الصصريين أيضا وصلته في المنى، فسار إلى ذور الدين وهو بحبل وأجمع به ساعة وصوله، فتوجه ذور الدين من ذلك وتفائل به، وسهر، وأمر بالتجهيز إلى مصر والسمرة، وفيه النسيم، وحكمه في العسكر والغزاة، فاختار من العسكر الفراض، واخذ المال، وجمع من التركان ستة آلاف فرس وسوار هرب ونور الدين إلى دمشق، فوصلها سلخ صفر، ورجلا في جميع العساكر إلى رأس الماء، وأعطى ذور الدين كل فراس من العسكر الذين معه.
أسد الدين عشرين ديناراً معلوماً له على طريقه، غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأسراء والمساكين، منههم ملاكه عز الدين جزريلك، وعز الدين قليج، وشرف الدين بزغش، وعين الدولة البارقي، وقضب الدين ينال بن حسان المنشلي، وصلاح الدين يوسوف بن أيوب على كره منه، وعسى أن تكونوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تكونوا شيئاً وهو شر لكم، (۱۰۵)، احتذار الذين مسر صلاح الدين وفيه ندبته، وكره صلاح الدين المسير فيه سعادته وملاكه، وسرب ذلك إن شاء الله تعالى عند موت شيركوه.

ثم وإن أسد الدين شيركوه سار مجدًا من رأس الماء منتصف ربيع الأول، فلم يقارب مصر رحل الفرنج عنها عادين إلى بلادهم بفؤدي حنين خانين مما امتلو، وسب ما كهم كل من أشاع عليه بقصد مصر، وبلغ خبر عودتهم ذكر الدين فسره ذلك وأظهر الاستبار، وأمر بضرب الخسان في سائر البلاد، وثبت رسله إلى الأفلاق مبشرة به، والحق به، فإنه كان فتحاً جديداً ل مصر وحفظاً ل سائر البلاد، الأشام وغيرها.

وأما أسد الدين فإنه وصول إلى القاهرة سابع ربيع الآخر ودخلها، واجتمع بالعاصد لين الله، فخلع عليه وعاد إلى خيامه، وأجرت عليه وعلى عساكره الجرائب الكثيرة والاقسام الوافرة، ولم يمكن شاور المفعن عن ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة يظهر البلد ورأى هيرو العاضد معهم من داخله فلم يتجامس على إظهار مالي نفسه فكرته، وهو يتأمل أسد الدين في تقرير مكان إزالته من الملل والاقطاع للعساكر، وإفراد ثلاث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسب معه ويعده ويمنه، (۱۰۶) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لا للدين منهم معه من الأمراء ويقبض عليهم، فتهلك ابنه الكامل، وقال له، والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين، فقال ابوبه: لئن لم أفعل هذا لتقتلن جميعاً، فقال صدقت، لئن نقتل ونحن.
مسلمون والبلد بين المسلمين، خير من أن يقتل ودقة ملكها الفرنج،
وليس بذك وبين عدو الفرنج إلا أن يسعوا بالقبض على شيركو،
وقد انتهى لو مشى المعاضد إلى ذور الدين لم يرسل فارسا واحدة.
وبعثهم البلاد وبيهرون الفساد، فكرر مال 갡 عزم عليه فيما رأى
العسكر المطل من شاور، إتفاق صلاح الدين بين أيوب وعز الدين.
جبروك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك قنهاهم،
فقالوا: إننا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذي على حالتنا، فانظر
ذلك، فإتفاق أن بعض الأيام سأر أسد الدين إلى زيارة قبر الشافعي
رضي الله عنه، وقصد شاور عسکره على عانته للاجتماع به، فألقى
صلاح الدين يوسف، وعز الدين جرديك ومعهما جمع من المهاجرين،
فخمدوه وأعلموا أن أسد الدين في الزيارة، فقال: لنضبي إليه،
فسار وهمه مثلا، ثم ساورته وثقته عن فرسه فهو أصحابه
فأخذ أسرئلا، ولم يكن لهم قتلة غير أفراد أسد الدين فسجدها في خيمة.
وتوكلوا بهفظه، فعلم أسد الدين الحال فعاد مسعا ولم يخطره
إلى أسرم ما عملوا، وارسل الراضي الدين إلى الله صاحب مصر في الوقت.
فاهذ شاور، وطلب منه رأس شاور وبحث على قتله وتبع الرسل.
فانفرض شاور في يومن، وهو السبعة عشر من ربيع الآخر، وحمل
رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين إلى القاهرة، فرأى من كثرة
الخلوق والاجتماع ما خافه، على نفسه، فقال لهم: أسرم المؤمنين قد
امركم بنهر دار شاور، فقصدها الناس، ينهرن بها تفطرقا عنه.
وفي أكد الدين قصر الحاضرد، فخضع خلع الوزارة وافق الملك
المصري أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة، وهي التي كان فيها
شاور، فلم يبق له منازع ولا مناوى، ولم يقم على البغال، ولم
يقوم عليه بالولاية، واقطع البلاد المهاجرين التي قطعت معه إليها.
ذكر وفاة أسد الدين شيركوه ومالك صلاح الدين يوسف بن أيوب

(حتى إذا فرحوا بما أتوا اختناهم بغتة) (١٧٥٠) لما تبث قدوم أسد الدين شيركوه، وخلاء وجهه ملكه خلافه، وصار قبه له ديناه، ورفع شائه، وخارف القاضي والقاضي لاسيما الفرقة، أتاه أمر الله التي لم يحيد عنه ولا مفر منه ولا حتمي عليه ملك بكترة رجح، ولا يمنع عنه المعاقل والمال، فمرض وتوافر يوم السبت الثمانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسماة، فكانت ولايته شهرتين وخمسة أيام.

ولا توقي كان معه صلاح الدين يوسف بن أيوب ابني أخي نجم الدين أيوب ابن شاذل، قد صار معه على كره منه حكاي لي عنه قال: لما وردت الأذن من مصر إلى الملك العادل ذو الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستنجدين، أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمشي إلى عدق أسد الدين بحصم مع رسول الله إليه، تامه بالأضور، وتحثه أنه عن الأرض فيما يتحمل الأمر التأخير. قال: ففغلت، فلما فارقتا حلب على ميل منها لقيتاهم قادما في هذا المعضن، فقال له ذو الدين: تجهز للسير، فاستعن خوافا من غردهم، الا وفتم ما يتفقه في المساعر ثانيا، فأعطاه ذو الدين الأمور والرجال، وقال له: إن سكنتفت أنت عن المسير إلى مصر، فلا صلح تقتضي أن أسر أعنا بذخItalian

- ٢٨١ -

, فإننا إن أهمنا امرها ملكها الفرنجة، ولا يبقي لنا موضع دام، وفثرة قال: فالتبت إلي عمى أسد الدين، وقال: تجهز يا يوسف قال: فكنا ضرب قلبى ب bìnhا، فلقد والله هو أعطيت ملك مصر ماستر إلينا، فلقد قاسبت بالسكونية من المشاء مالا إنسانا أبدا، فقال عمى ذو الدين: لا بد من مصيره، معه فترسنا له، فامرأنا ذو الدين أنا استقبله، فأقضى المجال، ثم جمع أسد الدين المساعر من الترجمان وغيرهم ولم يست فسير. فقال في ذو الدين: لا بد من مسيرك مع عمك، فشكته.
إليه الفضول، وقبل الدواب مما احتاج إليه، فأعطاني ما تجهزت به
فكانوا أساق إلى الموت، وكان نور الدين مهباً مخوفاً مع لينه
ورحمته، فسرته معه، فلم استقر أمره وتوفي، أعطاني الله مسن
ما كنا ملأت اتوقعه. هذا حكى لي عنه.

أما كيف ضيوع ولايته، فإن جماعة من الأمراء النوري الذين كانوا
بمصر، طلبا التقدم على المسارع ولاية الوزارة، منهم، الأمير
عين الدولة الباروقي، وقطع الدين خسرود بن ثليل - وهو ابن أخي
ابن الهيجالاوي الذي كان صاحب إربل - ومنهم: سيف
الدين علي بن أحمد الهكاري - ووجده كان صاحب قلاع
الهكاري - ومنهم: شهاب الدين محمود الحارمي - وهو-
صلاح الدين - وكل من هؤلاء يخطبها وقد جمع في ملء عليها،
فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب مصر إلى صلاح الدين
واصل الحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة وورول الأمير بعد
عمه، وكان الذي حمل العاد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه
ظل أنه إذا ولى صلاح الدين - وليس له عسكر ولا رجال - كان في
ولايته مستضعفاً يحكم عليه ولايجسر على المخالفة، وأنه يضع على
العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض خرج
الباقي وتعود البلاد إليه وعند من المسارع الشامي من يحميها من
الفنرجون. ونuitive الدين - ارتضى معاً وراد الله خصارة، (108)
فامتنع صلاح الدين وهدم نفسه عن هذا مقدم فازمه به وอด
كارها، إن الله يعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلس،
فأما حضر في القصر، خلع عليه خلع الوزارة، الجبهة والعصالة،
غيره مما، وجلب الملك الناصر، وعاد إلى دار أسادين فأقام بها,
ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم
ولاخدموه، وكان القبيه ضياء الدين عسبي الكاركي معه، مع
سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر
لايصلي إلاك مع وجددين عين الدولة والحارمي وأبين تليل، فما إلى
صلاح الدين. ثم قصد شهاب الدين الحارمي، وقال له: إن هذا
صلاح الدين هو ابن اخته وماله لك وقد استقام الأمر، فلا تكن
أول من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك، ولم يزل بـه حتى أحضره أيضاً، وعند له، وعلم إلى قطب الدين. وقال له إن صلاح الدين قد أعطاه الناس، ولم يكن غيره وغيره البارز، وقد كله فجعل بينه وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد، فلا تخرج الأمر عنه إلى الآتراك، ووعد وزاد في إقطاعه فاطع صلاح الدين أيضاً، وعدل إلى غير الدولة البارزة - وكان أكبر الأمة، وآخذهم جمعاً، فلم تتفع رقاه ولا نفذ فيه سحره، وقال: أن لا أخدم يوسف آباؤنا، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره فدناه علىهم فراقه، وقاد قات الامير (ليفوي الله ام rational(142)، وثبتت قدم صلاح الدين، ورسمه ملكه، وهدونيّ

---

الخطرة لنور الدين في البلاد كله، ولا يئن به واضعاً إلا عن أمره، وكان نور الدين يكنب صلاح الدين بالأمير الأسسه، ويكسب عاملته في الكسب تعتضماً أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده في كتاب، بل يكتب الأمير الأسسه صلاح الدين وكافة الأشياء بالليثب المصرية يفعلون كما وكدنا، واستمائل صلاح الدين قلوب الناس وبدل الباول مما كان أسد الدين قد جمعه، وطلب من المعاضد شيئاً يخروجه فلم يمكنا منه، فتم الناس إليه واحده، وقوت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه، وضعف أمر المعاضد، فكان كالباحث عن حتفه بظله، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يسرق إليه إخوته، فلم يذهب إلى ذلك، وقال: آخاف أن يخفق أحده منهم عليه، فتطفس البلد. ثم إن الفرنج اجتموا ليستعوا إلى مصر، فسدب نور الدين العساكر، وله إخوة صلاح الدين، ومنهم كمال الدولة وتران مشابه ابوب - وهو أكبر من صلاح الدين - فلم يكن رابد أن يسير، قال له: إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك، أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمةك وانت قاعد فلا تسير، فإن تفطس البلد، واحضره حينئذ وااعدبكم بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر، و-grow (مقام)، وتخذه بذنفك كما تخدمتي، فسر إليه واشترذ أزره وساعده على ما هو بصدده، فقال: أفعل معه من
ذكر حصار الافرنج مدينة دمياط في سنة خمس وستين

في سنة خمس وستين وخمسمائة، في أواخر صفر، نزل الفرنج على مدينة دمياط من النصارى المصريين. فكان الفرنج الساحل ما مكاس الدين مصر قد خافوا وايقنوا بالهلاك فكانت للفرنج الذين بالأندلس وسقاطة وغيرهم يستعدونهم ويعرفونهم ما تعدد من ملك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين، ورسوا جماعة من القسوس والرهبان يحضرون الناس على الحركة، فامتدوا بالنال والرجال والسلاح، واتبعوا الفزع على دمياط، فظنا منهم أنهم يمكنون ويتخذونها ظهرا يمكنه به ديار مصر. (ورد الله الذين كانوا يغيظهم لم ينالوا خيرا) (109).

فلا ننازله حصارها وضيقوا على من بها، فارسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل، وحشر فيها كل من عنده، وأتى بهما بالنال والسلاح والنقاط، وتبع رسله إلى دوار الدين بشكو ما هو فيه من الخوف، وأنه إن تخفف عن دمياط ملكها، الفرنج، وإن سار إليها، خائف المصريون في خلافه، ومخلقي عسكره بالسوء وخروا عن طاعته، وساروا من خلافة الفرنج من أمامه. فجهز دوار الدين إلى العساكر أرسالا، كما تجهزت طائفة سيرا، فسرت إليه العساكر يتباه بعضها بعضًا.

ثم سار دور الدين فيمن عنده من العساكر، فدخل بلال الفرنج فنهبها وأغار عليها ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه خلال البلاد من مانع، فما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر، وانصرف دور الدين إلى بلادهم ونهبها وإهدائها، رجعوا خانيين لم يظفروا
ذكر حصر نور الدين رحمه الله الكرك

وفي هذه السنة سار نور الدين إلى بلاد الفرنج فحصر حصن الكرك في رجب. وكان سبب حصره أن نجم الدين أيوب والد صلى الله عليه وسلم نور الدين عسكرا، وأجمع معهم من التجار ومن كان له صلاح الدين أئناس مونه مالا يعد، فخاف نور الدين عليه، فسار إلى الكرك ونزل عليه وحصره، وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالين، ونصب نور الدين على الكرك المعنيق. فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وصاروا إليه وأن ابن الهندي، وفيليب بن الرقيق - وهم فارس الضار في وقتهما - في المقدمة إليه. فرحل نور الدين نحوهما لياقاهم ومن معهما قبل أن يلحق، بهما باقي الفرنج، فكانا في مائتي فارس وألف تركب وهم من الراج عالم كثير، فلم تقيمهم رجاءا القيقري إلى من وراءهم من الفرنج، وقصد نور الدين الشام في وسط بلادهم، ونهب ما كان على طريقه إلى أن وصل الشام فنزل بعشترا (110) وأقام ينتظر حركة الفرنج لياقاهم، فلم يمرروا من مكانهم خوفا منه، وأقام هو حتى اتاه خبر الزلزلة الحادثة بحبل وأعمالها وسائر بلاد الشام فرحل.

- ٢٥٣١ -
ذكر الزلزلة التي جرت بالشام وما فعله نور الدين

وفي هذه السنة أيضا في ثاني عشر شوال، كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها عمت أكثر البلاد من الشام، مصر، وبيار الجزيرة، والموصل، والعراق وغيرها، إلا أن أشيئاً وعظمها كان بالشام، فخربت بعلبك، وحمص، وحماة، وشمر، وبغريب، وحلب وغيرها من البلاد، وشهدت استوارها وأعمالها، وسقطت الدور على أهلها، وهناك منه مساير، من الحد والاحصاء، فلما آتاه هذا الخبر، سار إلى بعلبك ليعلم ما أنهدم من استوارها وخلاها من أهله، فرتب بعلبك من يحميها ويعمرها، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك، ثم إلى حمص ثم إلى بارين، وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بارين، فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء البند، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير، ونجل بالعمرة من يحفظ عليها ليلًا ونهارًا، وبلغ الربع من نجا كل مبلغ، وكانوا لا يقدرون على أن يروا إلى بيوتهم السالفة من الخراب خوفا من الزلزلة، فإنها عاودتهم مرة أخرى. وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج. فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبناها، اقام فيها واصل عمرتها بنفسه، وكان يرقف على استعمال الافلاط والبنانين، ولم يزل كذلك حتى أحكم استوار جميع البلاد ووجامها، فأخذ من المال مال يقدر قدره.

وأما بلاد الفرنج فإنها أيضا فعلت بها الزلزلة قريبا من هذا، وهم أيضا يخافون نور الدين على بلادهم، فاشتغل كل منهما بعمارة بلاده.

ذكره غزوة لسرية ذورية

كان شهاب الدين محمود بن إلياس بن إيلغازي بن أرطوق صاحب
قلعة البيرة، وقد سار في عسكره - وهم مائتا فارس - إلى الخدمة الدورية وهو بعثة، فلما وصل إلى اللواء - وهي من أعمال بعلك - ركب متصدباً، فصادر ثلاثمائة فارس للفرنج قد ساروا للأغارة على بلاد الإسلام، وذلك سابع عشر شوال من هذه السنة، فوقع بعضهم على بعض واختلفوا، واشتد المقاتلة، وصبر الفرسان لا سيما المسلمون، فان الفرسان منهم لا يتصبرون لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج، فكثر القتلى بين الطائفتين، فانهزم الفرنج وعمهم القتال والإسراب، فلم يبق منهم إلا من لايطاب به، قال تعالى: (وَلَا تُؤْمِنَّ فَإِنَّكَ لَعَلَّذِكَ الْمُنَاسِبُ) (111). ثم إن شهاب الدين سئر بالأسرى ورؤوس القتل إلى نور الدين، فركب وهو والساقين إلى لقائه واشتراع الأسرى ورؤوس القتلى، فراغ فيها رأس مقدم الاستبار صاحب حصن الأكراد، وكانت الفرنج تعظمه لشجاعته وبيته، ولانه شجاع في حاوي المسلمين، وكذلك رأى رأس غيره من مشهوري الفرنج فازداداً سروره، (وَكُمْ مِنْ فُرُوجٍ غَلِیْبُ فُرُوجٍ كَثِیرَة بَلَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِیرٌ فَقِیرٌ) (112).

في ذكر وفاة أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد زنكي بن آقسّقر رضي الله عنه وملك ابنه سيف الدين.

في شوال من سنة خمس وستين وخمسمئة، توفي أتابك قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد زنكي بن آقسّقر رضي الله عنه بالموصل، وكان مرضه حميداً، ولا اشتهر مرضه أو صاحبه، بعده اولده عماد الدين زنكي - وهو أكبر ولاهه وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيم بأمر دولته فيردين الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الدين لأنه كان قد أكثر المقام عن عمه الملك العادل نور الدين وخمده وتزوج ابنه، وكان نور الدين يبغض فضير الدين لظلم.
كان فيه وليذه، ويالوم أخاه قطب الدين على توليه الأمر، فضفاض فخر الدين أن يتصرف عماد الدين في فترته عن أمر عمومه -نبله ويبعده، فاتفق هو والخاتون ابنته حسام الدين تمريش، زوجة قطب الدين - قرهون عن هذا الرأى، فلما كان الفخراخشر الأسراء واستباحاؤهم لولده سيف الدين غازي وتوبي وقد جاؤوا عمره أربعين سنة. وكان تأم القامة، كبير الوجه، اسم اللون، وأسم الجبهة، جهوري الصوت، وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف.

ولما توفي في استقر سيف الدين في الملك، ورجل عماد الدين إلى عموم نور الدين، شاكيا مستنصرًا. وكان فخر الدين هو الذي يدير أمر سيف الدين ويدرك في مملكته، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه، فإنه كان في عدنوان شبابه وقمة حداثة.

حادثة تحت عن العدل

من جملة أعمال جزيرة ابن عمر، قرية تسمى العقيدة قصابل الجزيرة، يفصل بينهما دجلة. ولها بساتين كثيرة، وبعضها تمسح أرض ويوخذ على كم جريب من الأرض التي قد زرع فيها معلمو، وبعضها على خراج ولا يوجد عليها، وبعضها مطابع منهما. فأصله مسوح منها لا يحصل لأصحابه إلا القدير القريب، وكان لنا بهما عدة بساتين.


الموسوعة الشعبية م، 1441، 289.
للموالي قطب الدين وآنا أمسح ملكي جميعه. قال: فأعاد الجواب
يأمر بالمساحة. وينقول: تمسح أولاً ملكك ليقتدي بك غيرك، ونحن
نطقك ما يكون عليه، قال: فاظهرنا الأمر، وشرع النواب
يسمحون. وكان بالعقيبة رجلان صلحان ويبين وبها ما معه.
اسم أحدهما يوسف والآخر عبانة، قال: فحضرنا عندي وتعلموا
من هذه الحال، وسألاني المتكاتبة في المنفى، فاظهرنا لهما كتاب
فخر الدين جواباً عن كاتبي، فشكراني شم قالًا: وأيضاً تعذد
تراجعه. فعاودت القول، فقصر على المساحة فعمرتها الحال.
قال: فلما مضى عدة أيام، عدت يوماً إلى داري راكبا، وإذا هما قد
صادفتنا على الباب، فاقتث في نفسي: عجبًا لهذين الشيخين، قد
رايا مراجعتي وهم يطلبان مني مالاً لقدر عليه. قال: فساسمت
عليهما وسلما علي، وقال لنا: والله إنني أستحي منكما كمالًا
جنتها في هذا الأمر، وقد رأيتما الحال كيفه. فقالا: صدقت.
ولم نحضر إلا أنهرا أن حاجتنا قضيت. قال: فطلقت أنهما قد
ارسلنا إلى الوصل من يشفع لهم، فسعدنا داري ودخلتهما في
والدتيهما عن الحال كيفه ومن الذي سمعى لهمًا، فقالا: إن
رجل من الصالحين الأبدال شكونا إليه حالتنا فقال: قد قضيت
حاجة أهل العقيدة جميعهم. قال: فوقنع عندي من هذا فكر، تارة
أصدقهما وأعلم من صلاحهما، وثانية أعلج سن سلامتي
صدريهما، كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدان واقعاً لا يشک
فدها. قال: فلما كان بعد أيام إذا قد وصل من الوصل كتاب
يأمر فيه بإطلاق مساحة العقيدة، وإطلاق كل مسجون، وبالصدقة.
فسألنا القاضى عن السبب، قال: إنكماك شديد المرض. قال:
فأذكرت في قولهما وتعجبت منه، ثم تأتي بعد يومين من هذا، ورأيت
والدي إذا رأى أحد الرجلين يبالغ في إكرامه ويجتر به ويقضي
أشغاله، واتخذهما أصدقاء.
فصل في ذكر بعض سيرة أتابك قطب اللدين رضي الله عنه
كان رحمه الله ورضي عنه من أحسن الملوك سيرته، وأعفوه عن أموال رعيته، محسنًا إليه كثيرة الإحسان عليهم، محبوبًا إلى صغيرهم وكبيرهم، عطفًا على مأمورهم وأمروهم، حليماً عن المذنبين منهم، قليل المؤاخذة لهم على زلائهم، كريم الأخلاق حسن
الصحة لهم، فكان القائل أراده بقوله إذ يقول:
 خلق كماء المزن طيب مناقه
والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم وعاس
عمن جنى والسيف غير حليم
كالفيث إلا أن وابل جونه
ابداً وجود الفيث غير مقيم
"الدهر إلا أنه ذو رحمة
والدهر قاسي القلب غير رحيم
وكان رضي الله عنه سريع الانفعال للخير، يعطيًا عن الشر.
حدثي، والذي قال: استدعاني يومًا وهو بالجزيرة وكتب لي: بلغني أنك تهمن هذه الأعمال، فلما حضرت عنه قال لي: بلغني أنك تهمن هذه الجنايات (112) ولا تخف، فإنني أعجز عن حفظها لاتنكر في بيتها والدزدار، يفعل في القلعة ما يريد، ثم التفاوت ليس بعظيم واخف من الاستقصاء فيها، لودع على بعض هؤلاء الملوك وأومات إلى أولاده - كانت شعرة منه تساوي الدنيا وما فيها، ولانا مواضع تحمل العمارة لعمرت يتحصل منها أضعافه. فقيل لي: جزاك الله خيرا، فقد نصحت وأنتي الأمانة، واشرح في عمارة هذه الأماكن التي تحمل العمارة، قال: ففعلت وكبت منزلي عنده، ولم يزل يشي علي.
قال: وكان السلطان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه، لقد صبر من ذوابة زين الدين وجمال الدين وغيرهما على ما لم يصربه عليه سواه.

وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين، كثير المساعدة له والانضاج بنفسه وعسكره وأمواله، حضر مه المصرف بحارم وفتحها، وفتح بانياس، وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف.


قال: وكان يفغض الظلم وأهله، ويغلاق مـن يفعله مـن أصحابه، فمن ذلك أن ناثرين كانا له بالجزيرة اختصاً وتراثاً فعاً.
إليه فذكر أحدهما عن الآخر أنه قد كان خان السلطان في حاله، وأخذ من أموال الرعية أيضاً رشا على مالاً يجوز له فعله، قال: فاحضرهما بالوصول وأرسل إليه، وهم في ديوانه يقول: قد قلت عن فلان كذا وكذا، فإن صبح عليه أن يأخذ من أموال رعيته دينار واحد صابته، فإني قد وسع عليه، وكررت إطلاقه ثلاث مرات لفترة من تسع شهور، وإن لم يصح عليه شيء، فعاقبته قبل كنّب، فالم يسمع عليه قول شيء فأخذ على شغله، وقال الآخر: لولا أنك ألك حق خدمة لكنت حاكيك على كنّب، فعجل.

وكان رضي الله عنه واعظ الكرم، كثير البذل للمال، أكثر تعميد أصحابه ونوابه، بالصلات السنية والعطيات الجزيلة، فاجتزى أموالاً لاحتفاظ ولا تحدث، فمنها: ما كان جمع في الأيام الشهيرية والأيام السفيرة، وما كان قد أخذه نصير الدين جقر، وما تحصل له هو من البلاد في أيامه.

أعطى فأكثر واستقبل هباته فاستحبل الأئمة وهي هوا لاسم الفهم لديه وهو كؤور، والاسماء البخار جداول، لم تخزل أرض من نداء ولا خلا من شكر ما يولى لسان قالن.

وكان رضي الله عنه يقول لما يņحه عن كثرة الاتفاق وإخراج الأموال: متى سمعت أن ملكاً حبسه القاضي، وإذا لم يظهَر إحساني على من يخدمني فم من يحسن إليهم؟ وبالله أقسم إذا فكرت في الملوك أولاد الشهيد عماد الدين بن كنبي: سوف الدين، ونور الدين، وقبط الدين، وما جمع الله سباحته فخم، من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال، وحسن السيرة، وعمران البلاد، والرفق بالرعية إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج المال إليها، أظن أن القائل أرادهم بقوله: شعر.
ذكر وفاة المستنجد بالله أمير المؤمنين وخلافة
ولده المستشفي بامر الله. رضي الله عنهم

توفي الامام المستنجد بالله أمير المؤمنين في ثمانwake من شهر ربيع الآخر من سنة ست وستين ومائتين وخمسمئة . واسميه يوسف بن المقففي لأمر الله . وتمام نسبه عند وفاة المستنجد بالله، رضي الله عنه.

ولده واهم ولد اسمها طاووس روحا . ومولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر ومائتين وخمسمئة ، وكانت خلافته احده عشرة سنة وستة اعوام، وكان اسمها تام القامة ، طويل اللحية .

وكان سبب موته انه مرض واشتد مرضه ، وكان قد خافه استاذ الدار عبد الدين أبو الفرج ابناً رئيس الروساش وقطب الدين قايمز – وهو مماليك المقففي لأمر الله – وهو حينئذ أكبر أمر

ببغداد ، ولله من الاتباع مشل علاء الدين تناهش عنiones وغيرهما ، وكان محسنًا إلى الاجناد ، فلما اشتد مرض المستنجد بالله اتفقا 
وعوضاً الطبيب على أن يصف له ما يئنه ، فوصف له نخال
الحمام ، فامتنع المستجد بالله لضعفه ، ثم ادخله وأغلى عليه الباب
إلى آن مات ، هكذا سمحته من غير واحد من يعلم الحال.

وكان وزيره حينئذ شرف الدين أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد
الموصوف بالله الذي ملك الدولة ، وبيته وبينه وبينه استاذ
الدار ضعف الدين وقبض الدين عداوة مستحكمة ، لأن المستجد بالله
كان لأمره فيما يتعلق بهما بأشياء غريبة ، فكان يظن الناس أنه هو
الذي يسعي بهما ، فلما مر ضعف المستجد بالله وأرجه بموته ، ركب
الوزير ومعه الأمراء والأجانب وغيرهم بالعده الكاملة فلم يتحقق
عنده خبر موته ، وأرسل إليه استاذ الدار يقول : إن أمير المؤمنين
قد خفى مابه من المرض وأقبل ( عليه ) العافية ، فذرف الوزير أن
يدخل إلى دار الخلافة بالجدن ، فربما جرى عليه عتب وإذكار ، فعاد
إلى داره وتفجر الناس عنه . وكان استاذ الدار وقبض الدين قد
استعد للهرب لما ركب الوزير ( خوفا منه ) إن دخل الدار ( ان
يأخذهما ) ( ١١٥ ) ، فلما كاد أغلى استاذ الدار أبوابها وأظهر وفاة
المستجد ، واحضر هو وقبض الدين ابنه ، أبا محمد الحسن وابياعه
بالخلافة وأقيم المستجفي بأمر الله ، وشرطا عليه شروط ، منها :
أن يجعل ضعف الدين وزيرا وأبنه كمال الدين استاذ الدار ، ويجعل
قبض الدين أمر العسكري ، فأجابهم إلى ذلك . وعلم شرف الدين بن
اللهي الطالح ، فصدق بدأ يد يد ، وقرع سنده ندعا على مافرط في
عده إلى داره ، حيث لا ينفعه الدام ، وأتاه بن يستدعيه للجواب
للعزة والبيعه للمستضيء ، فمضى إلى دار الخلافة ومعه زعيم الدين
ابن جعفر ، وهو صاحب الخزنة ، فلما دخلوا صرف واي موضوع من
الدار وقعت وقطع قطعا واقية في دجلة ، رحم الله تعالى . وأرسال
عضد الدين وقبض الدين إلى داره فحمل جميع ماله فيها من مال
وجمره ، فرأيا في ذلك خطوط المستجد بالله يأمره فيها بالقض
عليهما ، وخط الوزير قد راحع في ذلك وصرف عنه ، فلما وقفوا
عليه ، علمن براءته مما كانوا يظننان فيه ، فندم لما وقعوا
فصل في ذكر ملك نور الدين الموصل، وغيره من البلاد الجزيرة وتقرير الموصل على سيف الدين غازي.

لما بلغ نور الدين وفاة أخيه قطب الدين رضي الله عنهما، وملك ولده سيف الدين بعد. واستبلاه فخر الدين عبد المحسن واستباداه بالأمور وحكمه على سيف الدين غازي، انفق لذلك وكبّره فيه وشق عليه. وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه من خشوئته على الرعيّة والمبالغة في إقامة السياسة، وكان رحمه الله ليتا رفيقًا عادلاً، فقال: "أنا أولى بتدبير بني أخي ولكلهم، ثم سار من وقته فعبر الفرات عند قلعة جعبر، مسيراً متجردًا سنة ست وستين، وقعد بالرقة، فامتنع الناس بنا شيئاً من الامتناع، ثم سلمهما على شيء اقترب، فاستولى نور الدين عليها وقرر امورها. وسار إلى الخابور فملكه جميعًا.

ثم ملك نصيبين، وقام بهما يجمع العسّكر، فإنه كان قد سار جريدة فاتاه بها نور الدين محمد بن قرا ارسلان صاحب الحصن، 296
وتباهر بكر، واجتمعت عليه المساقر فكان قد ترك أكثر عسكره بالشام لحفظ غтворه وطرافه من الفرعين وغيرهم فاما اجمتمت المساقر سار إلى سنجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق، وكان بها عسكر كثير من الموصل، فكانت عامة الأمراء الذين بالوصل يحثونه على السرعة إليهم لتسليمهم البلاد إليه وشرحوا بترك سنجار فلم يقول منهم، وأقام حتى ملك سنجار وسلمها إلى غصان الدين زنكي بن أخيه قطب الدين. ثم سار إلى الموصل فانتقد مدينة بلد، وعبر دجلة في مخاطبة عدنا إلى الجانب الشرقي، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى، ودخل بينه وبين الموصل. ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بنة كبيرة. وكان فخر الدين قد سير المولى عز الدين مسعود بن اتابك قطب الدين رضي الله عنهم إلى اتابك شمس الدين إيلدزز صاحب بلاد الجبال، ودرييجان وأيران وغيرها يستبطنها، فأرسل إيلدزز رسولًا إلى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل، ويقول: إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته، وكان بسنجر، فسار إلى الموصل، وقال للرسول: قل لصاحبك، أنا أرق بنى أخي منك فلم تدخل نفسك بأنتنا، وعن العرق من إصلاحهم يكون الحديث ملك على باب همدان، فإذ أنك قد مثلت ثغب بلاد الإسلام وأهملت الغتور حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أننا وحدي وتشجع الناس، الفرعين، فخذت بلادهم وأسر فلوكهم، فلا يجوز لي أن أتركك على ما انت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام وإزالة الظلم عن المسلمين، فعاد الرسول بهذا الجواب.

وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال، وكان هدوي كل من بالموصل من جندى وعاصي معه حسن سبيرته وعدله، وكببه الأمراء يعلمون أنهما على الوثوب بفخور الدين وتسليم البلد إليه، فلم لم خفر الدين ذلك رأسه في الصليب والدخل في طاعته، وإلقاء الموصل على سيف الدين، وطلب لنفسه الأمان وإقامة يكون له، فجاء إلى ذلك وقال: لا سبيل إلى مقامك في الموصل بل...
تكون عندي بالشام، فإنني لم أتخذه البلاد من أولادي، إنما جئت لأخلص الناس منك، وإن تولى ابن تربية أولادي، فاستقرت القاعدة على ذلك، وسلمت الموصل إليه، فدخلها ثلث عشر جمادي الأول من سنة ست وستين وخمسانة، وسكن القاعة. وأقر سيف الدين غازي على الموصل، وولى بقاليها خادماً، فأما لنا أنه يقال له سعد الدين، كمشتري ضريبه، وجعله دزداراً فيها، وقسم جميع ما خالفه أخوه اشترك قطب الدين ابن أولاده بمقتضاى الفريضة.

ولا كان يحاصر الموصل جاءته خلعة الإمام المستضيء بأمر الله فابسها، فإما دخل الموصل خلعاً على سيف الدين، وأطلق المكوك جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد، وأمر ببناء الجامع النوري فبنى، وأقيمت الصلاة فيه سنة ثمان وستين وخمسانة.

وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً وسار إلى الشام، فقيل له: إنك تحب الموصل والمقام بها ولن تررك أسرع العود. فقال: قد تغير قالي فيها، فإن لم أفرحها ظلمت، وبمنعني أيضاً أني ( هنها ) ( ١٠٦ ) لا يكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد.

ثم أقطع نصيبين والخابور للمساكر، وأقطع جزيرة ابن عمر، سيف الدين غازي ابن أخيه من الموصل، وعاد إلى الشام ومعه فخري الدين عبد المسيح، فغير اسمه وسممه عبده الله، وأقطعه إقطاعاً كثيراً.

ذكر غزوة إلى بلد أنطاكية وطرابلس الشام

في سنة سبع وستين وخمسانة، خرجت مراكب من مصر إلى الشام، فأخذ الفرنج الذين في لندقية مربكين منهما ممومين من الامتعة والتجار وغدوا بالمسلمين، وكان دور الدين قد هببه بينهم.
فندقاً، فلما سمع نور الدين الخبر فاستعنه، وراسل الفرنج في اعادة ما أخذوه ففالثوهم، واشترحو بأمور منها: أن البركين كانا قد دخلهما ماء البحر أكتر فيهما، وكانت العمانة بينهما أخذ كل مركب يدخله الماء، وكانوا كابنٌ، فلم يقبل مغالطتهم. وكان رضي الله عنه لا يهمه أموا من أصوله، فلم يردوا شيئا، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وحث السرايا في البلاد، بعضهم نحو انطاكية وبعضهم نحو طرابلس، وحضر حسن عرفة وخرب ربيضة، وأرسل طائفة من العساكر إلى حصني صافيتا وعيرية فأدخّلوهما عرفة وكذلك غيرهما، ونهب وخراب وغنم المسلمون الكثير، وعادوا إليه وهو بفرقة، فسار في العساكر جميعاً إلى قريب طرابلس يخرب ويحير وينغب.

وأما الذين ساروا إلى انطاكية، فإنهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتخريب والتحريض بولاية طرابلس، فراسل الفرنج وباذوا اعتناء مالبخوهم من البركين، وتجدد مهمرة فيهم فاجابهم إلى ذلك فكانوا فد في ذلك كما يقال: اليهودي لايعطي الجزية حتى يطم، وكذلك الفرنج مأعدوا ام والتجبار بـالناسي هـ، احسن، فلما نهبت بلادهم وخراب أعادوها.

نادرة غريبة في زماننا هذا

قد علم الناس قلة الأمانة، دلالة على عدمها، فلما أخذ الفرنج هذين البركين، كان لوادي فيما تجارة مع شخصين فلما أعادوا إلى الناس أمَّولهم لم يصلى إلى كل نسمة تذكر البسيج، وكان يحمل المتاع إلى نور الدين ويحضر التجار، فلكل من اسمه على ثوب أخذه، وكان في الناس من باخذ ماليس له، فكان أحمد هذين المضاربين في الأمانة - وكان نصرانيا - فلم يأخذها ما عليه اسمه وعلائمته، فذهب من ماهو وما لنا كثير بـهذا السبب، وكان الذي حصل له من مالنا أكثر من الذي له، فلما عاد...
إلينا سلم الذي له إلى والدي، فامتنع من أخذه وقال خذانت الجميع فإنك أحوج إليه، وأنا في غنى عنه، فلم يفعل، فلم كان بعض الأيام، وإذا جاء ذلك الغلام ومعه عدة من الآشوب السوسي وغيرها، وقال، هذا من قماشنا قد حضر اليوم، وسبب حضوره أن انّسانا فقاعياً (١١٧) من أهل تبريز كان معنا في المغرب، وقد أعادوا عليه ماله، فرأى هذه الأثواب واسمها عليها، فلم يسهل عليه مردها، وسأل عني وقصدني وهي معه، وحضر عندي الساعة وسلمها اليه، وقال، قد تمرك طريقي لتبّ رأي ذمتي، وأخذنا نحن ماعليه اسمينا بعد الجهاد، وطلب والدي الرجل، وسأله أن يقيم علينا ليسلم لله ما لا يتجه فيه، فلم يفعل، وعاد إلى بلده وهذان الرجلان نادران في هذا الزمان.
ذكر انقراض الدولة العلوية بمصر
واقمة الخطبة العباسية بها

في المحرم من سنة سبع وستين وخمسمائة، قطعت خطبة العلاض الله العلوي صاحب مصر، وخطب فيها للأمام المسترضي بأمر الله أمير المؤمنين.

وكان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب، لما ثبت قدمه في مصر، وزال الخلافة على يديه، ومسح يوسف الضحايا، הזהب، العلاض، ولم يبق من العساكر المصرية أحد، كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود، بأمره بقطع الخطبة العباسية، واقامة الخطبة العباسية، فاعترض صلاح الدين بالخوف من وشوبه صلى مصر، وامتناهم من الإجابة إلى ذلك ليليهم إلى العلوين، فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك الزاماً لاقحسة له فيه، وأتفق أن العلاض مرض، وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له، فاستشار أمراءه كيف الأبيض الإقامة بالخطبة العباسية، فمنهم من أقر بالمماح والأنشواء، ومنهم من خاف ذلك، إلا أنه لم يحكى إلا امتثال أمر نور الدين، وكان قد دخل إلى مصر أنسان عجمي يعرف بالأمير العالم، وقد رآنه بالموصل كثيراً، فلما رأى ماهماً فيه من الأحماس، قال: أنا أبتديء بها، فإنا كان أول جمعة من الحرم صعد الذي قتل الخطيب ودعاه المسترضي بأمر الله، فلما ذكر أحد فلما كان الجمعية الثانية، أمر صلاح الدين الخطبة بمصر والقاهرة بقطع خطبة العلاض، واقامة خطبة المسترضي بأمر الله، ففعلوا ذلك، ولم ينفع فيها عنوان، وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية.

وكان العلاض قد استمرر عليه، فلم يعده اهله وأصحابه
بذلك، وقالوا: إن سلم فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن ننفخ عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله، فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم.

ولا توفي جائس صلاح الدين للعزا، واستولى على قصيرة وعلى جميع ما فيه، وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاقد، بهاء الدين قراجوش وهو وخبي لحفيظة وجعله كأس تارى. ولعل القاضي، فحفظ ما فيه حتى تسليمه صلاح الدين، ونقل أهل العاقد إلى مكان منفرد ووكل بحفظهم وجعله ولده وعمومته وأبناءه في أيوان في القصر، وجعل من حفظهم، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والحام، فاستدعي البعض وهب البعض ويبع البعض، وأخلي القصر من أهله ومكانه، ففجأه من لايزول ملكه ولا يغمره من الأيام وتعاقب الدهر.

ولنا أقدم مرض العاقد، فالبقي صلاح الدين، فظن أن ذلك خدعة فيلم يمضى إليه، فلما توفي علم صدقه، فقذم على تخفيف عنه.

وكان ابتداء الدولة العلوية بإفريقية والمغرب في ني الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين، وأول من ظهر منهم، المهدي أبو محمد عبد الله وثياب، الذي بني الهدي، ومحمد إفريقية جميعها، وقام بالأمر بها بعدته، ابنه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد، ثم ابنه المنصور بالله أبو الطاهر اسماعيل بن محمد، ثم ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد وهو الذي سيبر العمساكر إلى مصر مع ملاهم جوهر، ففتحها وملكها في شعبان من سنة ثمان وخمسين، ثم ثلاثة، وبنى القاهرة، وخرج المعز من إفريقية، فقام بمصر وأولدته بعده إلى أن انتقضت دولتهم الآن، فكانت مدة دولتهم مائتين سنة، وستين سنة، وكان مقاتهم بمصر مائتين سنة وثمانين سنة، وملك منهم أربعة عشر خليفة، وهم: المهدي،
والقائم بأمر الله، والمتصور بالله، والمعلز لين الله ثم ابنه العزيز بالله، ثم الحاكم بأمر الله، ثم الظاهر لا عزاس بين الله، ثم المستنصر بالله، ثم المستعلي بالله، ثم الأمير باحкам الله، ثم الحافظ لين الله، ثم الظافر بالله، ثم الفائز بنصر الله، ثم العاضد لين الله، وهو آخرهم، وقد تبينا على ذكر ماجمناه في المستقصى في التاريخ، وإنما نذكر ههنا ما تدعو الحاجة إليه.

ولا استولى صالح الدين على القصر وأمواده وذخائره، اختار منه مدار، ووهب أهله وأمراءه، وبايع منه كثيرا وكان فيه من الجوهر والأخلاق النفسية تاليم عند ملك من المناك، قد جمع على طول السنين وممر الدهور، فمنه: القضايب الزمرد طوله نحو قبض، ونصف، والبئ الواقوت وغيرهما، ومن الكتب المنوطة بالخطوات المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجد.

ولا خطب للمستضيء بأمر الله بمصر، أرسل نور الدين إليه يعرف ذلك، فجعل عنه أعظم مخل، وسره إليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صندل المقتفي اكراما له، لأن عماد الدين كان كبيرا في المحال في الدولة العباسية ثبتها الله تعالى، وكذلك أيضا خلعا لصلاح الدين، إلا أنها أقل من خلع نور الدين، وسيرت الأعلام السود لتنصب على المناور، وكانت هذه أول هيئة عباسية دخلت مصر بعد استيلاء العلويين عليها.
ذكر الوحشة بين ذور الدين
وصلاح الدين بباطناً

وفي سنة سبع وستين أضا، جرى مالوجب ذフرة ذور الدين من صلاح الدين، وكان الحادث أن ذور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجميع المعارك المصرية والمسير بها إلى بلاد الفرنجة، والنزول على الكرك ومحاصرته، ليجمع هوا أيضاً عساكره ويسطر إليه، ويجتمع هنا على حرب الفرنجة وإستيلاء على بلادهم، فقرر صلاح الدين مان القاهرة في العشرين من الحرم، وكتب إلى ذور الدين يعفره أن رحله لايتأخر، وكان ذور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام ينتظر ورد الخبر من صلاح الدين برجله ليبرجل هو، فلما أتاه الخبر بذلك، رحل عن دمشق عازماً على قصد الكرك فوصل إليه، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول إليه باختلال البلاد، وأنه يخف عليها مع البعد عنها فعاد إليها، فلم يقبل ذور الدين عذره.

وكان سبب تقاوعه أن أصحابه وخدامه خوفه من الاجتماع فيه لم يمثل ام ذور الدين شغ ذلك عليه وعظم عنه، وعزل على النخيل إلى مصر وأخرج صلاح الدين عنها، فبنى الخبر إلى صلاح الدين، فجمع أهله وفيهم والده نجد الدين أيوب وحاشته شهاب الدين الحرمي ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم مابلغه من عزم ذور الدين قصده وأخذ مصر منه، فاستشارهم فلم يجب أحد منهم بشيء، فقال تقي الدين عمرـ: أن اخـ صلاح الدين، وقال: إذا جاءنا قاتلناه وصدتناه عن البلاد، ووافقه غيره مان أهله فشـ تمه نجـم الدين أيوب وأدرك ذلك واستطعـهـ، وكان نا رأى ومكر وعقل، وقال نتقى الدين: إقـ وسه، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك، وهذا شـ هاب الدين
احترم هذا في هؤلاء كلهـ مـين يحبـك ويريدك أفراح،
ما لنا؟ فقال: وثمة لو رأيت أننا وهذا خالق ذور الدين
لم يمكنا إلا أن نترجل له ونشيل الأرض بين نيبه، ولوا ءارنا أن
نضرب عرفك بالسيف لفعلن، فإذا كان نحن هـنا، كيف يكون
غيرنا، فكل من ترى من الأمراء والمساكرين، لو روای ذور الدين
وحده، لم يجاسروا، من أنهم على سرجه لا وسعه إلا النزول
وتقليل الأرض بين نيبه، وهذه البلاد له وقد أقام فهما، وان أراد
عزلك فأي حاجة له إلى المجيء، فأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد
خدامته، ويولى بلاده من يريد.

وقال للجماعة كلهـم: قوموا علينا، فنحن مماليك ذور الدين
وبابي يفعل، بنا ما يريد، فدفروا على هذا، وكتبوا أكثرهم على
نير الدين بالخبر، ولا خالاً يود بابنه صالح الدين، فقال
له: أنت جعلت قليل المعرفة، تجمع هذا المجمع الكثير وتطالعهم
على ما في نفسك، فانا سمع ذور الدين، أدرك عازم على منعه عن
بلاده، جعلك اهـم الأمر عليه، وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تر
معاك أحد من هذا العمر، وكانوا أسلموك إليه، وما الأدن
هذا المجال، فسكتون إليه وعرفونه قولي، وكتب أنت إليه
وبرسل في المعنى وقول: أي حاجة إلى قصدي، يجيء نجاب
يا خذني رحيل يضعه في عنقي، فهـذا أنا سمع هـذا عند
قصدك، واشتكيل بما هو أهم عنه، والإياى تندرج والله كل وقت
شن، ففعل صالح الدين ماتراه به والده، فاما رأي ذور الدين
الأمر هـذا، دول عن قصدي، وكان الأمير كـما قال نجـم
الدين، وتفوي ذور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وهذا كان من أحسن
الآراء واجودها.

في ذكر اتخاذ ذور الدين حمام الهوادي

وفي سنة سبع وستين، أمر الملك العادل ذور الدين باتخاذ الحمام
الهوادي، وهي المناسبة التي تظهر من البلاد البعيدة إلى أوكارها، واتخذت في سائر بلاده.

وكان سبب ذلك أنه اتسعت بلاده وطالب مملكته، فكانت من حد النوبة إلى باب هممان، لا يختالها سوى بلاد الفرنج وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازعوا بعض الثغور، فليست أن يسلم الخبر ويسير اليهم يكونوا قد بلغوا بعض الغرض، فحينذا أمر بذلك، وكتب به إلى سائر البلاد واجرى الجرائم لها ولدريها، فوجد بها راحة كثيرة، كانت الأخبار تأتيه لوقتها، فإنه كان له في كل شغر رجال مرتين ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فامرأوا أو سمعوا أمرها، كنت له لوقته وعلقته على الطريق وسرجها، فهلسحل إلى المدينة التي هو منها في سبعة، فنتقل الرقة منها إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها دير الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فانحرف فانفرث بذلك حتى أن طائفة من الفرنج نازعوا آخرها له، فأتاه الخبر ليمتهم، فكتب إلى المساجرون المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والتسليم بسرعة وكبض العدو، ففعلوا ذلك، فظفروا والفرنج أمانون، لبعد دير الدين عنهم، فرحمه الله ورضي عنه، ما كان احسن نظرة للرعاية والبلاد.

ذكر قصد دير الدين الشهيد بلاد قلج أرسلان

في سنة ثمان وستين وخمسين، سار دير الدين نحو ولاية الملك عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان السلجقي، وهي مملكة وسياست قوقانية، وأقصاها، عازماً على حرية وآخذ بلاده منه.

وكان سبب ذلك، أن ذا الذي بن دانشمند صاحب مملكة وسياست وغيرهما من البلاد، قصد قلج أرسلان وآخذ بلاده
واخرجنا عنها طريدة، فسار إلى ذور الدين مستجيماً به وملجئاً إلى ظله، فاقترب نزله وجلس اليه، وحمل له مايليو أن يحمل إلى الملوك، ووعده النصرة والعسر في رده مثله إليه، وكانت عادة ذور الدين أن لا يقضدي ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة، إما لا يستعين بها على قتال الفرنج، أو الخوف عليها منهم، كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما، فلما قبض ذور الدين النيون، راسل قلج ارسلان ودفع إليه في إعادة ماغلب عليه من بلاده فلم يجيبه إليها ذلك، فسار ذور الدين نحوه، فانتباها بحصن هبسا، ومرعش فملكه وما بليهما من الحصن، وسهر طاقة من عسكره إلى سيواس فما يكونو وكأن قلج ارسلان لما بلغه قصد ذور الدين بلاده، قد سار من أطرافها التي تلي الشام إلى وسطها، خوفا وفزقا، ورسائل ذور الدين يستعطفه وساعده الصلح والصحب عنه، فتوقف ذور الدين عن قصده رجاء ان ينصح الأمر بغير حرب، فأتاه عن الفرنج مالزعمه فاجابه إلى الصلح وكان في مسألة ذور الدين اليه: انتي أريد منك أمورا وقوا، ومما تركز منها فلا استرك شملت اشياء: أحببنا ذاك تجده إسلامك على وسطي حتى يجعل لي أقرارك على البلاد الإسلام، فانتي لا تقصدك مؤمنا، كان قلج ارسلان يتهم بالتفاوض مذهب الفلاسفة، وثاني، إذ طلب عسكرا إلى الغزاة تسربه، فكان قد ملك طرفًا كبيرًا من بلاد الإسلام وترك الروم وجهادهم وفاقتهم.

فاما أن تنجدني بعسكر لاقاتل بهم الفرنج وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوعيز في جهادهم ولأن تزوج إبانتك بسيف الدين غازي ودافي، وذكر أمورا غريبا، فلما سمع قلج ارسلان الرسالة قال: مساقيد ذور الدين إلا الشام وعلي بالزنقة، وقد أجبته إلى ماطلبنا هنا أجل إسلامي على يد رسوله، واستقر ذور الدين، فثبت العسكر بها إلى أن ساء نور الدين، فرحل العسكر عنها وعهد قلج ارسلان وملكها.
ذكر وفاة الملك العادل دوم الدين بن عماد الدين
زنكي

وفي الملك العادل دوم الدين محمود بن زنكي بن أسس دمر
بدمشق. يوم الأربعاء حادي عشر شوال من سنة تسع وستين
وخمسمائة، بعث الخوانيق، ودفع بقيعة دمشق، ثم نقل عنها إلى
المدرسة التي انشئها بدمشق عند سوق الخواصين.

وكان قد شرع يتجه للمسير إلى مصر لأخذه من صلاح
الدين، فانه رأى منه فتورا في غزو الفرنج من ناحيته، فأرسل إلى
الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها في الشام
تمنعه من الفرنج، ليسير هو بمساره إلى مصر وكان المانع لصلاح
الدين من الغزو خوف دوم الدين، فانه كان يعتقد أن دوم الدين متي
زال الفرنج من طريقه اخذ البلاد منه، فكان يحتفظ به على
ولاية مر، استنفسلهم، وكان دوم الدين لا يريد إلا الجد في غزوه،
بجهده وطاقته، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو وعلم
غرنه تجهر للمسير إليه، فأتاه أمر الله الذي لا يرد.

حكى لي طبيب دمشق يعرف بالرحيه - وهو من حداد
الأطباء - قال: استدعاني دوم الدين في مرله الذي توفي فيه من
غيره من الأطباء، فدخلنا عليه - وهو في بيت صغير بقلعة
دمشق - وقد تمكت الخوانيق منه وقابر الهاك فلا يكاد يسمع
صوته، فكان يخلو فيه للعبد في أكثر أوقاته فAna بدأ به المرض فيه
فلم يندل عليه، فلم يدخلنا إليه ورأينا ماه، وقلت له: كان ينبغي
أن نقل عن هذا الموضع إلى مكان فسيع فيه أثر في هذه
المرض، وشرعنا في علاجه فلم ننجع فيه الدواء وعظم الداء، ومات
عن قريب رضي الله عنه.

وكان أسمر، طويل القامة، ليس له لحيه إلا في جنده، وكان
واسع الجبهة، حسن الصورة حلو العينين.
فالله تعالى لا يدفن إلا في سبيل الحق والعدل، وله صلى الله عليه وسلم خليفة واحد، ولقد كان عليه الصالح اسمًا، فما هو إلا أتباعه

في ذكر ولاية ابنه الصالح اسماعيل رضي الله عنه

لم توفي نور الدين جاسم ابنه الملك الصالح اسماعيل في المك
 ولم يتبع الحلم، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق واقام
 بها، وأطاع الناس في سائر البلاد الشام، وصلاح الدين
 بمصر، وخطب له بها، وضرب السكة باسمه فيها، وتولى تربيته
 الأمير اسماعيل محمد بن المقدم.

وحكى لي البقية قتل الكمال، قال: لما توفي نور الدين قال
 صاحبه كمال الدين محمد الشهري (محمد الشهري) بالأمراء ومنهم شمس
 الدين بن المقدم، وحاسم الدين الحسين بن عيسى الجرahi وغيرهما
 من أكراب الأمراء، فقد علمتم أن صلاح الدين من مملوك نور الدين
 ونوابه، والصلاة نشأوه فيما ذفعه، ولانخرجه من بيننا
 فيخرج عن طاعة الملك الصالح، ويجعل ذلك حجة علينا، وهو القوي
 منا لأن له مقتل مصر، وربما أخجلنا وتوالى هـ خدمة الملك
 الصالح، فلم يوافق اغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح
 الدين ويخرجون، قال: فلما يمضى غير قليل حتى وصلت كتب
 صلاح الدين إلى الملك الصالح بهذه البالغة وعيزيه بأبيه، وارسل
 تنائي مصرية عليها اسمه، وعرفه أن الخلافة له والطاعة كما
 كانت لوالده، فلما سار سيف الدين غازي ابن عمه قطب الدين
ذلك، لم يرسل من مع الملك الصالح من الأمراء إلى صلاح الدين ولا علّمهم الحال، كتب إلى الملك الصالح يعنبه حيث لم يعلمهم قصد سيف الدين بالله إيه في خدمته ويكفه، وكتب إلى كمال الدين والأمراء يقول: أن الملك العادل، لو علم أن فرخهم من يقوم مقامى أو يشقاوه مثل وقته بي، أسلم الله مصر التي هي أعظم ممالكه ولاياته، ولو لم يجعل عليه الموت، لم يهدى إلى أحمد بن سعد بن علي بن منصور بن عبد الملك بن عبد الله القاسم بخدمته سواعي، واراكيم قد تفتدتم بخدمة مولاي دومني، وسوف نصل إلى خدمته، وتقلي اعفام واهل بخدمة يظهر آثارها، وأقبل كلا منكم على سوء صنيعه وأهمال أمر الملك الصالح وصالحه حتى أخذه بلاده، فقال لهم كمال الدين: هذا الذي كنت حذرتكم، فأقام الملك بدمشق ومعه جماعة من الأمراء ولم يسكنوا من المسير إلى حلب، بل إلبهم عليه شمس الدين علي بن الدابة، فإنَّه كان أكثر الأمراء النورية، وإنما تأخر عن خدمته الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لرض له، وكان هو وأخوه بحلب، وأمرها بهم، وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعدة، ولا عجز عن الحركة، أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب لمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه، وأرسل إلى كمال الدين والأمراء يقول لهم: إن سيف الدين قد ملك إلى الفرات، ولكن لم ترسلوا الملك الصالح إلى حلب، حتى يستجمع العساكر ويسنذب ما خذله، وبالإسراع إلى حلب، ولانقمع على منه، فلم يرسلوا ولم يكونوا من قصد حلب، فكان من سيف الدين في تلك البلاد السريقة مانذكره أن شاء الله تعالى.

في ذكره بعض سيرة الملك العادل نور الدين محمود
رضي الله عنه

قد طالت توالى الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه اليومنا هذا، فلم أر فيها بعد الخلافة الراشدين وعمر بن عبد العزيز، ملكاً...
أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحريداً للعدل والانصاف منه، قد قصر له ونهاره على عدل يدشره، وجهاد يتجه له، ومظالمه يزيلها، وعذابه يقدوه به، وحسن رؤيته، وانعام يسبيه، وقد تقدم من أحواله في مملكته ما يستدله به على مازكرنا، ونحن نذكر هنالك ما عالم به محله في أمر دنياه، وأخره، فلما كان في أمة لاقتشرت به، فكيف في بيت واحد.

فأما زهده وعبادته فإنه كان مع سعة ملكه وكثرة نخبته بلاده، وأموالها، لا يأكل ولا يلبس ولا ينصرف فيما يخصه، إلا من ذلك كان له قد اشتراء من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لصالح المسلمين، أحضر الفقهاء واستفتأهم في أخذ مايحجه له من ذلك، فأخذ ما أفوته بحلا ولم يتعده إلى غيره البشة، ولم يلبس قط ماحره الشرع من حريت أو ذهب أو فضفة، ونعيم من تخب خطر وبيدها في جميع بلاده، ومن ادخالها الى بلد ما، وكان يحب شاربها الحد الشرعي، وكل الناس عنه فيه سواء.

حدثنا صديق لنا بدمشق كان ضرعب الخاتون ابنة معين الدين، انر زوجة نور الدين وزورها، قال: كان نور الدين انا جاء اليه بجلس في المكان المختص به، وتقوم في حدهما لانتزاعه إلا أن يانى له في أخذ ثيابه عنه، ثم تعتزم عليه إلى المكان الذي يختص بها، وينفرد هو تارة يطالع رقائق الأشياء، أو مطاعمة كتاب آتاه ويجيب عنه وكان يبقي فيطل الصلاة، وله وعود في النهار فإنه جاء الليل وصلى العشاء نام، ثم استيقظ نصف الليل ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء إلى بكرة، ثم يظهر للركوب ويشتغل بهما وكانت الدولة قال: إنها قالت عليها الذفقة، ولم يكفيها ما كان قد قرره لها فارسلت إليه اطلب منه زيادة ووظيفته فلم يستق لها تذكر واحمر وجهه، ثم قال: من اين أعتيدها، أما يكفيها مالها؟ والله لا أخشى نار جهنم في هؤلاء، إن كنت تظن أن الذي بدي من الأموال هل في نفس الظنى، إنما هي أمر أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم، ومعنى لفتقوا أن كان مكن عدو
الإسلام، وانا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ثم قال: لي بمدينة حمص ثمان وخمسين ملاسا قد وهبته إياها فلتأخذهما، قال: وكان يحصل منها قدر قليل.

وكان رحمه الله لايفعل فعله إلا بنيه حسنة، كان رجل بالجزيرة من الصالحين كثير العبادة والورع، صديق الأنصاطع عن الناس، وكان نور الدين يكتبه ويرجع إلى قبوله ويعتقد فيه حسنًا، فبلغه أن نور الدين يبمنع اللعب بالكرة، فكتب إليه يقول به: ما كنت أظن أنك تلحو وتلعب وتعذب الخيل أغير فلائحة بنيه، فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول له: والله مأموني على اللعب بالكرة، الله والبطرس، وناحن في نور والعدو قريب منا، ونحن نحن جواس ما يقع الصووت فنترك في الطب، ولن كننا أيضا ملامة الجهاد نيل ونهارا، شتاته وصيفا، إذ لاب من الراحة للجند، وتبتركنا الخيل على مرابطها صارت جماعة لاقدرة لها على إدمان السير في الطب، ولمعرفة لها أيضا سرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة، فنحن نركبها ونروح بها اللعب، فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكمها في الحرب، فهذا والله هو الذي يبعثي على اللعب بالكرة.

فانظر إلى هذا الملك المعدوم التظاهر، الذي يقل في أصحاب الزوايا المتقطعين إلى العبادة مثله، فإن من يجاه إلى اللعب ويفعله بنيه صاحبة، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر الأقربات، يقل في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لايفعل شئ من آنية صاحبة، وهي افعال العلماء الصالحين العاملين.

وحتى لي عنه، أنه حموله من مصر عماة من القصبة الرفيع منفجة فلم يحضرها عنه، فوصفته له فلم يلتفت إليها، وبينما هم معه في حديثها، وإذا قال جاء رجل صوفي فأمر بها له، فقال: إنه لاتصل لهذا الرجل، ولو أعطى غيره لكان آتى.
له، فقال: أعطوها له، فأتي الراجلون عوض عنها في الآخرى، فسلمت إليه، فسار بها إلى بغداد فقبحها بعستمائه دينار
اميري أو سبعمائة دينار، فان اشك أنها كانت تساوي أكثر.

وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن الشهيد رحمه الله
تعالى - وكان خصيصا لخدمته قد صحبه من الصبا وألاس به ولم
معه أنسابًا - قال: كنت معه يومًا في اليدان بالرها نسـير
والشمس في ظهورنا، فكنا نرتدي ظننًا، فاما عندنا صار
ظلمنا وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يبتعد ورائه، فقال
لي: انا نجي لا شيء أجري فرسي والتفت ورائي؟ قلت: لا
قال: قد شاهد منحن في بادئنا، تهرب ممن طلب وتهرب من
هرب منها، وكان رحمه الله يصلى كثيرا من الليل، ويدعو
ويستغفر ويقرأ، ولايزال كذلك إلى أن يركب.

جمع الشجاعة والخشوع لريه
مالحسن المحراب في المحراب

وكان عارفة بالفقه على منهاب الإمام أبي حنيفة، وليس عنه
تعصب بل الانصاف سجته في كل شيء، وسمع الحديث وأسمعه
طلبا للأجر، وعلى الحقيقة فهو الذي جدد الملوك اتباع سنة
العدل، والانصاف، وترك الحرمات من المال وتشريعه وملابس
غير ذلك، فانهم كانوا عليه كالعاليل، همة أحدهم بـطنه
وبرجه، لا يعرف معروفا ولايذكر منكرًا، حتى جاء الله بدولة
فوقع مـع أواصر الشرع ونواهيه، والزمـه ذلك اتباعه
وذريه، فاقتدي به غيره منهم، واستخفوا أن يظهر عنهم ما كانوا
يفعلونه، ومن سنن حسنة كان له أجرها من عمل بها إلى
يوم القيامة، فإن قال قائل: كيف يوصف بالهذا من له المساك
المفسيحة وتجبي إليه الأمور الكثيرة؟ فيذكرني الله سبحانه بـ
داود عليه السلام مع ملكه، وهو سيد الراحلين في زمانه، ونبيًا
محمد صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت، وليـمـن

- ۳۱۳ -
وأما عدله
فالله كان من أحسن الملك سيرة، وأعد لهم حكما، فمّن عده
أنه لم يترك في بلاد من بلاده ضريبة لامكاس ولا اعضاً، بل اطلقها
جميعها في بلاد الشام، والجزيرة جميعها والموصل وأعمالها وديار
مصر وغيرها مما حكم عليه، وكان الملك في مصر يختذ من كل
مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً، فطاقمه، وحذا لم تستع له
نفس غيره، وكان يجري العدل، وينصف المظلم من الظلم كاثننا
من كان، القوي والضعيف عندما في الحق سواء، فكان يسمع
شكوى المظلم، ويتولى كشف حالتاه بنفسه، ولا يكل ذلك إلى
حاجب ولا أمير فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها.

ومم عدله
فكان يعصب الشريعة المظفرة، ويقف عند
احكامها، ويقول: نحن شحن لها نمضي وامرأها فمّن اتباعه
احكامهاأن كان يرمى يلعب بالكعبة بدمشق، فرأى إنسان يحدث
آخر ويوميء بيده عليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فقال: لي
مع الملك العادل خصومة وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس
الحكم يحاكمني على الملك الفلاني، فعاد إليه ولم يتغاضى يعرفه
ما قال ذلك الرجل وغالبه، فلم يقبل منه غير الحكمة، فذكر له
 قوله، فألقت الجوكان من يده، وخرج من الميدان وسار إلى القاضي
يقول: إنني قد جئت محاكمًا، فآسياك معني مبتسماً مببع
560 -

غيري، فلم حضر ساوي بينه وبين خصمه وحاكمه، فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين، فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولن حضر: هل ثبت له عندي حق؟ فقالوا: لا فقال: اشهدوا أنني قد وثبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه، وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندى وإنما حضرت معه لولا يظن أنني ظالمت، فلم يظهر أن الحق لي وهبته وهذا غاية العدل والانصاف بل غاية الأحسان وهي درجة وراء العدل، فرحمل الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقذة إلى الحق، والواقفة معه.

قال صاحب التاريخ: ومن عده قدس روحه ونور ضريحه من نور فسحه، إنه لم يكن يعاقب العقوبة التي جرت بها عادة الملوك في هذه الأعصار على الظنة والتهمة، بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه البيئة الشرعية، عاقب العقوبة الشرعية من غير تعدي، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ضيوف في غير ولايته مع شدة السياسة والبالغة في العقوبة والأخذ بالظاهرة وإمتز بلاده مع سعتها، وقد أنفسدون ببركة العدل وأتیباع الشرع المظهر.

وحتى لي من أثوق به، إنه فخور يوما إلى خزانة المال، فرأى فيها مالاً انكره، فسأل عنه فقال: إن القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كنا، فقال إن هذا المال ليس لنا ولا يثبت المال في هذه الجهة شيء، وأمر بإعادته إلى كمال الدين ليرد إلى صاحبه، فأرسل موثوق الخزانة إلى كمال الدين فرد إليه خزانة مرة أخرى، وقال: إذا سال المال المعدل عنه، فقولوا له عني، انه له، فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى، فراه، فذكر على النوايب، وقال: لم أكن لكم يعاد هذا المال على أصحابه، فذكرنا له قول كمال الدين فرده إليه، وقال للرسول: قس لكم المال الذي: انت تقدر عليه حمل هذا المال، وإنا انفرقت دقيقًا لاطيوق حمله والخاصة عليه بين يدي الله تعالى، يعاد قولاً واحدًا فاعاده.

- 315 -
وكان إذا حضر الحروب، أخذ قلبه وسين وتركه بنفسه، وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها، سمعه يوما الإمام قطب الدين الأنسابوري - الفقه الشافعي - وهو يقول ذلك، فقال له: يا رجل لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم، وإن أصيبت والعيان بالله في معركته، لا يبقى من المسلمين أحد إلا وحده الصادق، وانتزع البلاد، فقال له: يا قطب الدين، فمن ممدوح حتى يقال له هذا، قبلي من حفظ البلاد والإسلام، ذلك الله الذي لا إله إلا هو.

وكان رحمه الله يكنز أعمال الخيل والمكر والخداع مع الفرنج خذلهم الله تعالى، وأكثر مالموك من بلادهم به، ومن جيد الرأي ماسبك مع مليم بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروبي، فانطلق يخذه ويستميده حتى جعله في خدمته سفرا وحضا، وكان يقاتل به الفرنج، وكان يقول: إنما حماني على استمالته، إن بلاده حسيمة وعمر المساق، وقلاعه متبنعة، وليس لنا إلىه طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام، فان له طلب أن يخرج فيها فلا يقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بدلت له شيئا من الاقتراح على سبيل القدام حتى أعمل إلى طعامتنا وخدمتنا، وساعتنا على الفرنج وحين تكون في دور الدين وسلاسل من بعد غير هذا الطريق، ماك المولى الأرمن بعد مليم كثير من بلاد المسلمين وحصنهم، قصار منه ضرر عظيم وخطر واسع لا يمكن رفعه.

ومن أحسن الأراء ماكان يفعله مع أجنهده، فإنه كان إذا توفي أحسنهم وخلف ولداً، أخبر الاقطاع عليه، فكان والد كبيراً استبد بنفسه، وإن كان صغيراً رتب معه رجل عاقل يشق إليه فيتوالى أمره إلى أن يكبر، فكان الأجداد يقولون، هذه أمكنا بيرتها للواد عن الواد فنحن نقتاتل عنه، وكان ذلك سببًا عظيمًا، من الأسباب الموحدة للصرح في المشاهد والحروب، وكان
- ٦٥٧٢ -

أيضاً يثبط استضافة إجتاحت كل أمير في دياره، وصلاةهم ودراهم، خوفاً من أن حرص بعض الأمراء وشجعهم يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العهد، وقولهم: نحن كل وقت بصيد الدفع، فإذا لم يكن اجتاحت كافة الأمراء كاملي العدد والعد، دخل الوهن على الإسلام، واقت صدوع رفع الخلاق عينه فيما قال، وأصاب فيما فعل فلقد رأينا ما خافه عياناً.

وأما مافعله من المصالح

 الذي فعله من المصالح في بلاد الإسلام مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين أكثر عظيم، ونحن نذكر طرفه منه، فمن ذلك أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها، فمنها: حلب، حماة، وحمص، ودمشق، عربين، وشیر، ومذبج وغيرها من القلاع والحصون وحصنها، وأحكم بناءها، وخرج عليها من الأموال مالاً تسعد به النفوس.

وبني أيضاً المدارس بحلب، وحمامة، ودمشق، وغيرها

لإشارتها والحمدية.

وبني الجوامع في جميع البلاد، فجامعه في الوصول إليه النهاية في الحسن والتقان، ومن الحسن مائع فيه، إنه فوض أمر عمارته والخروج عليه إلى الشيخ عمر الملا رحمه الله - وهو رجل من الصالحين - قبل له: إن هذا لايميل لثل هذا المصالح، وقال: إذا وليت العمل بعض أصحابي مسنين، وقد نادى الكتاباً أبشع أن يظلم في بعض الأوقات، ولا يفي الجامع بظلم رجل مسلم، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لايميل، فإذا ظل كأن الشيء عليه لعلي، وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم، وبنى أيضاً بمدينة حماة جامعاً على نهر العاصي من الحسن الجوامع وأنزهها، وجد في غيرها من عمارة الجوامع ماكان قد تقدم إما برزالة أو بغيرها.

- ٣١٧ -
فصول في ذكر بناته دار العدل

رحمه الله وأسكنه فسيح جناته

كان الملك العادل دوز الدين رضي الله عنه، أول من بنى دار
الملعب. اكتشف الملاحين وسماها دار العدل، وكان
مكة دمشق وأقام بها أمراءه وفيهم أسد الدين شيركوه - وهو
أكبر أمراءه، وقد عشق شاهده وعاد مكانه حتى كان شيركوه في
المملك - واقتنيا الأملاء فأكثرنا، وعند كل واحد منهم على
يافوه في قريةٍ شبهها، فدَكَّرت الشَّكرى إلى كمَال
الدين، فإنczną بعضهم عن بعض، ولم يقم على الانصاف من
أسب الدين شيركوه، فانهى الحال إلى دوز الدين، فأمر حينئذ
بناء دار العدل، فلما سمع أسد الدين ذلك، أحضر نوابه
جميعهم، وقال لهم: أعلموا أن دوز الدين ملائمة بناء هذه الدار إلا
بسبي microseconds، ولا فنون هؤلاء الذين يمنعون على كمال الدين، والله لست حضرت إلى دار العدل بسبب أحادكم لأصليبه، فاضموا إلى كل من بينكم وبينه منافعة فافحلوا الحال معه، وأرضوه بأي شيء أمكن، ولو أتى ذلك على جميع ما بدي، فقالوا له: أن الناس إذا علموا هذا اشتدوا فيطلب فقال: خروج املاكك على يدي أسهل عندي من أن يرايني نور الدين بيني أي ظالم، أو يساوي بيني وبين أحد العامة في الحكومة.

فخرج أصحابه من عنه وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم واشهدوا عليهم، فأما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات، وكان يجلس في الأسبوع يومين وستة القياسي والفقهاء، فبقي كذلك منه، فلم يحضر عنه أحد يشكو من أحد الدين، فقال لجمال الدين: مارى احده يشكو من شيركه، فعرفه الحال، فسرج أمحر الله تعالى وقال: الحمد لله إذ أصحابنا بنصون من انفسهم قبل حضورهم عندها، فنظر إلى هذه العمدلة ماحسنها، وألى هذه الهيئة ماعظمها، وإلى هذه السياسة ماشدها، هذا مع أنه كان لايبلق دما، ولا يبلغ في عقوبته، وإنما كان يفعل هذا صدقة في عده وحسن نيته.

وأما شجاعته وحسن رآبه فقد كانت النهاية إليه فيما، فإنه كان أصير الناس في الحرب واحسنهم مكينة ورأيا، وأجودهم معرفة بأمور الأخذ وأحوالهم، وبه كان يضرب الذئب في ذلك سمع جمعا كثيرا من الناس لأحصيهم يقولون أنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه، كانه خلق لا يتحرك ولا ينزلل.

وكان من أحسن الناس لعبا بالكرة وأقدره عليهم، لم ير جوكانه يعاف على رأسه، وكان ربما ضرب الكرة ففعلوا، فيجري الفرس ويتناوله بهده، بيده ملهمه الهواء ويرميها إلى آخر الميدان، وكانت يده لاترى والجود كان فيها، بل تكون في كم قبائه استفادة بالذبح.
وبني البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج، بلغني أنه لم يجعله وقفا على الأفراء حسب. بل على كافة المسلمين من غني وفقير، ولقد جرى لي مع طبيب منه بالذكر، وذلك أنني قدر في مسيرة بيت المقدس، بعد أن فتحه المسلمون، ورضا، فسالت عن طبيب فدانيوني على مغربي فانيه ووصفته له مرضي، فوصف لي وصفة في يرضني قوله، فعندما وردت القول فانكري، ومثى فانفنت، وحى وضاقت الدنيا في عيني، وعزمت على أن لأعدهي دفني الا ما بانتهت إليه معرفتي، واشترى مرضي ما نالني من الغيف، فلما كان الغيف قوي وحضره على قصد طبيب يعاجلني، فركبت ودخلت البلد وسالت عن طبيب، ففجأ على طبيب هذا البيمارستان، فانيه فيه وهو يكتب نسخة للمريض النين به، فلما رأني قد قادره، اقترب على بوجه مبسط سايني، عن سايني فوصفت له، فكتبت لي نسخة، وقال لي: يجماところで ميامي في هذيه النسخة، فقال: لاحظتي بي إلى ذلك، فقد كنتي الله عن مراجعة الأفراء، فقال: يا مولاي، لا أحسك أنك في غنى عن هذا، ولكن لا إنسان أحد من صديق ذهور الدين وانعمامه، والله إن أولاد الرشيد صلاح الدين واهل من الأثرياء من هذه البيمارستان، فقال: أنا لا أرى ذلك، فقال: أنه وقفت على كافة المسلمين غنيهم، وفقيرهم، فوجدت في نفسي بكماله ابتسامة، فحچانني. كثي له حچانني ذلك الطبيب، فقال: يا مولاي، مغربي وقد أقام بالشام لا يكون إلا هكذا، وأنا أنا فما هو حال في مسجد الناس رمضان عندهم ولبلادهم، فإني سافرت إلى الموصل والعراق، فشكرته وعدت عنه، رضي الله عنه.

وبني أيضا الخانات في الطرك، فأنتم الناس وحفظت أموالهم، وباتوا في الانتهاء في كن من البرد والمطر.

وبني أيضا الأبراج على الطرك، وبين بلاد المسلمين.
والفرنج، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهواوي، فانما رأوا من العدو أحدًا رسموا الطيور، فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لأنفسهم، فلم يبلغ العدو منهم غرضا، وكان هذى من الطف الفكر وأكثرها ذفا، رحمة الله تعالى.

وبنى أيضا الربط والخانقاهات في جميع البلاد الصوفية، ووقف عليها الوقف الكثيرة، وأدر عليه باروات الصالحة، وكان يحضر عده مشايخهم ويقرهم وينبئهم ويستطمهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له من تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجسسه معه على سجادية ويقبل عليه بحديثه، وكذا أيضا كان يفعل بالعلماء، من التظنيم والتدوير والإحترام وجمعهم عليه للبحث والنظر، فقصدوه من البلاد الشامسة، من خراسان وغيرها، وسجيله فكان أهبل الدين عنه في أعلى المنازل وأعظمها، فكان أمره يحسونهم على ذلك، وكانوا يوقعون فيهم عنه فينهاهم، وإذا تلقوا عن أسان بعبا يقتوب: ومن المعصوم، وانها الكامل من تعد نذبه.

بلغني ان بعض الأكابر من الأمراء حسد قطب الدين النسائي، الفقيه الشافعي - وكان قد استقدمه من خراسان يبالغ في ظنيره والاحسان إليه - فحسب ذلك الأمير فقال منه بوضوح عند ذكره: يا هذا إن صح ماتقول فله حسنا تغفر كل ذنوبه تذكرها، فهي الذمت والدين، وما اثبت وأصباح، ففيكم أضعاف مذكرت، ولا يست كم حسنة تغفرها، ولا عقلت لشفكل عبك من غيرك، وإن احتفل مساءتك مسع عدد حسناتكم، إنها احتفل سهيلة هذا - إن صح - مع وجود حسنئه، على أني والله لا أصدق فيما تقول: وإن عدت ذكريته، أو غيره بسبوء لا أنيك، فكيف عنه، هذا والله هو الأحسان والفاعل الذي يكتب على العيون بباء الذهب.

وبنى بدمشق أيضا دارا للحديث، ووقف عليها وعلى من بها.
من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة، وهم أول من بني داراً للحدث فيما علمناه.

وبني أيضاً في كثير من بلاده مكاتب للايتمام، واجرى عليهم وعلى معلميهم الجوازات الواطئة. وبنى أيضاً مساجد كثيرة، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن، ووقف على اليمام الذين يتقرون بها القرآن، وهذا فعل لم يسبق إليه.

بلغني من عارف بأعمال الشام، أن وقوع نور الدين في وقتنا هذا وهو سنة ثمان وستمائة - كان شهر تسبعة آلاف دينار صوري - ليس فيه ملك غير صحيح شرعي ظاهراً وباطناً، فإنه وقف مانتقل إليه وورث ثنيه أو من ماغب عليه من بلاد الفرنس وصار سهمه.

فصل في ذكر وقاره وهيبته
قدس الله روحه وذور ضريحه

فإنها النهاية فيها، فقد كان كما قول: شديد في غير عذف رقيق في غير ضعف، واجتمع له مالم يجتمع لغيره. فإنه ضبط ناموس الملك حتى مع اجناه وأصحابه إلى غاية لمزيد عليها، كان يلزمهم بوظائف الخدمة، الصغير منهم والكبير، ولم يجلس عنه أمير من غير أن يأمره بالجلوس، إلا نجم الدين أيوب والصداح الدين يوسف، وأما من عاد كأس الدين شيركوه، ومجد الدين بين الدابة وغيرهما، فانهم كانوا إذا حضروا عنه يقفون قياماً إلى أن يأمرهم بالعود، وكان هذا العشيرة الوطن القائم، فإذا دخل عليهم الفقير أو الصوفي فالفقير يقـوم له ويمشي إلى بين يديه، وجلسه إلى جانب، ويقبل عليه بمثابة كأنه أقر بأمر الناس إليه، وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً، يقول: إن هؤلاء لهم بيت المال حقاً، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم النية عليه.
وانا حفظه أصول النيات
فإنه رحمه الله تعالى كان مراعيا لها، لايخولها ولايملك أحد من الناس من أظهار مايخالف الحق، ومتى أقم مقدم على ذلك أدب يما يناسب بدلته، وكان يبلاغ في ذلك. وقول: نحن نحفظ الطرق من لص وقطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، فلا نحفظ الله ونمنع عنه ماينقضه، وهو الأصل.

حكى لي ان أنسانا كان بدمشق يعرف بيوسف بن أدم، كان
فصل من كلام عماد الدين الكاتب فيه
رحمة الله تعالى

قال العماد محمد بن حامد الكاتب - وقد ذكر نور الدين في بعض مصنفاته - فقال: كان ملك بلاد الشام والقائس، والذي بيده ممالكها، الملك العادل نور الدين أفع الملوك واتفقهم، واثقلهم رأياً وانتقاه، وأعدهم واعدهم، وأظهرهم، وأظهرهم واظهرهم، وأصالحهم عملاً، وانصحهم أملًا، وارتجحهم رياً، وأضحهم إياً، واصدقهم قولًا، واصدقهم طولاً، وكان عصره فاضلاً، ونصره واصلاً، وحكمه عادلاً، وفضلله شاملاً، وزمانه طيبًا، واحسانه صيبة، والقلوب بحمايتها ومحبتها ممتلئة، والنفوس ببغافته وعارفته متميلة، ولمصرحه مقتطبة، وأومره منتهلاً، ووجه منه عن الهزل، ونواهيه في من من العزل، ودويلته مامولة، ووضعته مصونة، والسياسة كاملة، والحياة شاملة، والزادة زائدة، والعشبة مساعد، والعيشة ناضرة، والاشتيعاة ناصرة، والانصاف مصاف، والاستعاف عاف، وزاد الدين قولًا، وظما الإسلام روي، وزنجد النجاح وري، والشرع مصوب، والحكم مسعود، والعدل مولي، والظلم مزعول، والترعادي منصور والشرك مخول للتقى، وصار الفسوق سوق، وهو الذي أعاد رونق الإسلام إلى بلاد الشام، وقد غلب الكفر،_rule 1718
 вашего دموعها، ونشاع يها شعار للشرع في جميع الحز والعقل، والإبرام والنقض، والبسط والقبض، والوضع والرفع، وكانت للفينيق في أيام خيره على بلدان الشام قطاعات فضائلها، وعهد رضيعومها ومنها، ونصره الله عليهم بمرارا حتى أمر ملوكهم، وغد سلوكهم، وصان التغور عنهم، وحماءهم عنهم، وأحيا معالم العلوم الدوامات، وبني الأئمة الدوامات، وأنشأ الخاناقات الصوفية بكثيرها في كل بلد وكثيرا وقادةها ووفرة معرفها، وأبدى الواقفين من جناب جنابة طوفها، وأجد الأسود والخناصق، وأندى المرافقة، وحده الحقائق، وأمر في الطرقات ببناء الربط والخانات، فضفت ضيوف الفضائل والفاضت في فوض القواص، وهو الذي فتح مصر وأعمالها، وأنشأ دولتها ورجالها (١٢٠٠) 

ولو ذكرت ما قال العلماء فيه لكان مقالات، ولكن الأختصار اليق ما نحن فيه السلام.

في ذكر استيلاء أتراك سيف الدين غازي على البلاد الجزائرية بعد وفاة نور الدين

كان نور الدين قبل أن يمرض قد أرسل إلى البلاد الشرقية كالواصل وغيرها يستدعى العساكر منها، فسار سيف الدين غازي ابن أتاك قطب الدين صاحب المعلم في مسماه، فلما كان يعيش الطريق، أتاه الخبر بموت عم الملك العادل نور الدين، فعاد إلى نصيبين فماكها، ورسل الشهيد إلى بلد الخادم فاستولوا عليه، وسار هو إلى حران فاخرها عدة أيام، وكان بهما منك نور الدين في فلاتها اسمه قايم الزرامي، فاستمع فيها، ثم اطلع على أن تكون حران له، ونزل إلى خدمة سيف الدين فقبض عليه وأخذ حران منه، وسار إلى الرها فحضرها وماكها، ورسل إلى
مدينة الرقة فملكها، وكذلك سروج، واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر.

وكان بمدينة حلب وقلعتها الأمير شمس الدين على بانة الديوان وهو من أكبر الأمراء النورية وهو مريض فلم يملك منه سيف الدين عن البلاد، فأرسل إلى دمشق يطلب أن يرسل إلى الملك الصالح في السماكن التي معه فيما عين سيف الدين عن البلاد، فلم يفعل شمس الدين بن المقدم وكان هو المربي للملك الصالح والقائم به كثر فرشته فأخذته وأراد التelage ويسير معه إلى دمشق ويزلوا ابن المقدم عما يتدلهم.

فمكن حينئذ، سيف الدين من ملكها، فلما استقام له ملك البلاد الجزيرية، قال له فخر الدين عبد المميس، وكان قد أشار سيف الدين بعد وفاة نور الدين، وقصد سيف الدين من أنه سيأتي الدين يرمي في داره ح(tx) قيامه في آخر المركب له من والده قطب الدين على مازكرته، وأوضح، فلم يقبل ثميرة مساغرس، وكان عنده كبعض الأمراء، فقال له: ليس بالشام من يمنعك، فأطراف الدنيا، ولما أدركته، أدركه عز الدين محمود المروف بربطفة، فلم يعلام أن تعود، فرجع إلى قفوله بعد إلى الموصل (البقيعلا، الله أرما مفولا) (١٠١) (وكان ذلك في الكتب مسطورة) (١٢٢).

وأما أحوال من الشام، فنار نور الدين كان قد قلد جعله بقلعة الموصل لما ملكها نزارا لها وهو مسعود الدين كمشتكيين - بعض خدمه الخصمان - فلما سار سيف الدين إلى الشام كان في مقدمته على مرحلة، فلم آتاه خبر وفاة نور الدين هرب، وأرسل سيف الدين في اثرة فلم يدرك، فلموه ببيركه ووافقه وسار إلى حلب، فتمسك بخدمة شمس الدين بن الديوان، واختوته، واستقر بينهم وبيته ان يسر إلى دمشق ويعثر الملك الصالح، فمسار
اليا، فأخرج إليه ابن المقدم عسكراً فنهبىوه فعاد منهزما إلى حلب، فأخلف عليه شمس الدين بن النادى مأخذ وجهه وسيره إلى دمشق، وعلى نفسها تجني براقش، فلم وصلها سعد الدين دخلها، واجتمع بالملك الصالح والأمراء واعملهم في مسير الملك الصالح إلى حلب عن المسالك. فاجابوا على تسريره فسألاء اليها، فلم وصلة وصدأ إلى قلعتها، قبض سعد الدين على شمس الدين بن النادى وأخوهه، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب والذي يتبعه من أحداثها ولولا مرثب شمس الدين لم يتمكن منه، ولاجري من ذلك الخلاف والوهن شيء (وكان أمير الله قدراً مقدوراً ) (١٣٢)

واستبدل سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين يدمج، وكتبوا لصف الدين ليسلموا إليه دمشق فلم يفعل، وخفف ان تكون مكيدة عليه ليعبّر الغزوة ويسيرو إلى دمشق فقمع عنها، ويقصده ابن عمه من وراء ظهره ولا يمكنه النجاة، فرسل الملك الصالح وصالحه على أقراض وساعده ببيده، وقم الملك الصالح بحرب وساعده الدين بين يديه يدبّر أمره، وتمكن منه تمكنا عظيما يكاد يقارب الحجر عليه.

في ذكر وصول صلاح الدين يوسف بن أيوب

الى دمشق دار العشاق وتمالكه من يد ولد مولاه

لم تخاف من بدمج من الأمراء أن يقصدهم سعد الدين، فقال الملك الصالح فيعاملهم بما عامل به بني النادى، راسلوا أبيا الدين لساعدهما إليه فلم يقبلهم، فحملهم الخوف على أن يرسلوا صالح الدين يوسف بن أيوب بعمر، وكان كبيره من ذلك شمس الدين محمد بن المقدم - ومن أشبه أباه فما ظلم - (١٣٤) فلم أنته الرسول بذلك لم يتوقف، وبادر إلى الإجابة وسار إلى الشام، فإنما
وصل دمشق، سلمها إليه من بعدها، وأصر بها، ولم يقطع خطبة الملاك الصالح وإنما أظهر: أنه إنما جدته لأخمه مولاي وابن مولاي، واستمر له ببلاده التي أخذها ابنه، وجرت أمور قد شهدت فلا حاجة إلى ذكرها، كما قال بعضهم:

فكان ماكان مما قد سمحت به
فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وفي آخر الأمر أصطلح هو وسيف الدين والملك الصالح كل منهم: على ماربه بعد حروب ومعادن، قاد أثنا على ذكر ذلك في المستقص في التاريخ.

ذكره ولاية مجاهم الدين قلعة الموصل ووزارة جلال الدين أبي الحسن علي

وفي ربيع الآخر من سنة إحدى وسبعين وخمسة، استورد أتابك سيف الدين، جلال الدين أبي الحسن علي بن جمال الدين رحمه الله تعالى، وهو من ولايته، وفوض إليه أمور دولته، فظهرت منه كفاية لم يظنه الناس، وبدا منه معرفة بقواعد الدول، وأضاع الدواوين، وتقرر الأمور، واطلاع على دقائق الحسابات، والعلم بصناعة الكسابة الحساسية حيث العقول، ووضع الناس في كتابة الادعاء وضعاً لم يعرفوه، وشرع لهم منها شرعاً استحسنوه، وبذل بنلا استعظاموه، وكان عمره حين ولي الوزارة خمساً وعشرين سنة، ثم قضى عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين، خمسة، وشغف فيه كمال الدين بن نيسان، وزير صاحب أحمد، وكان قد زوجه ابنته، فأطلق من الحبس وسار إليه فبقي بامد يسريها مريضاً، ثم فارقها، وتو في بدن سبعة ولع

- 328 -
وسبعين وخمسمائة وحمل إلى الموصل وذف بها، ثم حمل منها في موسم الحج إلى المدينة فذف عند والده، وكان أحسن الناس صورة ومعنى، رضي الله عنه.

ثم ان سيف الدين استناد دزبار بقلعة الموصل، الأمير مjahid الدين قايم زاد في نزى الحجة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، ورد إليه أزهرة الأمور في الحلم والعقد، والرفع والخفض، وكان وجهه قبل هذه الولاية مدينة إيرب وإعمالها، ومعه فيها ولد صغير لزين الدين على ولقبه أيضاً زين الدين، وكان الولد أولد زين الدين اسم - لا معنى تحته، ولجاهد الدين صورة ومعنى.

وفي سنة اثنتين وسبعين، شرع مjahid الدين في عمارة جامعه بظاهر الموصل بباب الجسر، وهو من أحسن الجوامع، ثم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارستان وكلها متجاورة.

ذكر عصوان ابن بوزان ووعوده إلى الطاعة

ثم ان الأمير شهاب الدين محمد بن بوزان صاحب شهرور - وهو في طاعة سيف الدين - أظهر التجري على سيف الدين سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وجعل عزره في ترك الحضور في الخدمة بنفسه، الخوف من مjahid الدين لعدة بينهما محكمة القواعد، وقال: إن مjahid الدين هو الآن مصدر الدولة والحاكم فيها، ولا أهله على نفسه، فارسل إليه جلال الدين الوزير رسول عن نفسه وكتب إليه كتابا ليس مثله في معناه، فلما وصل الرسول والكتاب إلى شهاب الدين بادر إلى الخدمة السيفية.
ذكر الاقضي على سعد الدين كمشتكين الأندري

قد ذكرنا حال سعد الدين كمشتكين وأنه استولى على دولة الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل ذر الدين، وحكم عليهما، فلما كان سنة ثلاث وسبعين قبض عليه الملك الصالح وطلب منه أن يسلم له قلعة حارم، وكانت اقطاعه فلم يفعل، فأرسل الملك الصالح إلى مستحفده يأممه بتسليم أنها إلى نافذة فلم يسلمها، فسار الملك الصالح إليها من حارب ومعه سعد الدين فحصر القلعة، وعقاب سعد الدين ليأمر من بها بالتسليم فلم يجب إلى ماطلب منه، فتعلق مذكوسب ودخن تحت أنفسه فمات، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها، ثم إنه أخذها بعد ذلك.

ذكر الغلاء والوباء

وفي سنة أربع وسبعين وخمس مائة، اشتد الغلاء وعم أكثر البلاد: العراق والموصل وديار الجزيرة وديار بكر والشام وغير ذلك من البلاد ودائم إلى أن انقضى أكثر سنة خمس وسبعين وخرج الناس في سائر البلاد يستسقات قلما يسقون قلما يسقون، ثم إن الله تعالى رحم عليه وطف له وعلل عليهم الغيث، وأركض الأسعار، ومن عجب مارأته تلك السنة التي كنت في الجزيرة، وقد قصدت مدرسة بها أسعد على مدرسة شيئاً من حديث النبي صلى الله عليه وسلم، فبينما أنا جالس عند رفيقه في بيته، انتظرت مدرستها، وإذا قد اقبل أنسان تركماني قد أثار عليه الجوع وكان قد اخترق من قبل، فبكي وشكا الجوع، فأرسلت من أشترى له خبزاً فتأخر الحضار عليه، وهو يبكي، ويمرجع على الأرض فتغمب السماوات وجاء تائبลง المطر متفرقة، ومضى الناس، ثم جاء فكل ذلك التركماني وأخذ الباقى معه ومشى، واشتد المطر، ودام من تلك
فصل في ذكر وفاة أمير المؤمنين
المستشار بأمر الله الخليفة العباسي

في سنة خمس وسبعين وخمسمائة، توفي الإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن المستنجذ بالله بن المتقعي لأمر الله بن المستظهر بالله، وقد تقدم بباقي نسبه، وأمه، وولد (ارمنية تدعى غضة) وكانت خلافته (تحت تسع سنوات وسبعة أشهر) (131).

ذكر شيء من سيرته قُدُس الله روحه

وكأن عادلا حسن السيرة، كثير البذل للمال، غير مستضيء في أخذ ماجرت العادة بأخذه، وكان الناس معه في أم ويسكون لبر ونعمة، وكان رحمه الله عليه كريم الأخلاق، كثير العقود، وأبرى المعاقدة بل يعفو ويصفح، وزار له عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء إلى أن قتل اثنين، ثم نزل بما تسع عشان سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وكان قد سار إلى الحج، وتلت حينئذ بغززة عزماً على الحج - فقرر عضد الدين جلالة في شباره، فلما ركب نابيته والناس معه مابين راكب وراجل، تقدم إليه بعض العامة ليدعو له، فمنعه أصحابه فزجرهم وأمرهم أن لا يمنعوا عنه أحد، فتقدم
في صفر من سنة ست وسبعين وخمسين، وخمسين، توفي الملك سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر.

⇒ 6577

 difféنت بالجانب الغربي، وقتل البائدة، وأحرقاً، وحمل من موضعه، إلى دارله، ذكرت هذه الحال في البلاد، طالما أنه أمر بالمنع من بيض الخضر. فأجابهم إلى ذلك، فدخلوا البلاد وقضوا مساكن الخمارين، وخرقوا أراق الخمار، ودخلوا الخمار، وعملوا ما ارتجح فاستغث أصحاب الدور، إلى نواب السلطان، وخرج بالشكوى رجل من الصالحين، يقول له: إنما هذه أراق الخمار، فرازو فعمله؛ ففعل عليه فلما فشل في الفعل، إذما هم منه، فلندا شكا الخمارون منه، أخرج بالскаكهة، وعمله، فسقطت عمامة، فلما أطلق، ارتفع من النجل، نزل مكشوف الرأس، وثردا تغطيته، فلم يفعل، وقال: والله حتى ينقلل الله لي، ومن ذالكت مم، فلما وراء غير قليل حتى توفي الدادر المباشر؛ لأنه لم يعيد مرض سيف الدين ودم رضوته إلى أن توفي، وكان عمرو نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين، وشهرًا.
ذكر صفة سيف الدين وذكر شيء من سيرته

كان رحمه الله من أحسن الناس صورة، تأام القامة، مليح الشمائل، أبيض اللون، مستدير اللحية، متوسط البين بين السمين والدفع، وكان عياقاً، وقوراً، قليل الالتفات إذا رك وانا جامس، عفيفاً، لم يذكر عنه شيء من الأسباب التي تنافي العفة، وكان غيرراً شديد الغيرة، لم يترك واحد من الخدام يدخل دور نساائه إذا كبر، إذا ما دخل عليهم الخدام الصفار، وكان لا يحب سفك الدماء، ولاأخذ الأموال مع شح فيه.

في ذكر مملكة الدولة السعيد

عز الدين بن قطب الدين مودود

لما اشتد المرض بسيف الدين، أراد أن يعهد بإلهامه محأ الدين سنجر شاه فخاف من ذلك، لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقويت شوكته، وامتنع أصوله الوالي السعيد عز الدين من الإذعان والأجبة إلى ذلك، فاشتر الأمراء الأكابر ومجاهد الدين قايمان، بأن يجعل الملك بعده في أخيه، لما هو عليه من كبر السن أولاً والشجاعة والعقل وقوة النفس وحسن سياسة الملك، وأن يعطي ابنه بعض البلاد، ويكون مقررهم إلى الدولة عز الدين والمتولي أمرهما، وجاهد الدين فعل ذلك، واحتلال الناس لأخيه، فلما توفي سيف الدين، كان مjahad الدين هو المدير للدولة والناشئ فيها، ودرجة إلى قوله ورايه، فرك إلى الخدمة العزية وعزاً، وركبه إلى دار المملكة ومشى في ركبه راجلاً، فدخلها وجلس للعزاء، وكانت الرعية تخافه قبل أن يمك لا قادم وجرائه وحدها كانت فيه، وكان لا يلفت إلى أخيه سيف الدين، إذا أراد أمراً، فلما ولي تغيرت اختلافه، فصار رفيقاً بالرعب، محستنا
ذكر وفاء الملك الصالح أسماعيل بن العادل نور الدين الشهيد بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر الملك شاهي

في رجب من سنة سبع وسبعين وخمسمائة، توفي الملك الصالح أسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد عماد الدين زنكي رضي الله عنه، بمدينة حلب، ولم يبلغ عشرين سنة.

ولا اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر تدنا ويا بها، فقال: لا أفعل حتى استفتي الفقهاء. وكان عنه علاء الدين الكاساني الفقيه الحنفي بمنزلة كبيرة، وكان يعتقد في اعتقاده حسنة ويكريمه، فأستفتاها، فأثناه بجواز شربها. فقال له: يا علاء الدين، إن كان الله سبحانه قد قرب أجله أيؤخسه شرب الخمر؟ قال: لا، قال: والله لا لقيت الله تعالى وقد استعملت مشركة علي. فتلم عن نفسه، أحضر الأمراء كلهم وسائر الأجناد، واستحافهم لابن عمدهpkh اتباك عز الدين رضي الله عنه، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه. فقال بعضهم: إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من همذان إلى الأغوات، فله أوصيته بحب لعماد الدين ابن عمك لكان أحسن، ثم هو تربية ابن وزوج أختك، فقال: إن هذا لم يرغب علي، ولكن قد عامتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوف ما بدي، ومتى

- ٥٧٩ -
المراء إلى أتابك عز الدين يدعوته إلى حلب ليسلمها إليه. فورد الخبر وغجاح الدين قايمًا قد سار إلى ماردين لمهم عرض، فلقى القاصيين عندها فأخبروه الخبر، فسار إلى الفرات ينتظره. فسار أتابك مجدًا، فلما وصل المنزلة التي بها مجابه الدين اقتام معه، وأرسل إلى حلب ينتظر الأمراء فحضرا كلهن عندهم وجدوا البيمن له فسار حتى أتا حلب ودخلها. وكان يومًا مشهودًا.

ولا عبر الأفرات، كان تقي البيمن عمر، ابن أخي صلاح الدين، بمدينة مدينة فسار عنها حارب إلى ميدان حمص. و thùرة هجومها على شعار أتابك، وكان صلاح الدين بصر، فأشار عسكر على عز الدين بقصد دمشق، وأظهروا فيها. و في غيرها من البلاد الشامية، واعفوهم محبة أهلها البليبي أو أتابكي، فلم يفعل. وقال: بيننا يمين فلا نفر به، وأقام بالحرب عدة شهر، ثم سار منها إلى الرقة. فقام بها.

وجاءه رسل أخيه عماد الدين يطلب أن يسلم إليه حلب، وياخذ عوضا عنها مدينة سنجار، فلم يجبه إلى ذلك. ولج عماد الدين، وقال: إن سلمتم إلي حلب، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين. فأشار حينئذ الجماعة بتسليمها إليه، وكان أكثرهم في ذلك مجاهد الدين قايمًا. فإن كان تسليمها إلى حلب، فإن ميم كان أتابك عز الدين مخالفة لتمكينه من الدولة وكنز عساكره.
وبلاده، فوافقه وهو كاره، وسلم حلب إلى أخيه وتسليم سنجر
وعاد إلى الموصل.

وكانصلاح الدين بمصر وقد ايس من العود إلى الشام، فلم
بلغه أخذ عماد الدين لعلب، ضرر في يومه عن القاهره إلى
الشام، فلم سمع أتاكك بوصوله إلى الشام، جمع عساكره وسار
عن الموصل خوفا على حلب من صلاح الدين، فانفق ان بعض
الأمراء الأكابر مال الى صلاح الدين وعبر الفرات اليه، فلم رأى
اتاكك ذلك، لم يبق بعده إلى أحد من أمرائه، إذ كان ذلك الأمير
オンئهم في نفسه، فعاد إلى الموصل.

وعبر صلاح الدين الفرات وملك البلاد الجزيرة، ونزل الموصل
فلم يتمكن من النزول عليها، فعاد الى حلب وحصرها، فسلالمها
اليه عماد الدين وأخذ سنجر والحسان ونصيبين وعوضا
عنها. وكان سبب هذا جمعه تسليم حلب الى عماد الدين، فإنه
كان مصمم محضه.

فصل في سبب قضية القبض على مجااهد الدين
قايمز وصاحب من الوهن (١٢٧)
الدين يوفس بن ذين الدين علي باريل، وكان فيها لا حكمة له مع مجاهم الدين، وامتنع معز الدين بالجزيرة، وأرسل الخليفة الناصر لدين الله عسكرا حصار دفعة فماكرها، ولم يحصل للمولى عز الدين مسماً.

جميع ما كان بيد مجاهم الدين إلا شهر زور، وصارت هذه البلاد التي كانت بيده أصر شيء على الموصل، وقتي مجاهم الدين موقضا نحوا عشرة أشهر، وتم اتفاك على قبضه فأخرجته، وخلع عليه وإعادته إلى ولاية قلعة الموصل، إلا أن الذي أخذ من البلاد لم يعد إلى طاعته، وقبيعت اتفاك على عز الدين زائف، ووعلى شرف الدين أحمد بن صالح الغريف، عقودية لما على مشاركا به من قبض مجاهم الدين، وعلى الحقيقة فليس على الدول شيء أضر من ازالة بيشكاه (138) مدير لها وأقامة غيره، فإن الأول يكون كالطيب الحاذق الغير بجامع الأنسان ومرده وعلاجه ومايوافقه ومؤنثه، وكونه الثاني - وإن كان كافيا - بمزاج الطيب الذي لا يعرف مزاج الأنسان ولا مايوافقه ومؤنثه، فإلي أن يعرف حاله ينفسد أكثر مما ينصلح. قال:

في ذكر حصر الجزيرة

في شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين وخمسماة، سار الدولة السعيد عز الدين - قدس الله روحه - إلى جزيرة ابن عمر، فحصرها وبها معز الدين سنجر شاه ابن أخيه سيف الدين غازي وهو صاحبها، وكان سبب ذلك أن معز الدين كان ساء السيرة مع الرحوم عز الدين، خارجا عن طاعته، مساعدًا للأعداء عليه، ينقل عنه إلى الملك المجاورين، ما يوحشهم منه، الي غير ذلك من الأسباب التي بضعها يخرج الوالد عن محبه وله، ولم يزل الرحوم يرفق به ويستميله وينعم عليه، وهو لا يزداد إلا سوء معاملة وادب، فبقي كذلك من أواخر سنة تسعة وسبعين إلى
لا يزال الأمر عليه وأيس من أصالحه، سنار إليه فحصه بها وضيق عليه، وعزم على إخذها منه فلما نازله ادركته رقة الوالد فلم يقاتله، ولِنَٰزَل عليه من غير قتال إلا شيئًا لا يبَسالي به المحاصر، فبقي كذلك إلى رجل، فلما رأى معز الدين ضعف حاله ونفاد أمواله وتهيّر رجاله، خضع طلب العدو والصفع، فأجابه إلى ذلك وصلحه على قاعدة استقرت بينهما، وخرج معز الدين إلى خدمته، فاحسن إليه وأعنه عليه وأمه، وعاتبه على ما يبدو منه، فاعتذر بأعتراف علم المرحوم أنه غير صادق فيها، إلا أنه تفجَّد إساءته بعضه، وزنه بضحكه عنها، وأقره على باده وعاد عنه إلى الوصول، فعاد معز الدين إلى حسَّانه الأولى، فتجهّز عنده وطرحه، وقال: ما يمنعني عن أخذ باده والحجر عليه، إلا الخوف من نحن الله لاتني فعلت هذا شرها على مايبيده، إلا كنت فعلت معه ما يستحقه.

ذكر وفاة الدولة السعيد المرحوم عز الدين

رضي الله عنه

توت في صلاح الدين يوسف بن أيوب في السابع والعشرين من سفر من ستة تسع وثمانين ومائتين ومائتين ومائتين وستين، ففُلما وصل خبر وفاته إلى الوصول، إلى المولى المرحوم عز الدين رضي الله عنه، جمع من يرجع إلى رأيه واستشارهم في الذي يفعله، فأشار عليه أخى مجد الدين أبو السعادات رحمه الله عليه، بالاستعجال في الحركة، وقاد البلاد الجرية، فإنها لا مانع لها منه، فقال ماجاه الدين قايمز: ليس هذا برائنا نتشرك وراءنا مثل عسام الدين صاحب سنجار، ومعز الدين صاحب الجزيرة، والذين من القادة، ولكن صاحب إربل ونسير، إنما الرأي أننا نرسلهم ونستعينهم وناخذ رأيهم ونتصرف ما يقلون فقائنا بائياً: إن كنتم تقولون ما يشيرون به عليكم وبرونه فاقتدوا، فإنهم لا يرون إلا هذا لأنهم لا يُشَدرون.
حاركتكم ولا قوتحم، إنما الراي أن يبرز هذا السلطان ويكابدهم ويرسلهم ويستمثبهم، ويبدو لهم البني على ما يبينهم بعلهم أن أهال الحركة، فليس منهم من يداني كلها خوفًا أن يقصده ولاية، لاسيما إذا رأوا جدد وخلا الولادة الجزيرة من مانع وحما، فهم لا يشكون أنه يملكون سريعا، فيحملهم ذلك على موافقتهم، ومثل أراد الإنسان يفعل فعلا لا تتطرق إليه الاحتمالات بطلت أفلاه، وإنما كانت المصحة أكثر من المضرة أقدام، وإن كان العكس احجام، فأظهرت أدلة الفضول على مغاير الدين، فسكت أخلي لأنه كان هو المخدوم للجميع على الحقيقة والحاكم فيها، واتبع الدروع عن الذين قلت الله روحه - قول مجاهم الدين، وأقام بالعسكري عدة شهور برس بالذكرون، فلم ينظام بينه وبين أحد منهم حال غير أخيه عماد الدين صاحب سنجر، فإنهما اتفقان على قواعد استقرار بينهما، فألقت انفصال الحال، ووصل الملك العادل أبي بكر بن أيوب من الشام إلى حتران وأقام هناك، ووجاته العاصفة من دمشق وحلب وحمص وحما، وأثنتت البلاد به.

وسار الدروع عن الذين عزموا العودة إلى الموصلي إلى النصبيين، وقد ابتدأ به اسالون ينضيف، فوصل إلى نصبيين واجتمع بها - وعماد الدين، وسارا في عساكرهما إلى كل موروث من شَخْبَان يقصدون الرها، فدارسل الملك العادل حينما يطلب الصلاحي، وإن تكون البلاد الجزيرة: الرها، وحراك، والوقا، وما معها بهداه على سبيل الاقطاع من الدروع عن الذين فلم يجب إلى ذلك، وقوي العرض به بأل موروث ودشدا إلى أن عجز من الحركة، فعادوا إلى الموصلي في طاقةٍ سليمة من العسكر وهم مجاهم الدين، وأخلي مجد الدين، وترك سائر العساكر مع أخيه عماد الدين ليفصل الحال ويقرر الصلاحي مع الملك العدل، فلما وصل نبيسي رأى ضعفًا شديدًا، فاحضرت أخته كتب وصيته، ثم سار إليها الموصلي فورا، لمريما بالسماح، وبحي كذلك إلى أن توفي سابقًا وعشي شعبان سنة تسع وثمانين وخمسماة، ولم نسمع عن أحد من الناس بمشارك
كان رضى الله عنه لين الجانب، كريم الأخلاق، كثير الاحسان إلى الناس، يتعهدون بالتفاقي، والسواوء عن أحوالهم، لا سيماً من يعلم أن له خدمة متقدمة في دولتهم، فإنه كان يعتمد ويهمل ويعمل في محله، فمن ذاك أنه كان في دولته الأمير بهاء الدين علي بن الشكري، وكان رجلًا كبيرًا له خدمة سالفة، فكان يبالغ في احترامه إلى حد أنه كان إذا لعب معه بالمكارة، يعطيه ومن دوابته الخاص ما يريده ويملبه عليه. ومن ذاك أيضاً، أنه لم يعده من حصار الجزيرة العمرية سنة سبع وثمانين، فلما وصل إلى الموصل أمر أن لا يدخل أحد إلى البلد، ونزل هو في المغرفة في الكشك الذي

ذكر شيء من سيرته رحمة الله تعالى

كان رضى الله عنه لين الجانب، كريم الأخلاق، كثير الاحسان إلى الناس، يتعهدون بالتفاقي، والسواوء عن أحوالهم، لا سيماً من يعلم أن له خدمة متقدمة في دولتهم، فإنه كان يعتمد ويهمل ويعمل في محله، فمن ذاك أنه كان في دولته الأمير بهاء الدين علي بن الشكري، وكان رجلًا كبيرًا له خدمة سالفة، فكان يبالغ في احترامه إلى حد أنه كان إذا لعب معه بالمكارة، يعطيه ومن دوابته الخاص ما يريده ويملبه عليه. ومن ذاك أيضاً، أنه لم يعده من حصار الجزيرة العمرية سنة سبع وثمانين، فلما وصل إلى الموصل أمر أن لا يدخل أحد إلى البلد، ونزل هو في المغرفة في الكشك الذي
بالبيدان، ونزل الناس متفرقين. وكان في جملة الوالدين
معه، أخي محمدان رحمهما الله تعالى، وكان ينزل بالقرب
منه، فلما خرج خينا أخي بزة، نزل بالبيدان، ولما يخلى
الموصل، فخرج أخاه أبو بكر، فركب الروح، وعلق النبي رضي
الله عنه نورًا في الخيمة، فاستدعى أخي وقال له: أرى خيمتك
هذين! قال: إذاً أنت产生了 أحد قال: أنا، فإن والدك
أثر النبي عليه، فإنه ما رأى، ولا يدحك إنه قد أشتكى، فتدخل إليه
وتسأل عليه، وتساءل الشعب، وواجته النبي إلى الثلاثة أيام، فاستنق
نوع ذلك، وقال: أنا أبو بكر وأعد إلى الخيمة، فلم يرخص له في
ذلك، والزمن بقصد والده والاقدام عليه، فانظر إلى هذا الرفق
واللطيف الذي لا يفعله الإنسان إلا مع أهله لا سيما الملوك.

وكان رحمه الله تعالى حبيبا كثير الحبيبة، كما قبل، أشح حب
من العدوى في خدراها، لم يحدث احداث كاف إلا وهو مظاهرة، فمن
حياته، أنه أمر طاهرة من عسكره بالتجهيز للغاية، وكان فيهم مملوك
لم يكن له محل، إنما هو بمرده، فحضر في خدمته وقال: أني مهم
أريد اقوله، فأنت في القول، فقال: بلغني أنني في جملة العسكر
المسير إلى الغزاة، وعجب من ورثات كيف يسبح بماله ورسانه
ويعندي عن خدمته، ولا شك أن الموالي لا يعرف محلي، ولا فسا
كان أمر بذلك، فقال له: صدقته، مثلاً لا ينبغي أن يفراقنا مع عل
وحاول ورتفاع قدرك فما خرج عنده اظهار الانكار، وقال: قد
صائر مثل هذا الدمير المحبس يقول لي هذا القول، فإذا وصا
محله وقد سرنا في الغاية جماعة من أكرام الأموات، أليس له
بهم اسورة. فقال له بعض الحاضرين: لم لا أمر الموالي بثانيه
وامرأته عن خدمته، وكيف استمع حديثه! فقال: استحياء
منه، فقالوا: ألا تؤدي وتكفه؟ فقال: قد أحسن الطفن
بنفسه فلا نعاقبه عليه.

وكان رحمه الله تعالى رفعًا رقيق القلب، كثير الرحمة
لرعيته، حكي عنه أخي محمدان رحمهما الله تعالى، أنه ركب يوما
قال له ولن معه: إنني هذه الليلة ما نمت إلى سحر، فقالوا له:
وما سبب ذلك؟ قال: كنت سمعت أن ابن فلان مريض - وذكر
انسانا بائعا، بالوصول - فلم كن الليلة شمت صوت
مأتم، فظننت أنه توفي فضاقت صديقي - وكان يبلغني بأنه ليس
لابويه غيره - فنشف ذلك علي، وقت من الفراش إلى اطراـف
السطح، وعليك أعلم من هو، الليت، فطال الأمر إلى ثلاث الليل
الأخير، فقلت: لم أغب ذنبي، فأرسلت خادما وفتح أبواب الدار
وأرسل من الأجناد من يستعلم لنا من الليت، فعاد وذكر أن شخص
لم يعرفه، فحينئذ نمت، فاعجب بهذه الشفقة والرقة على رجل من
الرعية ليست له صحبة ولا خدمة.
قال: وكان رحمة الله عليه بينا خيرا، قد باتنى في داره مسجدا
فيخرج إليه في الليل ويصلي فيه، ورأدا كانت له، ولبس فروجية كان
قد اخذها من الشيخ عمر النسائي الصوفي ويصلي بها، وكان قد
حج ولبس بعكة حرسها الله خروفة الصوف من الشيخ عمر النسائي
المذكور، وكان من الصالحين.

وكان رضي الله عنه يقوي يد من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر.
كان بالوصول رجل من الفقراء الأخبار من باب الجسر (132) اسـمه
حبب، فأراد ما يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، فاجتاز
يوما على الجسر. فقله دواب تحمل الخمار لانسان هو، قرب الناس
الي المرحوم عز الدين وكمامهم به، فأخذ الأقواس النافورة وراؤه
بعد أن ضربه، فبلغ الخبير البار، فاضطر الفقيه، فامرأ زاحه جميع
ما يراه من المكررات وأطلق يده، وأذكر على ذلك الأمير وأمـره
بحاضر غمانه الذين ضربوا الأقواس، فبعد الجهد ان تركهم.

وكان رحمة الله تعالى يأمر بالانصاف من أقرب الناس إليه
واعظمهم منزلة عنه، ويقوي يد صاحب الحق، فمن ذلك كان
بالوصول إنسان من أعيان الدولة، وهو مع ذلك يتولى أمر الخواتون
واللغة المرحوم رضي الله عنه، وله بها أعظم جاه وعلى منزلة، ولها
قال: وهو الذي ابتنى المدرسة العربية بباب دار الملكة، وهي مدرسة حسنة، جعلها الفريقين الحفية والشافية، وقرر الفقهاء ماليس بما درس أخرين من الفقهاء والحاوي، والدعاة في المواسم والأعياد والشيصر، ولفقد وغير ذلك، وقدرنه في وفاته من...
الصدقات كل أسبوع في الأيام الشريفة والليالي المباركة شهينا كثيرا.

وهو الذي فتح الباب الغربي في الموصل - وهو بين باب كندة وباب العراق - ولم يكن هناك باب فضاء حسبا، وانتفع به أهل ذلك الصقع.

في ذكر ملك ولده السعيد دور الدين بن عز الدين ابن قطب الدين مودود بن عماد الدين ذنكي

قد ذكرنا عود المرحوم - قدس الله روحه - من تل موزن مريضاً، وأنه كتب وصيته بدنيس، وكان في جملة الوصية أنه اوصى بالمليك الأول المستنصر بإلباس، ورسل الله روحه، وأوصى بغير ذلك، وكان الوصي فيهما مجاها الدين قايمز، رحمه الله تعالى.

فلما وصل إلى الموصل وهو مريض، أرسل إليه أخوه شرف الدين بن قطب الدين مودود يطلب أن يجعل الملك له، وأرسل أيضاً والدته الخادم في المعنى وسالفتها، لأن شرف الدين أياضينا ولدها، وجمع لهما جمعا وجنياً، وأظهر شرف الدين أن أحداً لا يقدر يملك الموصل معه، وحدث نفسه بشيء وظهره حقاً (يريدون ليезжаوا دور الله بآفاهم والله مت سنة نوره ولو كره الكافرون (١٤٣١) ) وقيل شرف الدين: ان ملكي أخشي بعد، والإثر فتنة في البلد وأخذته قهررة فان عجزت سرت الي الملك العادل بن أيوب، وأردت وأبرقت، وكان عمر المتوكل المرحوم دور الدين - قدس الله روحه - حينئذ نحو عشرين سنة، وهو...
بنيظر إلى عمه ويظنه يفعل ما يريد وكان الملك العادل سيف الدين بن
أيوب حينما قد نزل نصبيين، فلما قوي جنان شرف الدين ظنا منه
أن أخاه يملكه إنه هو كبير (البيت ۱۳۵) ليوقد نر العادل عن
نصبيين، فخاف نظنه فقال عز الدين لجاهد الدين ليحف الناس
لولده نور الدين، وقال: أخاف أن أموري وليس ثك ماك مستقل
بالمك، العادل في البلاد، فحدث ضرر لاييمكتم تلافيه، فلم يقم
مجاهد الدين علي ذلك خوف الفتنة، وكان يحب السلمة، فارسل
إلى شرف الدين يأمره ويضن عليه لأن يحار لولده أخاه ووعده
الزيادة (والاقطاع) قام يذهب إلى ذلك وتهيب وقال، فتوقف
مجاهد الدين في تحالف الناس، ثم إن المرحوم نور الدين، رضي
الله عنه، أرسل إلى أخي مجد الدين، رحمه الله، مع خدام
لولده، وهو أمين الدين يمن، يطلب منه أن يشير على مجاهد
الدين بتحالف الناس له وترك النواحي فيه، ووعده الزيادة والأقطاع
وتوليه القراعي، وارسل إلى إليه معه صخاشا، فصد
الخاتم، وقال: خاتم الدولة إنما يشبع على بلاد، وأما هذا الأمر
البيسر فهو أحق من أن يؤخذ عليه خاتمة، وكان أخيه الذي
يصيرون من راهنة على ماشاهده الناس، وأما مارسم به فأن
مشود الوسط فيه ولابكنكي المولى على هذا، فانتقي أفع خدمة
لولده الذي آتا في خدمته انهم هكذا يريد، ولو أراد غيره لابتعثه
ولم يدر من إلا مايقف غرشه والملصة له ولودته، وأنا أشكر
الله تعالى حيث أراده ولدك موفق لارادتك فذانا خدمت خدمة وأقتف
الفرضي، وأما وما وعدت من انعام وزيادة مرمون، فليست لي
رغبة في شيء من هذا، فلي من نعمتك مايضلعني، فشك من
وقتاه وأتبع بمجاهد الدين بالقاعة فراح مفكرا، فشكا إليه مجاهد
الدين وقال: هذا شرف الدين يريد الفتنة والإبل على عز الدين يريد
ولده، والعادل نصبيين، والفتنة قد رفعت رأسها، فبينما هما في
الحديث، وإذا قاد قاصد من المرحوم عز الدين يقود لجاهد
الدين؛ قاد ضجرت مما يقوله لك تحالف الناس، ولدك وانت تهمه
الأمر والعدو بالقرب منك وانت تغير سلطان، وأنا فما أظن أنني

- ۳۴۵ -
اغيـش يوماً أخر فما تنتظرو كـفضر مجاهر الدين، وأعاد ماكان يقوله لأخي من الشكوى فقال له أخي: أنت تفعلُ هذا جميعه بنفسك وببالدوله، معـك ولو شئت لم يكن منه شيء، والرأي أن تامـر بإحضار الأـمراء، وأرباب المناصب، والمـقدـمين، وأعيان البلد وتحافهم لولده كما يريد، فذا فعِلـه هذا، حينئذ يئد شرف الدين وما عـى أن يفعـل، وإن بـدا منه مايتجاوز هذا، اختناه قـهراً ووكلنا به، ومـهـما الأمر على هـذه المجال بـغير يمين لـنور الدين، ولايركـب لـيراه الناس، وعلاموا أن لهم سلطان، لـانزال مع شرف الدين مصدعين فـأمر مجاهر الدين باستدعاء الجماعة الدين نـكزهـم

أخي فحـضروا، وحافوا بالنفس، التي كتبها أخـي، رحمه الله، لهم، وحاف مشاهـيـخ المجال ورـفاء الأسواق فـسمع من جمعهم شرف الدين فضاها وترفوا عنه، فأرسل إلى مجاهر الدين يعابيه حيث حاف الناس قبله، وقال: اريد أن أخدم المولى نور الدين وأتولى القيام بأمره، ثم أن مجاهر الدين ركب السـعـيد نور الدين من الغد في موكب والده، وحمل السنجق على رأسه، ومش مجاهر الدين في ركابه راجلًا قد حمل الفاشية، فلم يبلغ المحرم عز الدين بعده غير يومين حتى توفي رضي الله عنه وأرضاه، واستقر السعيد نور الدين، قدس الله روحه، ولم يتغير بالناس حـال، ورعي هذه الخدمة لأخـي رحمـه الله تعالى، فكان عنده واحـد دولته، والمرجع إلى قوله ورأيه، ولم يزل كذلك إلى أن فـرق الموت بينهما رضي الله عنهم.
ذكره وفاة عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود.

وفي (الحمر(1376 هـ) من سنة أربعة وتسعين وخمسمائة، توفي الملك العادل عماد الدين زنكي بن السعيد أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد عماد الدين زنكي بن أقتصرر رضي الله عنهم، صاحب سنجار ونصبيبين والخابور وقدم كوف ملكها، وكان عمره ٣٠٠٠ (1376 هـ) وولي بعدًا ابنه قطب الدين محمد، وتسولت تحدير دولته مملوك الده، مساعدة الدين يزنقدم، وكان بليعا خيرا، إلا أنه كان شديد التعصب على منذهب الشافعي رضي الله عنه، يكثر ذم الفقهاء الشافعية ووقع فيهم، فمن تعصباه أن بني مدرسة للحنيفة بسنجار، وشرط أن يكون النظر في وقوفها إلى الحدفين من اولاده دون الشافعيين، وهذا غاية التعصب.

ذكر ملك السعيد نور الدين مدينة نصيبين

في (جمادى الأولى (1388 هـ) من سنة أربعة وتسعمائة وخمسمائة، سار الملك السعيد نور الدين إرسلان شاه إلى مدينة نصيبين، وهي لقب قطب الدين أبـ ين عمـ يـ ساعد الدين نصيبين، كما أرسل الله، وسأله أن عمه عماد الدين زنكي، وحمر الله، وكان له نصيبين، فتطاول نوابه بها، واستولوا على عدة قرى من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل، وهي مجاور ولاية نصيبين.

فبلغ الخبر إلى مساعدي الدين قايماز، فلم يعلم مخدومة نور الدين الخبر، لما يعلم من علومه وابناته فضله أنه سماحة حمله الفظ على ان يبدو منه ما يوجد اختلاف بينه وبين عمه، فأرسل
من عنده رسول الله، رضي الله عنه، وقع هذا العمل، وقال:
لاشك أن الذواب قد فعلوا بغير أمره، فأعاد الجواب: إنهم لم يفعلوا (لا) مالرتم به، وهذه القراءاه هي معنى أعمال
نصوصين، ولم يعلها قرر جماع الدين برسلة ثانية يقرّون
له: ماتسأوا هذى واضعاها أن تخُرج ولدك نور الدين عن
يتك، فانه الى الآمن مخالفاك في شيء، وما أعلنته به، هذه الحال لعلمي
أنه لابصر عليها، وليس هو مثل والده، إن العلم يخرج الأمر عن
يد، ولا أقدر أمنعه، فلم يلقفت عماد الدين فحينئذ انهى مجاهم
الدين الحال إلى السعيد نور الدين، فغضب لذاك وأدرك حيث لم
يعلمه، وقال: وهذا هو الذي اطمتعه، ثم احضر أميرا من
مشابخ دولتهم، بقال له باء الدين علي بن الشكر، ممن خدم
الشهيد رضي الله عنه، وارسله إلى عماد الدين يقول: قد بلغني كنا
وكنا، فإن مجاهم الدين راسك مرتين ولم ترد لدك أبدا، فلو
اذاك أرسلت تطلب جميع الولاية، وغيّبرها لكان احـب الأشياء
الي، وأما بأن تأخذ منى قرية واحدة مرايغة لي واطراها لجانبي
فلا أصير على هذا، فتأمر بإعادته قولًا واحدًا
فمضى الرسول، فاذكر الرسالة وعماد الدين قد مرض، فافتاَظ
من ذلك وأمانع من الإجابه، فقال الرسول: من عنده نصـحا
له، ونشأ عليه بالصلحة، لأنه كان عند جميع البيت الشريف
الاتابكي مقبولًا، فلم يصح إلى قوله، وقال مأجرت المائدة أن تقوله
الرضي، فعاد الرسول إلى الموصل، وأخبر مجاهم الدين جليلة
الحال، فأمره أن يكتب ما يفيظ نور الدين، فلم يفعل وحـكه
للمرحم نور الدين جليلة الحال، فغضب ووعز على السير إلى
نصوصين، ولمكاها، ومجاهم الدين يمنعه فثوب عماد الدين والحال
على ذلك فجس لالأحزاء.

ثم أرسل إلى قطب الدين محمد بن عماد الدين في الرباني، فلزم
ماكان والده عليه، فسـال حينئذ نور الدين عن الموصل إلى
نصوصين، فلم سمع قطب الدين سارع عن صنّجر في عساكره فسبقه.
الها ونزل بظاهرها، وعظم على منتهى من النزول عليها ومن محاصرتها، فلم وصل دور الدين، لم يُعلِّم بقبط الدين وتقام إلى البلد، وكان بينه وبين قطب الدين نهر، فلم قارب نهر الدين (من) النهر، عبر الأمير فخور الدين عبد الله بن عيسى المهراوي النهر - وهو من أكابر الأمراء النورية - وقتل مسناً بيازيه، فلم يثبتوا له، وعبر العسكر النوري وقد تمت الهزيمة على قطب الدين ولم يقاتله غير فخور الدين عبد الله، واحتمى هو ونايته مجاهمة الدين بردقش وغيرهم بقلعة نصيبين، وادركهم الليل فخروا منها هاربين إلى بيار بكر ثم منها إلى حران.

ورسلاوا الملك العادل إيا بسـكر بين أيوب麝احب حران وغيـرها - وكان بدمشق - وبيتوا له الأموـال الكثيرة لينجحوه ويـعـدون نصيبين، وأقام آتاباك دور الدين بمدينة نصيبين، فمرض كافأ أمراً وأكثر عسكره فعادوا إلى الموصل وسقفوا أكثرهم، وأقام هب نصيبين وقد تضعف العسكر بعد أمراء وكثيراء الأمراض. ووصل الملك العادل إلى الديار الجزيروية، فحينئذ فارق السعيد دور الدين نصيبين وعاد إلى الموصل لا يستلم المرتبة على كافة العسكر وعدهم، فلما فارقوا تسلمها قطب الدين بين عماد الدين.

وتوفي جماعة من الأمراء المواصلة، منهم عز الدين جورديك وفخور الدين عبد الله بن عيسى، وشمس الدين عبد الله بن أبراهيم المهراوي راطنج وظهور الدين (يوافق) (139) بدون بذكري الدككي، ومجاهد الدين قباية، وجمال الدين محاسن وغير ذلك من ذكرنا، وأما من هو أقل من هذه الطبقة فنا تطول الكتاب.

ولا عاد المرحوم دور الدين إلى الموصل، قصد الملك العادل إلى ايوب قلعة ماردين فحصرها واستولى على ربيها، وحصر القلعة...
ذكر وفاة ماجد الدين قايمز
رحمه الله تعالى

في (ربيع الأول) (١٤٠) مـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـم~

وبني عدة جوامع منها الذي بـظاهر الموصل، وبني عدة خانقاجات، منها التي بالموصل، ومدارس، وقلاع على الأنهار إلى غير ذلك من المصالح، ومناقبه كثيرة فلنا نطول بذكرها لثلا خرج عن ما قصناها من الاختصار.
ذكر ما فعله المرحوم فوز الدين عقا الله بماردین

في سنة خمس وتسعين وخمس مئاة في رمضان، سار الملك السعد الدين قزر الله رحمة الله إلى ماردين لازاحة العسكر العادل عنها وأيقانها على صاحبها حسام الدين، وكان سبب ذلك أن الملك العادل حصرها في العام الماضي على ما ذكرناه، ففقيه محاصرلا لها أحد عشر شهرا، فعدمت الأقوات وغيره، بها، وأصاب آخاذها مرض عم أكثرهم، فكان أحدهم لا يطيع القيام، ولم يبق غير الاستيلاء عليها، فانتقل الملك العادل يحاصرها، إذ توقي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أبي بكر صاحب النصارى، وكان عسكره مع عمه الملك العادل على ماردين، فلما توفي، الملك بعده أخوه الملك الأفضل علي بن صلاح الدين، وكان بينه وبين عمه ذرة قد ذكرناها في المقدسي.

فلا ملك مصر أرسل إلى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمدفعته واعدا، إلى مصر فعادوا، فقتل جمعه وعسكره، إلا أن أهل ماردين قد ضعم من بها واستكانوا، ولم يدفعهم قلة العسكر عليهم، لأن الراجل كان كثيراً ويكفي في حصرهم.

ثم أن الملك الأفضل أرسل إلى السعيد الدين الذي يطلب منه الموافقة على الملك العادل، فاجاب إلى ذلك، وخرج الأفضل من مصر عازماً على حصر دمشق واستعانته من عمه، لأنه كان أخذا منه، فلما سمع الملك العادل الخبر سار عن ماردين جريدة في ذكر يسير إلى دمشق لجفظها من الأفضل، وترك ابنه الكامل محمد مع العسكر على ماردين يحاصره.

برز المرحوم فوز الدين عن الموصل وبإسرار إلى ماردين وأخار شعبان ووافقه قطب اللين ابن عمه عماد الدين صاحب سنجار ونصيري، ووافقه أيضاً مع اللين ابن عمه سيف الدين، وهو...
ذكر وفاته رحمه الله وقدس روحه

ونا كانت ليلة الأربعة السابع والعشرين من صفر، وفي الثانية عشرة من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته، ووقع في أوائل الأسر في أول الليل، وحال بيننا وبينه النداء وأستحضرت أنا بالنقض الأفضل في تلك الليلة، ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت، وحضر بيننا الملك الأفضل، وأمرًا أن يثبت عنه، فقلت

النبي الأفضل ذلك رأياً فإن الناس كانوا في كل ليلة ينظرون نزولنا من القلعة فخاف أن لا ينزل فيقع الصوت في البلد وربما نهب الناس بعضهم بعضًا، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضر الشيخ أبي جعفر أمام الكلاسة، وهو رجل صالح ليبeti بالقلعة، حتى إذا

احتضر رحمه الله وسألاeye حضوره وعين الأنساء، وذكره الشهادة، وذكره الله تعالى، ففعل ذلك، ونزلنا وكل من يريد فداء بنفسه وبات في تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله تعالى، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنه القرآن، وذكره الله تعالى، وكان نوهه غالبًا من ليلة التمساس لياكد يغفل إلا في احيان، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى ( هو...
صاحب جزيرة ابن عمر، فساروا، فلما وصلوا إلى ماردين نزلوا
أسفل جبلها، وشرع ذو النين يجمع الرجاله ليزحف إلى رضي
ماردين ويقاتل العسكر العادلي من تحت، وقبائلهم أهل ماردين من
فوق، فعلهم ينفرعون بهم، ويزاويونه قمهرا ومكايرة، مع تعذر
الصعود في الجبل إلى الرضي، وإذا همته كانت عظيمة لا يعتقد أنه
يعجزه شيء، فافتقى أن العسكر العادلي نزل عن الرضي، الى ققال
العسكر الشؤري، أنزل الرحالة في الرضي لمبعوا القلعة من
النژول، ففجاء أمر لم يكن في الحساب، فافتقوا واقتناوا.

وكان قطب الدين صاحب سنجر قد وطأ العسكر العادلي على
ينهزم بين أيديهم ولم يعلم بذلك أحدا، فقدر الله تعالى، أنه لما نزل
العسكر الشؤري وأضفت الغراب، أنجات قطب الدين الضرورة
الرملة التي إن وقفت في شعب بجبيل ماردين، ليس له طريق
للعسكر الشؤري، ولا يرى الحرف بينهم وبين العسكر الشؤري
لتنورهم، وإذا أراد الله أمرًا فلا مرو له، وانتقل العسكران واقتناوا
واصتة الكمال، وكان السعيد نور الدين في القلب وإلى جانبه أخي
مجد الدين على بغلة، فقال له: في مثل هذا اليوم ترك بغلة، فقيل:
الساعة تأخذهم براهم عن شاه الله تعالى، فحمل العسكر العادلي
على القلب الشؤري، فزوجوا عن موقفهم قليلًا، فقال أخي السعيد
نور الدين: قد قدم قليلًا ليبراك الناس فتقدموا وفتحت انفسهم، فأخذ
الرمح وحمل إلى المعركة ولم يشعر أخي به إلا وقد حمل، قال
أخي: وقد ندمت حيث قلت له ابتعد حيث لم يساعي الندم، فعين
رآه الناس قد حمل القاوا دفوسهم على المناداة، فأخذوه
باليد، وانهزم الباقون مصعدين في الجبل إلى الرضي، وحمل
الأسرى إلى بين يدي نور الدين، فرأوا فيهم من بعين
العسكر، وهو مكشور الرأس، فقام إليه واعتلقه، وأخذ شيئا كان
على رأسه فالبئس إياه بهد واقتعد إلى جانبه، وأحسن الى
المأسرين جميعهم، ووعدهم الإطلاق إذا فرغوا من أمر ماردين.

وأما الملك الكامل والعسكر الذين معه، فإنهم لما جنهم الليل
راحلا عن ماردين ، فقد طرعوا في ذلك الجبل وسأرادوا نحو ميافارقين ، وأصبحت الأرض منهم بلقعا لا أنيس بهَا ، وأتى الخبر إلى السعيد نور الدين رضي الله عنه ، فقد حُرَّل له بعض أصحابه ، استدعاني إلى الريض فليس دون ذلك القلعة حانع لضعف من بها فتملكها سفوا عقوا ، ويكون هذا الموضع المثل : ركب ساع لقاعد فقال: حاشا الله ان يتحدث الناس عن ان ناسا اعتدوا بها واستنصرنا فاغدر بهم ، قال لأخي مجد الدين وهو عنده : ماتقول فقل : الغادرن كثير ، وقنا ودعت الكتاب غرباتهم فهي باقية إلى يوم القيامة ، وإنما لم يؤثر عن أحد من الناس أنه قد على مثل ماردين وتركها وفاء وانعما واحسانا ، قال فقال لي : أرسل إلى صاحب ماردين ليرسل نوابه إلى ولايته وقراياه ، وكان قد أقطعها للمساكرين التي معه ، ومأتم بكفاء أنهدين عنها وتسلهمها إلى صاحبها - قال : تكله : إن أصحابنا لم يأخذوا درهما واحدا لتأخر ادراك الغلال ، فلما باقي القطاع باتبادهم إلى أن يأخذوا منها ما يفقون منه على بيكارهم لكان مصلحة . فقال : لا نذكر انعانا واحساننا البعيد ، وإنحن نذكي أصحابنا . قال : فارسلت إلى صاحب ماردين ليتسلم بلده فتسلمها وارسل اليها النواب ، وهذه سيرة لم يؤثر عن أحد من الناس مثلها .

وكان في عزمه الأدوار إلى حران وما والاه من البلاد الجزيرة للاستيلاء عليها ، فمباشر وعاد إلى المصول ، وأو سار اليها لما كلا ، لأن ذلك الكامل وعسكره لما فارقوا ماردين قصدوا ميافارقين لعله لا السعيد نور الدين يقصدها البلاد الجزيرة ، فأبعدوا عنها خوفا منه .

- ۶۹۹ -
ذكر عودة رضي الله عنه إلى بلاد العادل والصلح بينهما

قد ذكرنا فيما تقدم من عوده الموالي المنسوب إلى الدين رضي الله عنه عن ماردين، مريضاً، فلم يرسل إلى الموصل، بسبب أياماً ثم أن رفيق lui قوي، عاد وجمع عسكره وسار إلى البلاد الجزيرة التي يعيشها العادل في سنة ست وسبعين وخمسين، وعزم على حصرها، وكان بها حينئذ الملك الفائز ولد الملك العادل ومعه عسكر كثير قد سيطر على رأسه والده إليه لحفظ البلد من نور الدين، فلم يرسل إليه، فاجاءه رسول الفائز، وصل من معه من أكابر الأمراء، فذهب إلى الصلح ويشيرون به، فأقرضت المصلحة إجابتهم إلى مساعلهما، فالصبرهم على ما بعثوه، وضمنوا أن يدافوا له الملك العادل، ووافقوا له على ذلك. فأرسل إلى العادل الذي تقرر، وسار مع رسله أمير كبير، فراح وفد فتح له وافتقدا واستقرت القواعد وأمنت البلاد، وعاد السيد نور الدين إلى الموصل.

في ذكر حصر العادل مدينة سنجار وما فعله الدولى

دور الدين في حفظها وضبطها.

في سنة ست وستمائة، سار الملك العادل أبو بكر بن ايوب من الشام إلى سنجار في عساكر الشام وعشق الجزيرة ونسي عسكر فحصوها، وبها صاحبة نجيب الدين بن عماد الدين. وهو ابن عم الوحدة نور الدين قدس الله روحه فأرسل قرب الدين ولد إلى الخليفة النوري مستجيرا مستنصر، فسار إلى إربيل إلى الملك المظفر الدين (كوبكدي) (143) في المنفى، فأرسل إلى العادل يسفاعان في أمر سنجار ويطالبان إياها على صاحبها وترك التعرض إليها، فاعتذر عن الإجابة. وذكر لصاحبه ندوبياً...
ذكر وفاة الولى السعيد دور الدين
قدس الله روحه

توفي الولى السعيد دور الدين - قدس الله روحه - ودور ضريحه - في رجب من سنة سبع وستمائة ، وكان كثر الأمراض محرف المراحم ، و اختفت الأطباء في مرضه الذي توفي به ، فقيل لوث مزاج ، وقيل لوث وقيل غير ذلك . تنوعت الأسباب والداء واحد ، وكان رضي الله عنه قوي النفس في مرضه ، لم يغلب عن تدبير الماك ولا سياسته الى ان فارق الدنيا ، ومنه اندثر مرضه انحدر في شبارة إلى الحمام المعروفة بعين القيارة ( 144 ) قلم يد بهما راحة ، فاصعد إلى الموصل فأدركه أجله ليقبل الوصول إليها ، وكان معه المولى بدر الدين فتاه ، فكتم موهته من طبيب وعلاج وخادم.
الثاني في البلدة فانخله الدار ميتا وتركه بالمكان الذي كان فيه مريضاً، ووكل ببابه من يمنع من الدخول إليه، وأمضى في نهاره ذلك مكان وصاعده في طريقه إلى أن توفي فلم يفرغ من جمعية، أظهر الموتية أخر النار. ودفن أوائل الليلى بالدرسة التي أنشأها باطن الموصل. وفي قمة البلد المقام الضرى. حيث أن أهل البلد الرجال النساء باتوا يتردون عامة الليلى إلى الادار السلطانية، فلم يفقد من أحد منهم الحبة الفرد. واشتد الحزن عليه، ولم يدعهم اشتراكهم في المصبة بـ، لأنه كان رفيقاً لهـ، مشـتقاً عليهم، ناظرًا في مصالحهم، وأكثر الشعراء مراثيه وثابينه.

قال فيه البليغ ما قال ذو العيد
وكل بوصفه منطوق

وكلما كردتاء لم يعد
قال جميلاً كما يقول الصيوق

ولما توفي كان عمره ( ثمانية وثلاثين سنة ( 145 ) وكان ملكه سبع عشرة سنة واحد عشر شهراً. وكان اسمه،خفيف الحبة والعارضين بالمرة، مليح الوجه، وقد أسرع إليه الشيب.

ذكر شيء من سيرته

كان رضي الله عنه بعيد الهمم، كبير نفس، كريم الأخلاق، حسن الصحبة مع مماليكه، يمزجهم ويدبض معهم، كثير الاحتمال لما يبدو منهم، فمن ذلك أتيني أعلم أنه في عدة سنين يشكك من بعض أصحابه يذمته إلى أن قال: اقتلاه الله تعالى بمخالفتي. إن أحببت أناساً، ابن فضله، فإن قدمت أخره، وإن أعطيته حريمه، ومع هذا جميعه، فكان يحتله ويعمل عنه ولا يظهر له شيئاً من ذلك.

-357-
وكان رضي الله عنه يحلم عن نوابه ويتغافل عنهم مع علمه بحركاتهم وسكتاتهم، ولقد قال يوماً لمن يثق إليه: المالج هؤلاء نوابي، يخدموني أحمده وليس له شيء وعليه ملك، فما يقضي عليه سنة حتى يوفي في بيته ويغمر الدور والأملاك ويرسل إلي يطلب أن يشتري مني قرابة، ولان لهم عقلاً اخروا الأمور واشتروا بها املاكاً من غير، فإنهما معلمون أنني أعرف احوالهم قدبين وحديثاً، ومع هذه المعرفة فكان يغشي عليهم كان ليعمل به شيء من أمرهم.

وكان - قدس الله روحه - كثير الاحسان إلى رعيته والرفق بهم، والقرب منهم، سريع الانفعال بالخير.

حكي لي أخي مجد الدين رحمه الله تعالى - وكان غايلاً الخبير به - قال: ما قلت له في شيء من صلة ونبل مال أو غير ذلك من الصلاح، فقال لا، وحكى لي أيضًا عنه قال: كنت معه في بعض أسفاره، وكان له سردار بالموصل يكون معه مفاتيح داره، فبلغه أن ولد السردار قد سرق من داره شيئاً، فأرسل إلي ليلاً يأمرني أن أكتب كتاباً إلى الموصل بقطع يده، فاعت usual: إنني مالك بوذا هذا الكتاب الليلة، وإذا أتته به غداً أعرفه مساعد في هذا فاعاد، ممدد ثمانية وثلاثمئة وأنا امتعب ممتد ذلك، فاستدعاني، فحضرت عنه فقال لي: لم لا تكتب كتاباً؟ فأتت له: عادتي محكم أني لا أكتب إلا ما تجيذه الشريعة، فقال لي: هذا سارق توجب الشرعه المطهرة قطع يده، فأتت له: لا قطع عليه، لأنه من غير حرز لأن المفاتيح بيده، فعا عنه.

ومن رفقة برعيته وتعطفه عليهم، أنه كان له غلام قد خدمه قدماً في صباه ووجب عليه حقاً، وكان يؤثر بأن يقدمه ويفوض إليه امرأ، فولاية الموصل، فسلاك مع اهله سيرة فيها بعض الخشونة، فكتب إليه بعض أهله يذكر له شيئاً مما يفعله - هذا النائب فعزله، وباقي مدة معزولاً ثم حمله طول خدمته له على أن
ولاية أخرى ثانية ووصة بالبلاحة والرفعة. فقلبٌ عليه عادته، فعزله ثانياً ميلاً في هوى رعيته واستمالة لاقوته وحفظاً لهم، ومن ذلك أنه قضى مرعاً شديدًا غير مرضيه الذي توفي فيه وعزم مرضيه، فكان الناس على طبقاتهم بحضرت كن يوم باب داره محبت له. فبطلت معاشه، فكان يتكفل في بعض الأوقات العقود لهم، وياصر بدخولهم جميعهم إليه فقسي بعض الأيام حضورًنا

الписыва مجمعون. فحين رآوا أخ صاغراً وقالوا: تريد نبض صاحبنا، فلما دخل راه وبه قوة، فأشار عليه بالعقود لهم والانتقال إلى مكان فسيح أيكي أن يدخل إليه جميع الناس، ففعل وتكفل الحركة واحتمل المسقه طلبًا لرضاه، إذ علم أنهم يؤثرون أن يروه.

وأما وقاره، وهيبيته في حركاته وسكتاته، وملبسه في حياته النهائية، لم يكن يبقي إلا مالاً يعيبه به أحد، فلم يكن يبقي أنبه الحروف والألوان التي يستحسنت الأشباح، ولا يترك على دابته حلياً من نذهب ولا غيرها، بل ترك ما كان يسلكه غيره من قواعد السلطنة والإقامة تحت قدمه ونزع نفسه عن أثقة منه.

وأما شجاعته، فالذي ذكرنا من حالاته بدل على غاية الشجاعة وقوة النفس، وزيادة الأقدام، ومنهن ذكرنا هيهن ذكاء، وهي أنه رضي الله عنه عزم على قصد بلاد العدو مما يلعبة، وأيضاً عزم الملك الظاهر بن صالح البلين يوسف صاحب حلب، والسلطان غياث الدين وغيرهما، كل منهم يفهم ما يلبه منها، فأقام العدو بحران ليكون في الوسط لضربه الى من يسبق إلى التقدم، فادعى أن السعيد نور الدين كان منحرف المراج وزاد به ذلك، فرآى مصالية العدو فصالحة، وكان العدو لا يزال يراسه سراً يساعيه، فلما تمت الصلح بينهما سار العدو عن حران إلى دمشق، فقيل له لو أقمت حتى يفصل الحلال مع الباقين لكان جيداً، فقال: ليس فيهم من يفكر فيه، إنما الذي يكشف ويرجى هدوء اللين، ومن عداه
لا يتم من ينكر من ينكر، ولا يتم من ينكر من ينكر.

وأما علوا همتها

فإن ذلك ما فعله بماردين من انقبانها من العسكر العادلي
وباقاتها على أصحابها، ولونه مما القدر أن فعل ذلك لكان
عظيمًا، وما ذكرناه من طلب ملك البلاد فهم علوا الهمة وكبير
النفس.
وأما عقله وحسن آرائه
فإن النهاية: سنمعت أسعد الدين رحمه الله غير مرة، يقول: ليس عند هذَا المولى ذور الدين مثله، والله إنه أعلم بالمصلحة من كل ما رأيناها، وقد رأيت كثيرا من الملوك فهم أهله وغيرهم ما رأيت فيهم سرع إدراكا ولا أهدى إلى الصواب منه في سرعة خاطر. ولو رمت ذكر جهاد آرائه لاجتهد إلى كثير من الأوراق، لكن المقصود التنبيه من كل خلاط على بعضه.
وأما حسن عهده ومراعاته لحقوق خدمه وممالاكة
في حياته
فاننا ذكرنا رأيته منه. فمن ذلك أن أخي مجد الدين - رحمه الله عليه - توفي سلخ ذي الحجة، من سنة ست وستمائة، فأرسل الملك المرحوم ذور الدين - رضي الله عنه - إلى ذاك اليوم عدة مرات يقول: لا تخرجه إلى الجامع للصلاة عليه حتى أقـول لك، فإنني أريد إخليصي عليه - وكان الزمان صيفا - وكان رضي الله عنه ذلك اليوم غير طيب النفس، وهو مدعو لبدن - فلما كان العصر وقفر الحر، أرسل إلى يأمرني بحمله إلى الجامع، وأنحن وهو فسيقنا، فلما رأى الجنازة، بلغني عنه بكي كثيرا وأظهر التاسف، ونا قضينا خدمته بعد ذلك أظهر لنا من الهم بسبة شيئا كثيرا، وحمينا له ما جرت العادة وفيه سجدة للصلاة، فردنا وأستنا، أي كان بلائه بنفسه، فأمرونا إلى السجادة، فمدنه وانحننا، (حدث) هذا جميعه وهو شديد الوعك، ولم يزل بعد ذلك يزداد مرضا إلى أن توفي بعده بسبعة أشهر، رضي الله عنه.

ومن محاسن أعماله المدرسة التي انشاؤها بباطن الموصل مقابل
دار المملكة، وهي أحسن الدارس، ووقف عليها الوقوف الكثيرة، وجعلها وقفاً على ستين فقية من الشافعية، سوئاً ما فيها من الصدقات الداررة والتعهدات الصوفية والفقيرة.

ذكر ملك ولده الدولة الملك القاهر أعز الله أنصاره

كان الدولة السعيد دور الدين - قدس الله روجه كـ دير ضريحه - قد عهد إلى ولده الدولة الملك القاهر العالم العادل المؤيد المنصر، المظفر المجاهد المرابط عن الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، ناصر أمير المؤمنين، أبي المظفر مسعود أعز الله سلطانه، وأعلى شأنه، ونصر جنده وأعوائه، وخشل عدد دولته، واهائه.

وهذا دعاء لو سكت كفه
لأتي سألت الله فكره وقد فعل

قبل وفاته بعدة سنين، لأنه كان يرى الدنيا بعيدة، ويسمع منها بانته، ويشتهب صعاب الأمور منه، ويستحي بقربه، ويستغذ نسم الهواء به ولم يزل في حجره، وبين صحرته ونحوره، فلما اشتد بالرحيم المرض، ورأى أن جوهر حياته قد استحال إلى العرض، جدد العهد له، وأمر باخذ الميثاق على كرامة الأولية من الاجتاد والأمراء والأعيان والأماثل والعلماء والأفاضل.

سعد المالوك لسبع عشرة حجة
ولدتاه إذ ذاك في إشغال

فعت بهم همهمتهم وست به هم المالوك وسورة الإبطال

- 362 -
فلمما تذوقي السعيد رضي الله عنه وأرضاه، واكرم نزله ومثواه، قام مقامه، وحفظ من الملك نظاهه، وثلاق ذلك الفتق، ورفع ذلك الخرق، واقفنا اثر السعيد بآباه، في كل ما يذر

زئاد على مشاراد أباوه
به وقد شاد الذي أثلوه

اقصر كل الخلق عن شأوه
حسرى وطال الكل إذ طالوه

واضحت الدولة باستم، بعد أن كانت باكية، وشاكرة، بعد أن كانت شاكية، ومستبشرة، بعد أن كانت باسرة، وعاوها بهاوه وروعتها، وفارقتها عبوسها وروعتها.

ولنا فرغ من وظيفة العزاء، بذل من الأموال والتشريفات -الم
يسألية مسnn مضي ولا يدركه مسnn هـوات، عمـst الأمير والمارم، وشاملت الصغير والكبير، وأظهر من الجود ما عبر على حاتم وكعب، وحير كل ذي عقل ولب، وهذا موضع المثل: ليس السرف في الشرف، وحين أسقفت في الدست ظهر عليه من عمو الهمة الى معالي الأمير، ومحبة العدل في سياسة الجمهور، ومن الغرام بمكارم الأخلاق من الحلم والسخاء، والغفوة والإباء، مالم يجاره فيه احده لا وسبقه ثانيا من عاناه. ولم يبهره مالا ولا وجاء سكينا (146) في ميدانه، وأشتهر عنه من العدل مالو راه كسرى لععاد خجلا يتعثر بأتياله، ولا تستتر حياه من وراء حجاله.

من كان ذلك ابوه كان مجدد
ان يستطيع وأن يشاد بنائه
من كان من نجل البدور ونجزها
لم يعدها إشارة وعلاوه

- 363 -
ما فَرَغَ الدُولَ السَّعِيدَ المَرْحُومَ ذُو النَّدينِ السَّمَكَتِهِ اللَّهُ

- 364 -
- 365 -

فحيح، وجد ماكان ينشده، وظفر بما كان يريده ويقضنه تقدم إليه بخدمة ولدته وحكمه في اموره ورجاله ولدته، ورأى أنه قد استدعى هذا المهم إلى الولي الولي، وقرر هذه المعاونة إلى الخلق الكافي. وقد كان رضي الله عنه يتفكر في هذا الأمير، إستحقاق التقدم والتفصيل، فلم يزل يترجح بين الطافه وكرامته، ولولاهه وقابله، من رتبة إلى أخرى هى أعلى منها مكانا، وأرفع شأنها، إلى أن ولاء إمارة الجوهر والمساك، وسياسة القبائل والعشراء.

ولما استأثر الله تعالى بالرحوم، قام في خدمة الدول الملك القاهر
مقاما يحميه عليه الداني والقاصي والمطيع والعاصي، والبابي والحاضر، والمنجد والقائم، وقد جاهه على حين فتره من الكرام، وكثرة من اللثام، فجذب من أعلام السيادة مـا كان بارسا، وأضحك من ثغور الردمة ماكان عابسا، واختالت الدولة من حسن تสาธารه أختيال العروس، ورفقت من صاصب ارائه في احسن لباس، وافتخر به نهره على سائر الدهور.

إذا نحن أثينا عليك بصاحب
فانت كما نثني وفوق الذي نثني
 وإن جرت الالافاظ يومنا بمتحه
 لديرك إنساننا فانت الذي نعني

هذه نبأة يسيرة من محاسنه تليق بهذا المختصر، وقطره من بحر مكاره تناسب هذا المختصر، ولو أوردتها مفصلة لخرجننا عمـا اعتمناه، وترتكنا ما قدناه، ونحن إن شاء الله تعالى نأتي على كثير من ذلك في المستقصى في التاريخ، والله الموفق للصواب، وهمـو حسننا ونعم الوكيل، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدتنا محمد وعلى آل وصحب الإبرار وسلم تسليما كثيرا.
حواشي ابن جبير

1 - كناء صاحب الوصل سيف الدين غازي بنت قطب الدين بنت زنكي، وصاحب سنجر
هورده بنت زنكي الثاني. ويشير معلمات ابن جبير على ما وردت ابن الأثير في الباحث.
2 - يصف ابن جبير إصلاح الهلال بسبب الثقاب.
3 - طبق الدين البغدادي بنت النسيم، تقدم ذكره في تاريخ امندوخارين.
4 - نظر المجهول لمعد ماجد المراكي - ط - القاهرة 1914 م - 450 حيث نسبه للحسن بن
رشيد.
5 - أي الخنازين لاسماً للاثنين منها.
6 - أي برهز.
7 - الملائكة هناء الزواج.
8 - سورة سهرا - الآية : 42.
9 - مسورة إحدى قبائل الموحدين، انظر التفسير الشهير من 17.
10 - الفضل هذا مقصورة بالصغير.
11 - سورة الأسراء - الآية : 97.
12 - كنا وهو هم، فإن سميسقات مذابة على شعاع، الفرات، مععم البلدان، والسيسيفي هو
أيهم على محمد، وكان من أعوان دمشق.
13 - نسبة إلى الأخذين بين قيس التميمي الذي عاصر الإمام علي واوائل خلفاء بني أمية وشهر
بالمثل.
14 - رهيد ي흡 نسبة إلى الخليفة هرود الرشيد، والجعفر نسبة إلى جعفر المتوكل.
15 - عمرو بن نسيب، نسبته إلى أمير المومنين عمر بن الخطاب.
16 - كناء بالاصلي.
17 - سورة الاعرف - الآية : 155.
18 - سورة يوسف - الآية : 90.
19 - أي عم عصفر كلمة.
20 - سورة طه - الآية : 137.
21 - الرهود: السكن، القاعوس.
حواشي كتاب الباهر

- 15 - كان بالأسهل وهو يرمى على جهف من أوراق، كما تقدم معنا في الجزء الأول من المدخل.

- 16 - يرجع أنه مات مسموماً.

- 17 - طارث ولزام إلى أنه يوزر من جروان، وهذا لساعون، ومعهم اليلد.

- 18 - يضيف ما بين الحاخامين أن يكون أثناء تمار في وقته.

- 19 - من غير المكية أنه خلف اللغز بالسلطة في بغداد بل إنه رام ذلك وخلف.

- 20 - من ألوان القوارب النهرية.

- 21 - كان دائما أن يجهز الأشرار، وكان من أبرز شخصيات عصره.

- 22 - اعتبرت الأشرار من الذين يشيعون.

- 23 - السامية الثقافة التي يشتاق عليها.

- 24 - الجند: العرضية: صب وصعب شديد. القاموس.


- 27 - من ألوان المارك النهرية.

- 28 - هكذا يظهره بعد أسطرة.

- 29 - سورة الأنفال: الآية: 22.

- 30 - يضيف ما بين الحاخامين لاستقاء المنطقية والبهاء.

- 31 - سورة الإنسان: الآية: 45.

- 32 - خزيمة القصر وجريدة العصر للعدالة الإنسانية، قضيب بالشام، ح 1 - 1 - 1430 م.

- 33 - المبكر: الأدبي الذي تجلبه اثاث فيجارها، وعزة كهيئة المرفقة تنفس السر.

القاموس.
34 - في بلد دمشق.
35 - في الأردن، بارين (بقرية تتبنا ناحية عوج - منطقة مصياف، محافظة حماة في سوريا). معجم الجغرافيا للفاروص العربي، البكر.
36 - في الرحم.
37 - في أيام معركة القادسية.
38 - سورة الأحزاب - الآية 73.
39 - سورة الصادق، الآية 3.
40 - سورة النساء، الآية 240.
41 - مركز الموصل من أعماله وفج诗boarding، معجم البلدان.
42 - مازالت تمثل الاسم نفسه في عراق اليوم.
43 - نظر ما تقدم حول هذا الأمر نفسه لدى المصادر السريانية وليد ابن الأزرق الفاروق.
44 - أبو تمام الشاعر.
45 - ديوان المتنبي، بابور، 1669، ص 272.
46 - أبو بير، أمرا وطيوره سواء.
47 - سورة الأعراف، الآية 149.
48 - سورة هود، الآية 102.
49 - الخالص، الشام.
50 - سورة الأسراء، الآية 81.
51 - سورة النور، الآية 55.
52 - إضافة من السياق نفسه.
53 - الزوارنة كورة بين الحلال والإبراج، بابكر والمولود معجم البلدان.
54 - إضافة مماثلة صاحب الروضتين كما سبق معي.
55 - فاطما عبيدة، البكر.
56 - يوم الهجارة من أيام العرب قبل الإسلام ببين عيسى ونبين. وكان البراء بن عيسى مرسلاً في الإسلام وهو الذي تسبح العرب في تجربته. والبراء هو سبيل حج كل شيء بملكة سنة.
57 - هوجرة.
58 - على مقرية من الطرق عند موقع أبي هريرة.
59 - زيد الدين، البكر.
60 - في الرحم، معجم البلدان.
61 - في المعجمات مع الروضتين.
62 - صحبة على أمور مسكة، معجم البلدان.
63 - في مساتير الدمشق.
64 - في مساتير البلدان.
65 - على مقرية من خان الزراعة خارج دماس.
66 - في مساتير الصادق، الآية 44.
67 - بين العشرين والخماس، معجم البلدان.
68 - في محله في منطقة العرب.
69 - هو عبد الله محمد بن مصبر القرشي، من شعباء الغزية - قسم بلال.
70 - هو محمد بن محمد بن صوفي التميمي (ت 1178 هـ / 564 م) أنظر ترجمته في بيблиو

71 - زيارة اقتصاديا البسائى ومنه المحتوى.
72 - اتفاقيات هذه التفاوض مع الخبراء.
73 - هذه الأبيات لا يبنى من أي طبراني. أنظراً بولاية - ط. طرابلس 1986.

ص 208 - 214.
74 - غداة ص 215 - 218.
75 - يزيد ما بين الحائرين من الكمال لابن الأثير ح ص 29.
76 - نظم الغرية - فس الاملاء - ح ص 167 - 169. هنا وجميع الواقعت.
77 - المذكورة في تواجيجل.
78 - السحاب الذوت الذي لا يجري غزلا أو حبل. والإمراء القوة والإحكام.
79 - ديوان ابن منير الطيبراني ص 273 - 275.
80 - ديوان ابن منير الطيبراني ص 275 - 276. مع فإرقة كبيرة.
81 - في الكمال ج 6 ص 31. في وارفين. وهو الآن كا هو واضح من السياق.
82 - كانت رائدة دمشق اندلاع لرجال من آثاره نبا ما كاذبو على غير وثام مع أمراء.

الدولة البورية.

83 - ديوان ابن منير الطيبراني ص 276 - 279. 193.
84 - كان وهو يوم، فقد ظهر بما متناقلا أولا في كل طابع. وذلك مع بنايات تاريخ الدولة.
85 - ثم جاء الاستيلاء على شيريش على سقوط حكم بيني مرسى في حلب. وسافر إلى مسألة.
86 - هذا كله في الجزء الأول من كتابنا موجي هذا.
87 - للقاء لترام في النجاح الذي إلى شرف المولد. مع بعض البلاط.
88 - اورد ابن الجوزي إخبار هذه الأحداث في كتابه المظلم في غاوة سنة ثلاث وخمسين.
89 - وضع العالم، وقد قُل تعرف كتاب المظلم وهو قد سُهِب على الانتهاء طباعة.
90 - محلة كبيرة ذات أواصر بياليب الجماعي من بغداد. معتم البلاط.

88 - المزلف لفاري علماء الطبالة.

89 - هي بعيرة قطعية الحالية.

90 - أضف ما بين الحائرين من الزوقين. وبهذه المقارنة هذه العلوم مع أوراد التي.

91 - الدمشق أن الجشع الطبراني هو البشري الذي أرسله حاجي بقبية عبد الرحمن بس.

92 - محمد بن الأشتر للقاضي عبد طالب صاحب كاب. معقم البلاط.

93 - في منطقة مثالية التابعة لحاكمية طبراني قرية اسمها السرية. تحت مسراع.

94 - ليس لواحد من هؤلاء نتائج فيما وصلنا من كتاب بقية الطبل في تاريخ حلب لابن العيين.


95 - رتب بين مكان والطائف. مععم البلاط.

96 - الإضافات من الزوقين.

97 - تُطلق العرب على بعض البلاط، اسم جبل. مععم البلاط.

98 - ديوان ابن منير ص 279 - 280.

99 - العدالة حصن قرب طرابلس. مععم البلاط.
قال هذا الخالق الذي حول اعتلال عمره بن العاص فخاف فخاف.

- 108 - سورة الأعراف - الآية ٩٥.
- 109 - الأعراف: الفجر، ظهر، عصر، غروب، ربيع.
- 110 - سورة آل عمران - الآية ٣٦).
- 111 - سورة السفر - الآية ٤٤.
- 112 - سورة البقرة - الآية ٢٤٩.

- 113 - الجنايات هنا ماكان يفرض من قبل السنة من عرائب وعوارض تأبائية.
- 114 - الكهوف: من السحب فصنع كالنجيل، أو المطر مثه، والليل: السراب، القاموس.
- 115 - الإضافات من الكامل ج ٩ ص ١٠٩.
- 116 - الإضافات من الروضتين.
- 117 - إشارة إلى رفع شراب ينفد من الشيء.
- 118 - الإضافات بين الحارمين من الروضتين.
- 119 - التكرار بالفارسية: النعمة.

- 120 - قال هذا البطش في مطلع كتابه البرق الشامي. انظر سنة البرق الشامي.

- ١٩٧٩ - ١٦.
- ١٩٧١ - سورة الإخلاص - الآية ٤٣.
- ١٩٧٢ - سورة الأسراء - الآية ٥٨.
- ١٩٧٣ - سورة الأحزاب - الآية ٣٨.

- ١٩٤٤ - كان وادي السدرة الذي سلم من قبل سنة ٥٤٤ هـ. ١١٤٩ م سنجار لدور الدين.
- ١٨٧٥ - النجوم: نغمة بحنين فيها. القاموس.
- ١٨٧٦ - الإضافات من الكامل ج ٩ ص ١٨٨.

- ١٧٧٧ - جاء هذا النصون بالسند مشوهًا هكذا: في سبيل قضية التي جرت في ذكر القاضي.
- ١٧٨٨ - فصل في بسم القاضي. على مجاهد بن عياش رضي الله عنه. والموضوع هو الصواب.
- ١٨٩٩ - يشير وهارة في مقالة: صدر جهاز رئيس ذو مقام نجية:
- ١٢٤ - تل موازين بدين رأس دين وسروج. معجم البلدان.
- ١٣٠ - الإضافات من الروضتين.
- ١٣١ - بابا بالاسم.

- ١٣٢ - بعبارة: هكذا على نحو مثل من الدعوى إلى الشرف منها. معجم البلدان.
- ١٣٣ - حاضرصالح النور هو أكثر من مرة.
- ١٣٤ - سورة الصف - الآية ٨.
- ١٣٥ - لمصفي ما بين الحارمين من حق الكرم لا يصيبها العربية.
- ١٣٦ - زيد ما بين الحارمين من الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ٣٣٩.
- ١٣٧ - فراز باللاصل.
148 - أضيف ما بين الحاصرتين من الكامل ج 9 ص
149 - زيد ما بين الحاصرتين من الكامل ج 9 ص
150 - أضيف ما بين الحاصرتين من الكامل ج 9 ص
141 - كان صاحب ماردين أتاك وقايتل البلغيزى بن أرتقى. انظر الكامل ج 9 ص 246.
142 - البيكار كلمة فارسية معناها الحرب والحربة.
143 - الإضافة من الكامل ج 9 ص 231
144 - العليا التي بين اسمية وجزيرة ابن عمر. معجم البلاغ.
145 - استنكر هذا الرقم تقريبا مما تقدم. فقد جاء مكانه بيض بالبئر.
146 - السكين: غر خور الخلبة. القاموس.
147 - أضيف ما بين الحاصرتين من الكامل ج 9 ص 304
المحتوى

٣ - توطئة

١١ - مشاهدات ابن جبير في بلاد الشام

١٣ - ذكر مهنة الوصل

١٦ - ذكر مهنة بنيسر

٢٠ - ذكر مهنة رأس العين

٢٢ - ذكر مهنة حران

٢٦ - ذكر مهنة متح

٢٧ - ذكر مهنة زرعه

٢٧ - ذكر مهنة جبل

٢١ - ذكر مهنة جماء

٣٣ - ذكر مهنة حمص

٣٥ - شهر ربيع الآخر

٣١ - ذكر مهنة دمشق

٣٢ - ذكر مهنة المكرم

٤٣ - شهر ربيع الأول مع وصف دمشق

٥٧ - شهر ربيع الآخر

٥٩ - ذكر مهنة بانياس

٦٢ - ذكر مهنة عكا

٦٣ - ذكر مهنة صور

٦٩ - شهر رجب الفرد

٧٢ - سنة تاريخ به اللمع الغزاة ورحلته

٧٤ - القباية الناصر

٧٤ - الستعمال

٧٠ - يزيد بن سخط

٧٠ - المأفيز

٧٠ - المأفيز

٧٢ - الملوك المعلم

٨٠ - زاير بن شكر

٨٨ - الحاجب المزق

٨٩ - سيازور الأستي

٨٩ - شاهد المأفيز الفاضل

٨٩ - محمد بن محمد بن سكان

٩١ - حوادث سنة ٥٩٧

٩٨ - حوادث سنة ٥٩٨

٩٩ - حوادث سنة ٦٠٠
108 – الباهر في الدولة الاتراكية
110 – خطبة الكتاب
113 – اتباع حايل قسم الدولة الاقطار
115 – مسير قسم الدولة مع ابن جهير إلى الموصل
116 – ملك قسم الدولة لحلب
120 – ولاية السلطان ملكشاه
123 – صلح الاقطار وتتش
124 – ولاية الخليلة الكبرى ولاية الامام
126 – دخل الاقطار
127 – حايل ود نزك بعد
128 – ولاية السلطان محمد بن ملكشاه
129 – ولاية الخليلة الاقطار
130 – العرب بين السلطانين مهير ومصطفى
137 – ولاية الامام الموصل
138 – قطاع نزك وأسط
139 – هزيمة بيس ومسكر بغداد
141 – اتصال نزك بالسلطان مصطفى
143 – اتطاق نزك البصرة
147 – ولاية نزك شمكية بغداد
148 – ولاية نزك الموصل
149 – نزك بن الامام وفاته
150 – ولد نزك جوزية ابن عمر
152 – نزك بن جوزية
154 – نزك حلب وحماة
155 – حرب نزك مع الأرادقة
156 – فتح نزك حصن الآثار
159 – ولاية السلطان مصطفى بن محمد
160 – نزك السلطان مصطفى
163 – وصول نزك إلى بغداد وحماته
164 – تمرير دينز عند نزك
165 – حصار الخليلة الاقطار بغداد
166 – نزك الشهيد ثناة الميسرة
167 – مقتل الخليلة الاقطار وحماية الراشد
168 – مسير الراشد إلى الموصل
170 – خلع الراشد
172 – خرج ملك الزوم إلى الشام
174 – حصار دمشق وتمالك من قبل نزك
178 – فتح مصطفى وعزة الأخضر
179 – خلع مصطفى بارن وحزمته الأخضر
182 – حصار الروم والفاينج حلب
185 – ملك نزك للشيعي وبناء العمارة
١٧٢٢

١٨٥ - الوصية بين السلطان إسماعيل وسليم
١٨٧ - ملك زنكي عدة مصصان من ديار بكر
١٨٧ - فتح زنكي الراها
١٨٣ - محمرة الراها للسرية
١٨٤ - ضلال جمار بالرمل
١٩٤ - ولاية زنكي الذين النهوض
١٩٠ - حصار حصن قائدة
١٩٦ - حصار قناة جعبر
١٩٦ - قتل زنكي
١٩٩ - سورة زنكي
٢٠٢ - حسن راية
٢٠٤ - مهيبة
٢٠٦ - صدقاته
٢٠٧ - قوة عزم
٢٠٩ - غيره

٢١٠ - ماء عنو جمال الدين الوزير
٢١٢ - حصان أهل الرها وقحمها الثاني
٢١٣ - اجتماع دور الدين وسيف الدين ابنه زنكي
٢١٤ - نزول الفرنج على مرزاق
٢١٦ - نزول دور الدين الغررية
٢١٧ - مأك سيف الدين داز نارا
٢١٧ - حصار قلعة مردين
٢١٨ - غزوة الفرنج ببارى
٢١٩ - وفاة سيف الدين غازتي وبعض سيرته
٢٢١ - ملك قلب الدين الدوصر
٢٢٢ - ملك نور الدين الدوصر
٢٢٢ - ملك نور الدين سنجر
٢٢٥ - قضاء قلعة سنجر
٢٢٦ - قتال اليوسف صاحب انطاكية
٢٢٦ - ملك نور الدين الفاتحة
٢٣١ - الحرب بين نور الدين وجوستين
٢٣٢ - نصر جوستين
٢٣٤ - المناصف مع الفرنج بedlyك
٢٣٦ - رفاعة السلطان مسعود
٢٣٨ - ملك نور الدين دموق
٢٤٠ - القبض على سليمان شاه وحمله إلى الدوصر
٢٤١ - حصان نور الدين هارم
٢٤٣ - نزار القلم
٢٤٣ - ملك نور الدين شيز
٢٤٤ - رفاعة على الدين الديوب
٢٤٦ - حصار الملك محمد باهات
249 - وفاء المقال
250 - مسير سليمان شاه الي هميان
251 - حصر نور الدين هارام
252 - اتهام نور الدين بخص الأنكار
254 - القبض على جمال الدين الوزير
255 - مسير شيركوه في مصر
259 - فتح حصن حارام
263 - وفاء حارام
264 - وفاء جمال الدين الوزير
265 - خيبر من الخبراء
269 - فتح قلعة بانياس
270 - فتح النيبورة
270 - عودة شيركوه الي مصر ثانية
272 - ملك أسد الدين الاستكرير
274 - عثمان غازى
274 - مفارقة زين الدين الموصل
275 - ملك نور الدين قلعة جعبر
277 - مسير شيركوه ثالثا الي مصر
282 - وفاء شيركوه وملك صلاح الدين
285 - حصار الفرنج بحبيط
286 - حصار نور الدين الكرك
287 - لايز الشام
287 - غزوة أسيرة نورية
288 - وفاء هيثم الدين ينديكي
289 - حادثة تحدث علي العل
291 - سيرة قطب الدين
294 - وفاء الخليفة المستجود ولاية مستضما
296 - ملك نور الدين الموصل
299 - نادية قريب
301 - اتفاق حملة القاطم
304 - الرحلة بين نور الدين وصلاح الدين
306 - سماع نور الدين من قلق أرسلان
308 - وفاء نور الدين
310 - ولاية الصالح أسحائيل
314 - بعد سير نور الدين
317 - لما فعله من السلاح
318 - بناء دار العدل
322 - وفاته وريته
323 - حملت الهبية
324 - كلام المعاد الاصطناعي فيه
325 - استيلاء غازى على بلاد الجزيرة
264 - وصول صلاح الدين الى دمشق
277 - ولاية قايم باز الموصل
279 - عصبة ابن بوزان
280 - القبض على كمشته
280 - الغلاء والرياه
281 - وفاة الخليلة المستغفه، وثية من سيرته
282 - وفاة غازي بن مورود
283 - ملكة عز الدين الموصل
284 - وفاة الصالح اسماعيل
286 - القبض على قايم باز
287 - حصر الجزيزة
288 - وفاة عز الدين
290 - شيء من سيرة عز الدين
294 - ملك دور الدين بن عز الدين الموصل
297 - وفاة زنكي الثاني
297 - ملك دور الدين الثاني نصيبين
300 - وفاة قايم باز
301 - مافعله دور الدين بحارين
302 - وفاة صلاح الدين
305 - حصر العادل الأيوبي سنحار
306 - وفاة دور الدين الثاني
307 - شيء من سيرة دور الدين
312 - ملك ذوالفقار الموصل
318 - المواري والمعلقات